جمال الغيطاني

مقاصد الأسفار



مقاصد الأسفار

تأليف
جمال الغيطاني



العنوان:
مقاصد الأسفار

تأليف:
جمال الغيطاني

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 5 - 4229 - 14 - 977
رقم الإيداع: 2010/10803
الطبعة الأولى: أغسطس 2011

تليفـون: 33472864 - 33466434 02
فاكـــس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تقديم

جمال الغيطاني: الروائي بطل رحلاته

عبد العزيز المقالح

- 1 -

جمال الغيطاني روائي عربي دخل الرواية من باب القصة القصيرة شأن كل الروائيين الكبار في الوطن العربي. وعلى رأسهم شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ، ولجمال الغيطاني خصوصيته في عالم الرواية. فهو لا يقلد أحدًا من مشاهير هذا الفن السردي ولا يتماهى أو يتشابه أسلوبه مع أسلوب آخر. وتلك ميزة نادرة في زمن التشابه والنمطية في الآداب والفنون. وكما أثرى جمال الغيطاني المكتبة العربية بأعماله الروائية الكثيرة فقد أضاف إلى ذلك الإبداع الروائي فنًّا إبداعيًّا آخر هو كتابة الرحلات الذي صار يحظى باستقبال منقطع النظير في عالم اليوم بما يقدمه للقارئ من صورة حية عن أراضٍ لم يزرها وعن ناس لم يعرفهم فضلًا عما تعكسه الرحلات من تجارب في الحياة ومن رغبة في الخروج من سيطرة المكان الواحد.

تختلف الرحلة في ذهن الروائي عنها في أذهان الآخرين، فالروائي العاشق للترحال يتوق إلى اكتشاف عوالم الواقع وأبطاله الأحياء الواقعيين توقه إلى اكتشاف العوالم المتخيلة في كتاباته الروائية، وهو يتعامل مع المدن التي يزورها، أو يمر بها، تعامله مع أبطال رواياته بحنان حينًا، وبقسوة أحيانًا، وتكاد القاهرة- بالنسبة إلى جمال الغيطاني- تكون هي بطلته الأولى في عالم رحلاته المكانية وتأملاته، ففيها نشأ وتعلم وأحب، بعد أن أمضى في القرية سنوات طفولته الأولى، والرحلة بالنسبة إليه نافذة يطل منها على كل جديد بل وكل قديم أيضًا. وفي كتابه «نوافذ النوافذ» إشارة قصيرة لم تكن عابرة، بل تختزل تجربته في كتابة الرحلات في أقل قدر من الكلمات، تقول الإشارة «تتداخل صور الأحلام عندي مع الصور المعاينة، ويتم عن ذلك أحداث محدودة أمضي بها وأستعيدها فلا يداخلني شك في وقوعها».

وفي الكتاب ذاته يشير جمال إلى أنه لم يعرف السفر بمفرده إلا بعدما بلغ الثامنة عشرة، وكانت تجربته الأولى تتجه شمالًا إلى بحر الإسكندرية الذي رآه للمرة الأولى ضمن فريق الفتوة الذي تلقى فيه تدريبات عسكرية أما التجربة الثانية فكانت عندما اتجه جنوبًا إلى الأقصر. ويوحي الكتاب المذكور بأن أول رحلة خارجية لجمال كانت إلى بولندا، تلتها زيارته الجانب الشرقي من ألمانيا المقسمة قبل أن تتوحد في تسعينيات القرن الماضي، وكانت تفاصيله عن المكان شحيحة، والحديث فيها يتوقف على الأشخاص وليس مع المدن والطبيعة، وهو ما تنبه له فيما بعد عندما امتلأت روحه بعبق المكان ودفعه إلى النفاذ إلى الجوهر والإمعان في النظر إلى لب الأشياء.

بين جمال الغيطاني والمكان على امتداد الكرة الأرضية ما يشبه العشق، وهذا العشق جعله من بين أبرز كتّاب الرحلة في استيعاب التفاصيل واختراق جغرافية المكان بأبعادها الظاهرة والخفية، فصار بذلك واحدًا من المؤهلين لاستقبال ما تخلقه المدن والقرى والضواحي من فتنة بصرية، وما تفيض به على العين والقلب من غبطة يحتاج الإنسان إليها ليشعر أن الحياة جميلة، وأن الطبيعة لا تبخل عليه بشيء يخرجه من عزلته وشقائه، ويعيد إليه التوازن النفسي الروحي في زمن قاسٍ يتحمل الإنسان في كل مكان مسئولية ما وصل إليه من قسوة دانية ومسرات قصية، في مقدمة هذه المسرات ما لا يزال المكان يبعثه في النفس من غبطة وقدرة على التحديق صوب الخارج بعد أن أضناها وأوجعها دوام التحليق نحو الداخل.

ولا ينسى الروائي، وهو يرتحل في صحبة المكان مهمته في رصد ما للكائنات والأشياء من أبعاد غير منظورة للعين. كيف يجعل الأرض الخرساء تتكلم والجدران الصامتة تبوح بما صحبته من مخلوقات ووقائع وأزمان. ومن ذلك الخواطر التي دونها جمال الغيطاني، وهو يقطع واحدًا من شوارع موسكو العريضة فلا يشغله منظر العربات والحافلات والسيارات عن أن يعلق بصره بإنسان وحيد في مدينة هائلة التكوينات «تابعت حركة ظله علق عندي أكثر من الأصل، بل في لحيظات أندمج، فلم أعد قادرًا على التمييز بين الأصل والظل، أحيانًا أستعيد وعيي الطفولي عندما كنت أؤنسن الموجودات كافة، فالجدران تتحدث إلى بعضها على رغم جمادها، والنخلة توشوش للنخلة، والنافذة ترمق الشرفة وربما تتخاصمان. للأحجار لغة غامضة وللنجوم هسيس يبلغ أعماق الأرض.

هكذا رأيت المباني الضخمة المحدقة بالعابر المندمجة بالليل، المتدثرة بإضاءة الطريق الخافتة الخالي من كل إعلان مضيء..».

والغيطاني بعمله هذا ينعش ذاكرة القارئ العربي؛ لكي يستذكر موروثه الجميل في أدب الرحلات الذي كتبه ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما.

- 2 -

العالم متحف شديد الغنى، ثري التنوع يختزن من الأسرار والمشاهد ما يحتاج إلى عيون مدربة، وإلى آذان قادرة على التقاط همس الصخور وموسيقى الأشجار. تخفي المدن تحت الجلد المصنوع من الحجارة أو الأسمنت أو الآجر أو الطين روحًا تحتاج إلى من يستنطقها، ويكتب عما توحي من شعور مطمئن. ومن ليس على دراية بحقيقة ما يكتنز به المكان من سحر وأسرار وما يبعثه من إحساس بالنشوة والتماهي مع الطبيعة في نصها الأول المتعدد الأشكال والألوان، فلا يكلف نفسه مشقة الرحيل إلى الآفاق الجديدة، فليترك هذه المهمة الشاقة اللذيذة لجمال الغيطاني وأمثاله ممن يجوبون هذه الآفاق لا لمضايقة السائحين والسائحات ولالتقاط الصور البديعة بأحدث الكاميرات، وإنما لتدوين مشاعرهم ورسم ما تقع عليه أعينهم الذكية المدربة بحب الجمال في كلمات هي الأعذب.

من رحلته السويسرية، وفي الفصل المعنون بـ «في حضرة بروجل» أتوقف بانبهار عند هذه الفقرة التي يرسم بها لوحة بديعة بالكلمات عن جولته بين برن العاصمة السويسرية ومدينة بازل: «الجو ضبابي.

يسبح القطار في بحر من الضباب كاللبن الأبيض يختلط باللون الأخضر للأشجار والأعشاب، يخرج من برن، لن أنسى أبدًا هذه القنطرة أو ذلك الجسر الحديدي الهائل الذي يقوم فوق هوة هائلة يجري في قاعها نهر من معالم برن، رأيته من بعيد عندما صحبني الصديق فندريش، ولكن المرور فوقه بالقطار والتطلع إلى الفراغ أمر مثير، وما من شيء في السفر يثير عندي الحنين مثل عبور القناطر والجسور، خصوصًا تلك المحتفظة بطابع القدم والعتاقة. الجسر يعني همزة الوصل بين عالمين، بين ضفتين، يعني الاستئناف، الاستمرار، المضي إلى الأمام. من برن إلى بازل طريق شديد الخضرة يمر بمناطق رئيسة ومدن صغيرة مغطاة بضباب وكلما مضى القطار انطوى الوقت وخف الضباب قليلًا.. أستعيد بعضًا من ملامح رحلتي، اليوم أمضيت حوالي عشرة أيام. أصبح جزء من تراثي مرتبطًا بالمكان».

في هذه الارتعاشة المقتبسة يختبئ الشعر أو ينبئ عن حضوره من خلال ما تعكسه اللغة من تفاصيل هذا الافتتان ومنابعه، يمده خيال الروائي بإضافات شخصية تضفي على الصور الواقعية سحرًا عبر هذه اللغة العذبة التي تشبه مياه الينابيع الجبلية في صيف ممطر، والتي تثبت أن صاحبها فنان مسكون بجنون ملهم يتحرك مع أول نظرة إلى المكان الجديد الذي يغشاه في أي وقت من الزمن وفي أي مكان من الأرض.

ولنتوقف مرة ثانية عند رحلته السويسرية وبالقرب من فندق «كورون» في مدينة «سولوتورن»، وهو مبنى عتيق سيظل يتذكر تفاصيله ويتذكر المكان الذي أقام فيه دائمًا:

«يقف الفندق على الناصية في مواجهة الكاتدرائية الضخمة كمنطقة من الزمن المنصرم.. بناء جميل شعرت أنني أدخل إلى عصر مضيء وليس إلى مجرد فندق للإقامة العابرة.. في الممر المؤدي إلى الغرف يحتفظ الفندق على الجدار بالكثير من اللوحات والصور التذكارية، أهمها لوحة تقول إن الفندق كان مستعدًا لاستقبال نابليون ولكنه لم يتوقف إلا لحظات أمام الفندق عند مروره بمدينة «سولوتورن»، وطلب أن يشرب كوب ماء، دفع مرافقه قطعة ذهبية إلى مدير الفندق، كان ذلك عام 1797 في تشرين الثاني (نوفمبر)».

إن المفتاح السحري في كتابة الرحلات لا يكمن فى إجادة وصف الديار والأنهار والجبال والوديان والسهول، ولا في الحديث عن اختلاف العادات والتقاليد بين المجتمعات المختلفة، وما يشبه الأساطير في تصوير غوامض المدن، بل يكمن في هذه اللغة البديعة أو بالأصح الطقس اللغوي المتميز الذي لا يخلو من عفوية، وهو ما يتمثل في كل ما كتبه جمال الغيطاني عن رحلاته العربية والشرقية والغربية، وعن هروبه المتعمد من شروح الدليل وإرشاداته إلى الكنوز التي تخفى عليه، ولو أدى به ذلك إلى التيه والضياع والانفصال عن رفاق الرحلة كما حدث له مثلًا في مدينة «ثلا» اليمانية تلك المدينة الفقيرة الباذخة المتقشفة ذات الأزقة والدروب المرصوفة بأحجار يعود تاريخها إلى أكثر من ألفي عام.. ولهذه الرحلة حديث آخر.

واشنطن 2003

1 عمارة الجبروت

قلت لضابط الجوازات الأمريكي، إفريقي الأصل، إنني أجيء تلبية لدعوة من جامعة جورج تاون، كنت أمسك بخطاب الدعوة في يدي الأخرى، لكنه لم يبد اهتمامًا برؤيته أو الاستفسار عنه، إنما فتح جواز سفري على الصفحة التي طبعت عليها التأشيرة، ألصقها بشاشة الحاسب الآلي، وخلال ثوان ختمها، قيل لي فيما بعد إنه لحظة ركوب الطائرة من أي مكان في العالم إلى الولايات المتحدة، يتم إبلاغ أجهزة الأمن الأمريكية بالأسماء ويجري فحصها ومراجعتها، لم يستغرق خروجنا -أحمد المديني وأنا- إلا الوقت العادي جدًّا الذي تستغرقه الإجراءات في أي مطار، عند تجاوزنا الباب إلى الخارج أخرجت عنوان الفندق الذي يقع قريبًا من الجامعة، غير أنني فوجئت بالروائي والصديق حليم بركات، أستاذ الأدب العربي بالجامعة والمنظم للمؤتمر في انتظارنا، الحقيقة أنني تأثرت لمجيئه، ولترحيبه الحار، قال: إن الروائي العراقي فؤاد التكرلي المقيم في تونس لم يركب الطائرة لأنه لم يكن لديه تأشيرة عبور (ترانزيت) في

باريس؛ لذلك تعذر وصوله، كان المفروض أن يأتي معنا على نفس الطائرة، مضينا برفقة حليم بركات، الطريق من مطار دالاس إلى الفندق طويل، هكذا المسافات في الولايات المتحدة، كان ضوء النهار ما زال في الأفق، الساعة هنا الثامنة، أي الثانية صباحًا بتوقيت القاهرة، أي أنني على سفر منذ حوالي أربع وعشرين ساعة، رغم الإرهاق إلا أنني رحت أقلب محطات التليفزيون لأعرف المتاح منها، بالطبع توقفت عند السي إن إن التي كانت تنقل أخبار رحلة كولن باول وزير الخارجية الأمريكي التي بدأت في الشرق الأوسط، بدأ بزيارة المغرب، ومحطة السي إن إن التي تبث من هنا مختلفة عن تلك التي نراها في أي مكان بالعالم، الأخبار العالمية واحدة، لكن العديد من الأخبار المحلية، في محطة أخرى كان ثمة حوار حول أكبر فضيحة تهز الولايات المتحدة، اعتداء رجال الدين الكاثوليك على الأطفال واغتصابهم، الطريف أن هؤلاء الأطفال يعترفون على شاشات التليفزيون بعد مضي حوالي عقدين من الزمان، أي أنهم أصبحوا شبابًا، والأطرف اعترافات رجال الدين أنفسهم، فيما بعد رأيت عناوين الصحف حول هذا الموضوع، بما في ذلك الصحيفة التي يصدرها الطلبة في جامعة جورج تاون، وبعضهم ممن اعتدي عليه في طفولته!

في اليوم التالي بعد الإفطار مضينا إلى مقر إدارة الجامعة سيرًا على الأقدام، استرشد أحمد المديني بذاكرته، إذ إنه جاء إلى هنا منذ خمسة أعوام، والحق إنها لذاكرة قوية، فلم نستفسر إلا مرة واحدة، تعرفنا على السيدة الشابة لين هاريس المنظمة للمؤتمر، تتحدث

العربية بطلاقة وبلهجة مصرية، إذ إنها تعلمت في القاهرة، بعد التعارف وترتيب الإجراءات الإدارية، قررنا أن ننطلق إلى المدينة، أعمال الندوة ستبدأ من الغد، لن تكون هناك فرصة للتجوال، فالندوات ستبدأ منذ التاسعة وتستمر حتى السادسة مساء.

عند عبورنا الساحة الفسيحة للجامعة لمحت بعض الشبان يرتدون الكوفية الفلسطينية، كان معظمهم ذا ملامح غير عربية، علمت أن الجامعة شهدت مظاهرتين، الأولى ضمت حوالي ثلاثمائة طالب مناصرين للقضية الفلسطينية، ومظاهرة أخرى أضخم مناصرة لإسرائيل، لقد بدأت فظاعات الجيش الإسرائيلي تحدث أثرًا هنا، صحيح أنه أثر ضعيف، ما زال شاحبًا، لكنه بدأ، خاصة إذا راعينا النفوذ الصهيوني القوي، وغياب العمل العربي المشترك تمامًا، يمكن القول إن الحضور العربي لا يتجاوز جدران السفارات العربية، بل إن الخلافات تستشري بين أفراد الجالية الواحدة، ولكن ثمة شخصيات تعمل على لم الشمل ورأب الصدع، من هؤلاء المرحوم الدكتور فوزي هيكل شقيق الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل، والذي تُوفي مؤخرًا، ومنهم أيضًا الدكتور رشدي سعيد أمد الله في عمره.

«إلى أين؟»

«إلى مكتبة الكونجرس..»

اتفقنا على الوجهة، أن نبدأ بالمكتبة ثم نستكشف الأمر فيما بعد، ركبنا سيارة أجرة من أمام إدارة الجامعة، عبرت بنا من جورج تاون إلى واشنطن، جورج تاون تقع على الضفة الأخرى من نهر

البوتوماك، العاصمة الفيدرالية لها قانونها الخاص، وتحيط بها، ميريلاند، وفرجينيا، وجورج تاون، لجورج تاون شخصية خاصة في العمارة، إنها منطقة قديمة، وثمة قوانين صارمة تحدد ارتفاع المباني، لا تتجاوز ثلاثة طوابق، باستثناء مبنى إدارة الجامعة الذي يشبه الكاتدرائية، البيوت أنيقة، صغيرة الواجهات، أمامها أحواض الزهور، منافسة في الأناقة، إنها أغلى البيوت، ثمنًا أو إيجارًا، معظم العاملين في واشنطن يقطنون بفرجينيا، حيث الإيجارات أقل، بمجرد عبور النهر تبدأ البنايات المرتفعة، ومع الاقتراب من مركز المدينة، تتغير العمارة، يختلف الإحساس بها، إنها عمارة دولة، دولة قوية، الواجهات شاهقة، اللون الغالب هو الرمادي، والمرجعية المعمارية الطراز اليوناني والروماني، حيث الأعمدة الشاهقة، والمداخل والقباب التي توحي بمشاعر دينية، هكذا مبنى المحكمة العليا، ومبنى الكونجرس، ومباني الوزارات التي تتوالى في شارع فسيح، به أيضًا المتاحف الشهيرة، في وسط واشنطن مسلة ضخمة بيضاء اللون، إنها المركز، تستخدم كبرج، وداخلها مصعد، يقصدها الزوار والسائحون، مصرية الطراز، لكن أخبرني صديق عزيز زارها أنه لا يوجد أي معلومات مكتوبة تشير إلى أصل الطراز المصري، ربما لأن المسلة مصرية الأصل، ولا يمكن إلا أن تكون مصرية، تعد هذه المسلة مركز المدينة.

تتسم العمارة بالقوة، واستدعيت إلى الذاكرة موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي (سابقًا)، ثمة ملامح مشتركة، إنه الحرص على إظهار القوة والجبروت، تذكرت بعض مباني مدريد وروما التي بنيت خلال زمن فرانكو وموسوليني، الواجهات المتشابهة

والمرتفعة، للعمارة قدرة على التعبير، وتبث أحاسيس مختلفة، منها الرهبة والقوة وقد تشابهت عمارة واشنطن الرأسمالية مع عمارة موسكو الشيوعية في تلك الضخامة.

نزلنا أمام مبنى مكتبة الكونجرس، إنه مواجه لمبنى الكونجرس نفسه الشهير بقبته البيضاء، رغم ضخامة المدينة وجبروت معمارها، إلا أن الحدائق والأشجار لا تزال كثيفة، وفي كثير من أجزاء المدينة، في وسطها، كنت أشم رائحة العشب قوية، ندية، وتذكرت ديوان الشاعر الأمريكي والت وايتمان الذي ترجمه إلى العربية ترجمة رائعة الشاعر العراقي الكبير سعدي يوسف.

أستعيد بعضًا من أبيات هذا الشاعر الأمريكي الكوني:

تعالوا

سأجعل هذه القارة خالدة

سأخلق عليها أسمى جنس طلعت عليه شمس

سأخلق أرضين سماوية رائعة

بحب الرفاق

بحب الرفاق الدائم مدى الحياة

سأزرع الرفقة

كثيفة كالأشجار على أنهار أمريكا

وعلى ضفاف البحيرات الكبرى

وعلى امتداد السهوب

سأبني مدنًا متعانقة بالأذرع

بحب الرفاق

استعدت أيضًا إنسانيته إذ يقول:

أيها الغريب

حين تمر بي، وتريد أن تحدثني

لم لا تحدثني؟

ولم لا أحدثك؟

استعدت كونيته إذ يقول:

أرحل كالهواء

وأهز خصلاتي البيض للشمس الهاربة

أهرق لحمي مياهًا.. في جداول سكرة

أوحد نفسي بالتراب، لأنجم من العشب الذي أحبُّ

فإن أردتني ثانية

فابحث عني تحت نعل حذائك.

إنه نفس المعنى الذي أنشده أبو العلاء قبل أكثر من ألف سنة، وعمر الخيام بعده، لم أكن أفكر في والت وايتمان فقط، إنما في أسماء عديدة من الشعراء والروائيين الأمريكيين الذين أحببتهم وعشقت ما كتبوا، وأحدهم أعتبره من أعظم الروائيين في تاريخ الإنسانية، هرمان ميلفيل صاحب «موبي ديك»، عندما بدأنا صعود الدرج الرخامي العريض المؤدي إلى مدخل مكتبة الكونجرس التي تحوي تراث الإنسانية، كنت أفكر في ذلك التناقض الصارخ بين إنسانية الأدباء العظام للولايات المتحدة، وسياساتها الخارجية والتي تتناقض كثيرًا مع إبداع هؤلاء الأدباء.

2

الصوت الغائب.. عن مكتبة الكونجرس

عند التطلع إلى مكتبة الكونجرس من بعيد، أو عند ارتقاء الدرج المؤدي إلى مدخلها، ينتاب الإنسان أنه في مواجهة عمارة دينية، هذا ما نجده أيضا في مباني الجامعات الشهيرة مثل أكسفورد، والسوربون، أما الأزهر الأقدم فقد وحد ما بين مكاني العبادة والعلم، وهذا دور المسجد الجامع في العالم الإسلامي، مثل القرويين في فاس، والزيتونة في تونس، والمسجد الحرام في مكة، ومسجد صنعاء الكبير، والمسجد الأموي بدمشق، ليس مصادفة إذن أن يصبح أبرز جزء في جامعة القاهرة القبة الشهيرة التي تعلو قاعة الاحتفالات الكبرى، وقد ارتبطت عندي الجامعة بالقبة منذ طفولتي، حتى إنني إذ أمر بجامعة عين شمس، أو جامعة الإسكندرية، وعندما زرت جامعة لندن، دهشت، إذ إنني لم أر قبة، كيف يمكن أن تقوم جامعة بدون قبة؟

يستوحي مبنى مكتبة الكونجرس العمارة الرومانية، سواء من الداخل أو الخارج، اتجهت إلى مكتب الاستقبال، أحمد المديني أكثر جرأة على الاقتحام، قال للموظف الذي يقارب عمره الحلقة

السادسة، إننا كاتبان عربيان، من المغرب ومن مصر، وإننا نرغب في زيارة المكتبة، خاصة القسم العربي، ليس بهدف محدد إنما لنأخذ فكرة عامة عن المكتبة وأقسامها، وكيفية عملها، رحت إلى ردة فعل الرجل عندما أخبره أحمد أننا عربيان، لكنني لم ألحظ أمرًا غير عادي، بل إنه أبدى لطفًا وترحيبًا، قال لنا: إن ثمة جولة يومية سوف تبدأ من المدخل بعد عشر دقائق، وتستغرق ساعة إلا ربعًا، أشار إلى المكان الذي يتجمع فيه الزوار، انتبهت إلى الواقفين، معظمهم أمريكان من الولايات المختلفة، ومنهم يابانيون، يفصلنا عن مكان وقوفهم حاجز مثل حواجز المطار، شريط عرضه حوالي عشرة سنتيمترات من البلاستيك، مثبت إلى أعمدة حديدية، لكي نصل إليهم لابد أن نتجه إلى اليمين، حيث يجب أن نعبر جهازين لكشف أي أسلحة، وبالطبع يطلقان صفيرًا إذا ما كان في الجيوب أي قطع معدنية، علمت أن مثل هذه الآلات الإلكترونية لم يكن لها وجود قبل الحادي عشر من سبتمبر، الآن جميع المؤسسات الهامة لها بوابات إلكترونية، تلك التي لم يكن لها وجود من قبل إلا في المطارات، حتى المطارات الداخلية في الولايات المتحدة كان بها قدر كبير من التساهل، وأذكر أنني في عام ستة وتسعين، بعد وصولي إلى نيويورك قاصدًا كليفلاند في ولاية أوهايو، ركبت طائرة صغيرة تتسع لستة عشر راكبًا، ولم يكن هناك إجراءات تفتيش استثنائية، بل لا أذكر أنني مررت بالبوابات الإلكترونية، تبدل الأمر الآن.

صحبنا موظف المكتب الأمامي المهذب إلى مكان التجمع، وتمنى لنا جولة طيبة مختتمًا حديثه معنا بتلك الجملة التي سمعتها كثيرًا من قبل عندما أمضيت حوالي شهر للعلاج في مستشفى كليفلاند:

you are weclome...

أي مرحبًا بك.

في الموعد المحدد جاءت سيدة أربعينية، ممتلئة إلى حد ما، تفيض حيوية، صحبتنا إلى الطابق الأول، وقفت في مركز الفراغ، لتبدأ الشرح، وكانت تغير من طبقات صوتها، وتستدير من هنا إلى هناك، وكأنها راغبة في توصيل المعلومات بشتى الطرق، تحدثت عن المبنى، وبداية تكوين المكتبة، والحقيقة أنني قرأت عنها في الموسوعة القيمة التي أصدرها الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة في ستة مجلدات ضخمة، عن تاريخ المكتبات منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث.

يبدأ تاريخ هذه المكتبة مع تاريخ الولايات المتحدة نفسها، بعد تأسيس الحكومة الفيدرالية اعتبارًا من عام 1776، بدأت محاولات الاستفادة من مجموعات الكتب الموجودة في نيويورك وفيلادلفيا، ولكن بداية إنشاء مكتبة خاصة للكونجرس كانت عام 1800 ميلادية، عندما تم تخصيص مبلغ لشراء سبعمائة وخمسين كتابًا جرى إرسالها من لندن، وفي عام 1802 جرى تخصيص حجرة لمكتبة الكونجرس في مبنى الكابيتول وقام الرئيس توماس جيفرسون بتعيين أول أمين لها، واهتم الرئيس اهتمامًا خاصًّا بهذه المكتبة، حتى إنه كان يشتري الكتب بنفسه؛ ولذلك تحدثت السيدة إلى الزائرين عن دوره طويلًا، وفي المدخل يطالعنا تمثال نصفي له.

خلال الحرب مع الإنجليز احترق مبنى الكابيتول، وبالطبع احترقت معه غرفة المكتبة، وعندئذ تقدم الرئيس المتقاعد -وقتئذ- توماس جيفرسون باقتراح أن يبيع مكتبته الشخصية إلى الكونجرس، قُبِل العرض، وتم تسليمها إلى الحكومة، وكانت تضم ستة آلاف وخمسمائة مجلد، إنها نواة مكتبة الكونجرس الحالية، تطورت المكتبة خلال القرن التاسع عشر بحيث أصبحت عند نهايته بمثابة المكتبة الوطنية للولايات المتحدة، وفي سنة 1874 عين الكونجرس

لجنة لبناء عمارة تليق بالمكتبة، وبدأ العمل في المبنى عام 1887 ولم ينته العمل إلا عام 1897، وهو الجزء الأساسي من المباني الحالية، صمم ليتسع لثلاثة ملايين مجلد، ويقع على مساحة أربعة هكتارات، في بداية القرن العشرين تم وضع نظام جديد لتصنيف وفهرسة المجموعات، هكذا قدمت أول خدمة مكتبية من نوعها، الفهارس الجاهزة، وبذلك أصبحت عالمية الصبغة، وليست خاصة بالكونجرس الأمريكي كما بدأت، كما ضمت المكتبة الوطنية للمكفوفين، وتقدم خدماتها لجميع المكفوفين في الولايات المتحدة، خلال القرن العشرين، نمت محتويات المكتبة نموًّا سريعًا، ويذكر الدكتور شعبان خليفة أنه في عام تسعة وستين أصبح لدى المكتبة خمسة وخمسون مليون نسخة فوق رفوف المكتبة التي تمتد لمسافة خمسمائة ميل إذا وضع بعضها بجوار البعض، هذا في المبنى الرئيسي فقط الذي يطلق عليه الآن مبنى توماس جيفرسون، ويذكر دليل المكتبة أنها تضم كتبًا بأربعمائة وخمسين لغة، وتضم أكبر مجموعة مصادر روسية خارج روسيا، كذلك الصين، وبولندة، ومجموعات نادرة من المخطوطات العربية، المكتبة مفتوحة يوميًّا لمدة اثنتي عشرة ساعة، وتقدم خدماتها بدون مقابل، وتوجد محتوياتها على شبكة الاتصالات الدولية وموقعها معروف اسمه www.loc.gov

والموقع متاح لمدة الأربع والعشرين ساعة، وبدون أية رسوم، بالطبع هناك أنشطة ثقافية، مثل المعارض، والمطبوعات الإلكترونية، والخدمات الصوتية، وتبادل المعلومات.

بعد أن أصغينا إلى الشرح الحي للسيدة، اتجهنا إلى صالة الكتب النادرة، أو كنوز المكتبة، ولفت نظري أن المعروض منها لا يمكن أن يقارن بمحتويات المكتبة الوطنية في باريس على سبيل المثال،

خاصة فيما يتعلق بالمخطوطات العربية، إن نسخة القرآن الكريم المعروضة تَمُتُّ إلى العصر التركي، وهو عصر حديث نسبيًّا، أما الصالة المخصصة للكتب التي تصور الكون، فتخضع لرؤية توراتية، إذ تركز على الكتب النادرة المطبوعة من العهد القديم، ولكن لا توجد أي نسخ من كتاب الخروج إلى النهار المعروف خطأً بكتاب الموتى والذي يقدم تصورًا متكاملًا عن العالم، وإذا افترضنا أن المكتبة تخلو من برديات مصرية قديمة، فكان من الممكن استنساخ صورة من بردية آني المحفوظة في مكتبة شستربتي، أو بردية تورينو المحفوظة في إيطاليا، وأقول نسخة لأنني وجدت صورة من «الزودياك» المحفوظ في متحف اللوفر، ويعتبر أقدم رسم بشري في تاريخ الإنسانية لأبراج السماء الاثنى عشر، وكان «الزودياك» جزءًا من معبد دندرة المصري الذي شيده البطالمة في الضفة الغربية بقنا، لعبادة إلهة الخصب حتحور، وقد انتزعه شامبليون من المعبد ونقله إلى فرنسا حيث يوجد الآن، إن خلو القائمة المخصصة لتصور الكون من المصادر الفرعونية يجعل هذا الجزء ناقصًا من الناحية العلمية. ولذلك يجب إضافة ما يسد هذ النقص. في نفس الطابق قسم للتصوير الفوتوغرافي، وللصحف النادرة، يعرض صورًا نادرة من القرن العشرين، ونسخًا تعد نادرة من الصحف الأمريكية مثل النيويورك تايمز تَمُتُّ إلى الثلاثينيات، وتذكرت أول جريدة طبعت في مصر خلال القرن التاسع عشر، في بدايات حكم محمد علي باشا، أقصد «الوقائع المصرية» التي لا تزال مستمرة حتى الآن ولكنها أصبحت قاصرة على القرارات الرسمية!

من معرض المطبوعات والمخطوطات النادرة، نصل إلى القسم العربي والدراسات الشرق أوسطية، دخلنا إلى القاعة المستطيلة،

المهيبة، كلاسيكية الطراز، ومما يكثف الإحساس بالعتاقة الخشب الغامق، حيث صنعت منه الأرفف، وطاولات القراءة، والإضاءة الهادئة، قدمنا أنفسنا إلى السيدة المسئولة عن القاعة، إفريقية الأصل، قامت لتشرح لنا أسلوب المطالعة، أو طلب القراءة، كل المطلوب تسجيل الاسم فقط عندها والهوية، وهناك اشتراكات خاصة للاطلاع، والإعارة ممكنة، الصالة للقراءة، لكن ثروة مكتبة الكونجرس من الكتب العربية والدوريات في المخازن الملحقة، يمكن للقارئ أن يطلب ما يريده مسبقًا، ويحدَّد له الموعد الذي يجد فيه ما يرغب الاطلاع عليه، على الأرفف، رأيت دوريات عربية قليلة جدًّا، أعدادًا قديمة من الأهرام الدولي، والحياة الدولية، ومجلات لم أسمع عنها مجهولة تصدر في بعض أقطار العالم العربي، ورأيت جميع الصحف الإسرائيلية تقريبًا، فالقاعة مخصصة للعربية والعبرية.

فوق الأرفف رأيت مجلدات مجلة الهلال منذ صدورها، ومجلة المقتطف كاملة، ودائرة المعارف الإسلامية بالإنجليزية والفرنسية، وما ترجم منها في مصر خلال القرن الماضي، عندما فرغنا طلبت السيدة أن نسجل اسمينا وعناويننا، ثم قالت إن زميلها مصري، اسمه فوزي تادرس، ولكنه للأسف غائب اليوم، في اليوم التالي اتصل بي، وأبدى أسفه لأنه لم يكن موجودًا، وسأل عما إذا كانت ثمة فرصة لزيارة المكتبة مرة أخرى لأن المكتبة تحرص على تسجيل مقاطع من الأعمال الأدبية بأصوات الأدباء، غير أنني اعتذرت للدكتور فوزي تادرس المصري الأصل، فقد بدأت أعمال الندوة، وتستمر لمدة ثلاثة أيام من التاسعة صباحًا حتى السادسة مساء، ومساء الأحد أقلع إلى باريس، هكذا قدر لي أن أزور مكتبة الكونجرس، أشهر وأحدث مكتبة في العالم بما تحويه، وتضمه، وأن يغيب صوتي عن تسجيلاتها!

3 في شارع «إم»

خرجنا من مكتبة الكونجرس في الثانية عشرة والنصف ظهرًا، الشمس ساطعة، اليوم مشمس، يميل إلى الحرارة، معظم الناس تخففوا من ملابسهم وارتدوا الرياضي منها، لمحت في الحدائق من يتمدد فوق العشب الأخضر بثياب البحر، بالنسبة لي كان الجو ربيعيًّا، يشبه الأيام الأخيرة من فبراير عندما يبدأ الشتاء في الرحيل، كنت مع صديقي أحمد المديني نرتدي الملابس العادية التي نحتاج إليها في شتاء بلادنا، لم يكن لدينا خريطة محددة، ولم نكن نعرف المواقع والمباني المشهورة، لمحنا حشودًا تقف أمام الكابيتول، مبنى الكونجرس الأمريكي، ولكنه بالنسبة لنا لم يكن يعني شيئًا خاصًّا، أو قيمة فنية، لقد جئنا من بلاد تعد العمارة جزءًا من تراثها، ولديها مبان تقاس أعمارها بآلاف السنين، ومبنى مجلس الشعب المصري الذي نعتبره جزءًا من القاهرة الحديثة يعتبر أقدم من الكابيتول ومن مبنى مكتبة الكونجرس رغم الأعمدة اليونانية، والمداخل الشاهقة، والقباب الرومانية، هؤلاء الزائرون الذين ينتظمون في طوابير جاءت بهم الشهرة التي أحيطت بها تلك العمارة وليس قيمتها، إضافة إلى

الدور الذي تلعبه في حياتنا الحاضرة، من يعرف قصور المغرب وما حوت كيف له أن ينبهر أو يسعى حتى إلى زيارة البيت الأبيض.

لكن العمارة تكتسب قيمتها أحيانًا من أهمية الدور والبلد الذي يضمها وليس من طرازها، أو عتاقتها أو جمالها، مبنى الكابيتول مثلًا، لا تمر لحظة إلا ويظهر لملايين البشر في الكوكب كخلفية لمتحدث عبر التليفزيون خلال إبداء رأي أو رسالة صحفية مرئية، أما البيت الأبيض والبنتاجون فقد أصبحا من رموز الكوكب، ويرغب بعض القوم في رؤية المشهور أو الذائع مهما كانت قيمته؛ لذلك تزدحم الطوابير أمام تلك العمارات الدالة على المعاني، الخلو من القيمة الفنية، ولكن أسماءها تتصل بمصائر البشر، وسياسات الدول، عندما مررت بالسيارة عبر الطريق المحاذي للبنتاجون، رأيت المبنى الضخم مثمن الأضلاع خلوًا من أي قيمة، فيما عدا قيمته العسكرية بالطبع، إنه نموذج للعمارة العسكرية الحديثة الصماء، مجرد واجهات تتخللها نوافذ صغيرة، متشابهة مثل نوافذ السجون، اللون الأصفر غالب عليه، المبنى ضخم جدًّا، يشبه الحصن، مما يضفي عليه أهمية الفعل الإنساني المرتبط به، فكم من بشر لقوا حتفهم نتيجة تخطيط تم هنا، أو أوامر صادرة عبر إحدى هذه الحجرات، وكم من مخاطر كامنة فيه، في مكان منه تستقر الأدوات المتحكمة في القوة النووية الضاربة التي يمكنها أن تدمر العالم عدة مرات، تمامًا مثل الحقيبة التي يوجد بها الزر النووي والموجودة في البيت الأبيض ولا أعرف إذا كانت حقيبة بالفعل، أم أنه اسم مجازي، هكذا يصبح لكل مبنى دلالة تتجاوز حجمه وعمارته وطرازه، فالبيت الأبيض يعني القرار السياسي الرئاسي، والبنتاجون يعني ما يتصل بالحرب والدفاع وحرب النجوم؛ لذلك لا تعنيني هذه المباني كثيرًا كما تعني أولئك العابرين أو من يريد

العودة إلى بلده ليقول إنه شاهد البيت الأبيض وتطلع إيه، لم ألمح البيت الأبيض إلا من خلال شارع يمر بالقرب منه، عندما أشار سائق التاكسي إثيوبي الأصل قائلًا:

«الرئيس هنا..»

التفت ورأيت أعمدة بيضاء، وطريقًا مسدودًا أمام السيارات، وطوابير من الناس تمضي في نفس الاتجاه، بعد الحادي عشر من سبتمبر ظهرت إجراءات أمنية لم تكن موجودة من قبل، مثل السور الذي يجري بناؤه حول مبنى الكابيتول ليعزله عن الحديقة العامة التي يتصل بها، أو تشديد الحراسة على الشوارع المؤدية إلى البيت الأبيض، أخبرني أصدقاء مصريون أنهم كثيرًا ما شاهدوا الرئيس كلينتون يجري في الشارع أو الحدائق، على مقربة منه رجال الأمن، لم يكن يلحظهم أحد، وظاهرة جري الأمريكيين في الحدائق والطرق لفتت نظري عند زيارتي الأولى في ضواحي مدينة كليفلاند.

انتقلنا من مكتبة الكونجرس عبر الشارع الذي تصطف على جانبيه الوزارات الرئيسية ومؤسسات الحكم الفيدرالي، وأيضًا.. المتاحف، أثناء المشي اكتشفنا أننا نمضي بجوار سلسلة من المتاحف، متحف التاريخ الطبيعي للولايات المتحدة، متحف تاريخ أمريكا، متحف الفن الحديث، استقر رأينا على المتحف الأخير، يتكون من جزأين يصلهما نفق تحت الأرض.

المتحف على أحدث طراز، العمارة تبرز الفراغ، والبشر يتحركون عبره كأنهم جزء من العرض، خاصة عند النظر من أعلى إلى الفناء الفسيح بأسفل، بالطبع لا يمكن مقارنة المحتويات بمتاحف أوربا الكبرى مثل اللوفر، وأورسي، والإرميتاج، لكن المعروض هنا محتفى به على أعلى وأفضل مستوى، خصص طابق مستقل للوحة

ضخمة لماتيس الفرنسي تمثل المرحلة التي أبدع فيها لوحاته الشهيرة مستخدمًا تكنيك القص واللصق بالورق الملون على خلفيات بيضاء، رأينا أعمالًا نادرة لبيكاسو، خاصة من المراحل الأولى، ولجورج براك، ومودلياني، وتماثيل لبرانكوزي وجياكومنتي، فوجئت بوجود أصل لوحة شهيرة لبيكاسو تمثل عاشقين في سن الشباب، أقرب إلى المدرسة الطبيعية في الرسم، كان حجم اللوحة أكبر مما تصورت، لقد تعلمت من التجربة أن ثمة فرقًا شاسعًا بين رؤية أصل اللوحة وبين رؤية مستنسخ لها، أو صورة لها في كتاب، مهما بلغ إتقان الطباعة ودرجة فصل الألوان تظل هناك خصوصية شديدة لمعاينة اللوحة الأصلية مباشرة، وهذه تجربة تكررت بالنسبة لي مع كل الفنانين الذين أحببت عوالمهم، بدءًا من بيتر بروجل في القرن السادس عشر حتى رينيه ماجريت في القرن العشرين، وهناك لوحات فوجئت بها لفنانين غير مشهورين، بعضهم معاصر، كثيرًا ما أتوقف أمام إنتاجهم المعروض في الصالات التي تتركز في وسط باريس، خاصة في شارع نهر السين الذي تقع أكاديمية الفنون الجميلة في نهايته.

خرجنا من متحف الفن الحديث بعد أن أمضينا فيه حوالي ساعتين، الوقت يقترب من الثالثة، والحرارة أشد، المطعم أغلق أبوابه في الفندق، إذن علينا أن نبحث عن مكان نتناول فيه وجبة الغداء، ركبنا سيارة أجرة سائقها إثيوبي، لاحظت وجود عدد كبير منهم في واشنطن، قدرهم أحد الأصدقاء بمائة ألف، ولفت نظري في مطعم الفندق إحداهن، كانت سمراء، أمهرية، تجيد العربية، ولكن أحمد المديني لفت نظري إلى اسمها المعلق إلى صدرها، «لبيت لحم»، كتب بالإنجليزية، وعلمت أنها من اليهود الفلاشا، لقد انتقل عدد كبير منهم إلى الولايات المتحدة أيضًا كما تم ترحيلهم إلى إسرائيل، لاحظت وجود مطاعم عديدة إثيوبية، وفي الشارع الذي

وصلنا إليه والذي يقع بالقرب من البيت الأبيض مطاعم متتالية، لاحظت وجود نسبة كبيرة من الماليزي منها، رحنا نتأمل الأنواع المختلفة ولكننا اخترنا مطعمًا ضخمًا للمشويات، يبدو أنه أمريكي الطابع، والملاحظ أن كثيرًا من المقاهي والمطاعم تستخدم أنواع الخشب الغامق الذي يوحي بالقدم والعتاقة ليكسب تلك الأماكن الحديثة بعدًا تاريخيًّا تفتقده، هذا بالضبط ما ينقص المدن الأمريكية، الزمن، العمق، مهما بدا الجهد المبذول لإضفاء العتاقة، فإن التاريخ لا يصطنع، الإحساس بالتاريخ لا يتضح ولا ينفذ إلى الإنسان إلا من خلال التراكم، وهذا ما يميز المدن القديمة التي تكونت عبر أزمنة متتالية، عن المدن الحديثة التي شيدت في وقت واحد، وعلى سنوات متقاربة، ثمة تجانس غير مريح في واشنطن، ربما مصدره هذا التناقض بين تلك المباني الحديثة، والمنشآت الضخمة التي تستوحي العمارة اليونانية والرومانية وهي ليست كذلك؛ لأن الناظر إلى مبنى المحكمة العليا، أو مكتبة الكونجرس، أو الكابيتول، ربما يوجد درجة من التناسق في جورج تاون، حيث المباني تتخذ الطابع الأنجلوساكسوني، وحيث الارتفاعات محددة بحيث لا يزيد أي مبنى عن ثلاثة طوابق، كما أن مواد البناء المستخدمة تبدو أنها محكومة أيضًا بقانون صارم، فمعظمها من الطوب أحمر اللون.

في واشنطن أدركت مرة أخرى قيمة الفن في تكوين خلفية تمكن الإنسان من رؤية العمق، أو ما وراء الظاهر، عندما دخلنا إلى المطعم لتناول الغداء، رحت أتأمل المكان الرحب، الفراغ الفسيح، بعض الجالسين بمفردهم أو في صحبة، لم يكن ذلك الفراغ غريبًا عني، كذلك طريقة جلوس الرجال والنساء، بل.. لا أبالغ إذا قلت الضوء أيضًا، ثم تذكرت لوحات الفنان الأمريكي إدوارد هوبر الذي عاش في القرن الماضي ورسم لحظات من الحياة الأمريكية،

خاصة خلال الثلاثينيات والأربعينيات، ذلك الإحساس بالمسافات الشاسعة في المكان والذي ينعكس أيضًا على البشر، على العلاقات بينهم، وطبيعتها، كنت أرى الواقع الكامن من خلال أعمال هوبر التي أقضي أوقاتًا في تأملها ومحاولة استيعاب جمالياتها ولم أكن أرى فارقًا جوهريًّا في العمق، رغم أنني كنت أتأمل الواقع في مطلع القرن الحادي والعشرين، الفن الحقيقي يلتقط جوهر الإنسان الذي لا يتغير مع الزمان والمكان إلا بقدر ضئيل.

اللحظة الثانية عندما خرجت من جامعة جورج تاون بصحبة أصدقاء أعزاء إلى مكتبة قريبة تقع في شارع «إم»، هكذا اسمه، حرف واحد فقط، كان هدفي الاطلاع على الإصدارات الحديثة من الكتب، خاصة في علم المصريات، والفنون الجميلة، وشراء تسجيلات للموسيقى الصينية، وموسيقى الرهبان البوذيين، وكلاهما اكتشفته بهدوء، خلال السنوات الأخيرة، بعد استيعابي المستمر للموسيقى التركية الكلاسيكية والإيرانية، عندما رأيت الشارع قلت على الفور

«هذا شارع أمريكي..»

كانت مرجعية بصري، تلك الشوارع التي رأيتها في الأفلام الأمريكية، عدت إلى شارع «إم» ليلًا في اليوم نفسه، كانت ليلة سبت، وفوجئت بتدفق البشر، خاصة الشباب، كأنه مولد، المطاعم غاصة، أصوات الموسيقى، لمحت جموعًا منهمكة في الرقص، رأيت فتيات وشبانًا بمفردهم، كل منهم يحملق إلى الأمام، ربما يبحث عن رفقة، أو يجد أنسه في الزحام، فالوحدة غالبة، وكان بوسعي أن أرصدها عند من التقيت بهم وتحدثت إليهم، أو خلال لمحات عابرة، سريعة، لكنها دالة، كما أنها تتصل بما عرفته من أدب، ورأيته من فن أمريكي، سواء في الفن التشكيلي أو السينما.

4 راكب ناقص

مطاران في العاصمة واشنطن.

مطار دالاس الذي نزلت فيه ومنه سأطير إلى باريس في طريق عودتي إلى القاهرة، ومعظم الرحلات التي تتم عبره دولية، أما المطار الثاني – أو الأول لا أدري لأنني لم أتعامل معه – فاسمه الدولي «إنترناشيونال» وبعكس الاسم فإن معظم الرحلات عبره داخلية، إنه يقع في قلب المدينة، على مقربة من المؤسسات الفيدرالية؛ البيت الأبيض، الكابيتول، المحكمة العليا، الوزارات، حركة الطيران منه وإليه كثيفة جدًّا، وفي الشوارع القريبة منه يفاجأ الإنسان بطائرة فوق رأسه تقريبًا متجهة إلى ممر الهبوط، كثيرون من أعضاء الكونجرس يجيئون من الولايات التي يمثلونها، يحضرون الجلسات وربما يعودون في نفس اليوم، أي أن المطار يخدم المؤسسات الفيدرالية، وإليه كانت تتجه الطائرتان المخطوفتان يوم الحادي عشر من سبتمبر، الأولى تحطمت في ظروف غامضة، ويبدو أنها أسقطت قبل أن تبلغ البيت الأبيض، أما الثانية فقد اصطدمت بأحد أضلاع البنتاجون الثمانية.

حدثني صديق عزيز صحبني في جولة بالعاصمة عند مرورنا بالقرب من المبنى الضخم أصفر اللون، قال: إنه رأى الطائرة لحظة اصطدامها بالبنتاجون، كان ذلك في الصباح، قادمًا من فرجينيا إلى واشنطن حيث يعمل، معظم العاملين بالعاصمة يسكنون فرجينيا لأن الإيجارات أرخص، الطريق في التاسعة صباحًا مزدحم، قال إنه رأى الطائرة قادمة، عادي جدًا رؤية الطائرات المارة قرب البنتاجون في اتجاه المطار الدولي، حيث ممر الهبوط، لكن غير العادي كان الارتفاع الذي تطير عليه، كانت منخفضة جدًّا، وفي لحظات اصطدمت بالجزء الخارجي من البنتاجون، لحظتها شعر أن قوة هائلة دفعت السيارة التي كانت على الطريق المحاذي ولكن على مسافة حوالي كيلو متر، رأى كتلة اللهب والغبار، وعندما نزل من السيارة فوجئ بكل مَن في العربات مثله يحدقون إلى المبنى في ذهول وأبواب عرباتهم مفتوحة.

رأيت العمل قائمًا متصلًا لإعادة بناء الجزء المدمر، يبدو أنه تم، لكن لونه أفتح من لون المبنى كله الذي يميل إلى اصفرار، معدات البناء قائمة، موجودة، ترتفع الأعلام الأمريكية فوقها، فوق الجزء الذي أعيد بناؤه، إن ظاهرة انتشار الأعلام الأمريكية فوق المباني والمنشآت، والسيارات، لافتة للنظر، وقد سألت أكثر من صديق فأخبروني أنها ظاهرة حديثة انتشرت بعد الحادي عشر من سبتمبر، تعبيرًا عن التضامن في مواجهة الخطر، أو تأكيدًا للانتماء بين مواطنين ينتمون إلى أعراق مختلفة في أصولها، تأكيدًا أيضًا لفكرة الأمة، وتعبيرًا من ناحية أخرى عن فقدان الثقة!

لاحظت أن الطائرات لم تغير مساراتها، وكثير منها يمر قرب المنشآت الكبرى ومنها البنتاجون نفسه، لا أعرف التدبيرات المتخذة

الآن، ولكن بالتأكيد ثمة خطوات تم اتخاذها حتى لا يتكرر ما حدث في سبتمبر الذي يعد بحق علامة فاصلة في تاريخ الولايات المتحدة التي لم تتوقع أن يأتي الخطر المباغت من الداخل، والولايات المتحدة لم يباغتها الخطر إلا في الحرب العالمية الثانية عندما هاجم اليابانيون قاعدة بيرل هاربور في الغرب، ولكن شتان ما بين هدف عسكري يهاجم خلال حرب، وبين عمل إرهابي في ظروف عادية، يستهدف رموزًا محددة تم اختيارها بعناية، الاحتياطات التي توقعتها خبرت جانبًا منها عند سفري، بمجرد الانتهاء من مؤتمر الرواية في جامعة جورج تاون، وبعد تمام فحص طبي ضروري، بدأت أستعد للمغادرة، لعبور المحيط في الطريق المعاكس بعد خمسة أيام من وصولي، معظم الطائرات المتجهة إلى أوربا تقلع ليلًا، ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة، ولأنني من الذين يصعب عليهم النوم في الطائرات، فقد حاولت أن أغفو ولو لوقت قصير خلال النهار، ولكن محبة الأصدقاء وحفاوتهم أعاقتني عصرًا عن الصعود إلى غرفتي والتماس بعض الراحة، وكثيرًا ما يؤذيني الخجل، فإزاء ما واجهته من ترحيب، ورغبة في القربى، لم أبد الرغبة في الانسحاب إلى الحجرة للراحة، هكذا صعدت لأرتب حقيبتي وأغلقها استعدادًا للرحيل، ألقيت نظرة من خلال النافذة على المدينة الممتدة على الضفة الأخرى من النهر، والمسلة الشاهقة التي تنطلق من مركزها، إن غزارة اللون الأخضر وتنوعه لافتة للنظر، كذلك درجات ألوان الزهور، وفي كثير من المناطق تبدو الطبيعة بكرًا لم تمس وكأنها في حالتها الأولى قبل قدوم الغزاة الأوربيين، في الطريق إلى المطار بصحبة أحد أقاربي الذين يعيشون هنا منذ زمن طويل ويعمل أستاذًا للأدب العربي في جامعة جورج تاون، كان حريصًا على أن يعرفني على معالم المدينة في الطريق إلى المطار، وعند مدخل يتخلل الأشجار الكثيفة، لا يبدو من خلالها أي شيء، أشار قائلًا:

«هنا مركز قيادة المخابرات المركزية سي آي إيه..»

لم يكن هناك ما يدل على أي مبنى حتى آخر مدى البصر، بالطبع كان ممكنًا أن يمر المكان مرور الكرام، ولكن مجرد المعرفة يثير الخيال ويثبت اللحظة في الذاكرة ويستدعي إلى الذهن أمورًا شتى، لقد أصبحت هذه الحروف الثلاثة دلالة على عالم كامل وتاريخ وأحداث على جميع المستويات، وعنف، وتبدل مصائر دول وأفراد.

أخيرًا وصلنا المطار، عندما وصلت إلى مكتب الشركة الفرنسية، قلبت المضيفة جواز السفر من الشمال إلى اليمين، وعندئذ مددت يدي لأريها الوضع الصحيح، تأملت الصفحات الأولى، ثم تناولت ورقة الدخول البيضاء وأدخلتها الدرج، وبعكس ما جرى مع كل الركاب الذين تقدموني، قالت «لحظة من فضلك..».

ثم غادرت موقعها إلى مكتب ما يقع في الناحية الأخرى، ظللت واقفًا مع مرافقي، وكنت هادئًا تمامًا، إذ إنني مادمت لم أقدم على مخالفة، وليس لدي ما أخافه فلا يوجد ما يدعوني إلى القلق إلا الظروف الطارئة بعد الحادي عشر من سبتمبر، أتت بإجراءات جديدة ومنها ما أقدمت عليه المضيفة الأرضية، في الولايات المتحدة، وعند المغادرة لا يمر الراكب على مكتب جوازات، تقوم مضيفة الشركة التي تنهي إجراءات السفر بالاحتفاظ بكعب الاستمارة البيضاء التي يكتبها الزائر عند الدخول، وهذا يعني انتهاء الإجراءات الخاصة بالجوازات،لا ختم عند الخروج، الختم عند الدخول فقط، بعد حوالي عشر دقائق، وهذه مدة طويلة بالطبع أثناء إنهاء إجراءات السفر، خاصة أن ثمة طابورًا يقف منتظرًا، عادت المضيفة ممسكة بجواز سفري، تتدلى منه صفحات مصورة، تبينت

من خلالها الصفحات الأولى من جواز سفري، ولم أر هذا الإجراء مع الركاب الآخرين، مضيت إلى بوابة الدخول.

هنا لابد أن أفترق عن مرافقي، وضعت حقائبي في جهاز الأشعة، تجردت من كافة المواد المعدنية، بعد عبوري البوابة تقدم مني اثنان يحملان الأجهزة الصغيرة التي مرراها حول جسدي عدة مرات، ثم طلب أحدهما أن أخلع حذائي، فخلعت حذائي، ولأول مرة أمر خلال أسفاري بجهاز الأشعة الذي يكشف أي أجسام غريبة، وهذا إجراء مستجد بعد اكتشاف محاولة راكب فوق الأطلنطي إشعال عود ثقاب، وقيل إن كعب حذائه كان معبأً بالمواد المتفجرة.

أخيرًا.. وصلت إلى المدخل المؤدي إلى الطائرة التي ستقلع في الحادية عشرة، أي السادسة صباحًا بتوقيت باريس التي سأتوقف فيها عدة أيام قبل عودتي إلى القاهرة، الحقيقة أن وصولي إلى باريس يعني وصولي إلى مكان مألوف، أعرفه جيدًا، ولي به صلة وثيقة، ومعارف كثيرون وأصدقاء أعزاء، في باريس أكون أقرب إلى الوطن، وعندي الكثير من المكتبات التي اعتدت زيارتها، والمتاحف، والمقاهي التي أحب، أقول هذا رغم أن لغتي الأساسية هي الإنجليزية.

دخلت إلى الطائرة، أوثقت الحزام، رحت أمني النفس بغفوة ولو لمدة ساعة، أحمل معي أقراصًا تساعد على النوم، ورغم أن الطبيب نصحني بها، إلا أنني أكره اللجوء إليها، أخشى التعود عليها، كما أنني أكره ما هو غير طبيعي، إلا أنني إزاء طول الرحلة وعدم النوم خلال النهار قررت أن أبتلع واحدة، حتى يمكنني النوم ولو لفترة قصيرة، حددت موعد الابتلاع بعد ساعة من إقلاع الطائرة والدخول فوق المياه العظمى، أي المحيط الأطلنطي، بدأت ألاحظ أمورًا غير عادية، المضيفات يرحن ويجئن، يقمن بعدِّ الركاب

وإحصائهم، استغرق الأمر وقتًا قارب الساعة، ثم فوجئت بالطيار يعلن ضرورة مغادرة الركاب للطائرة حاملين جميع أمتعتهم والانتظار في الخارج، هكذا حملت حقيبتي مرة أخرى وامتثلنا للأمر، كان كل منا يتطلع إلى الآخر متسائلًا بالنظر، وما من إجابة، عند الباب سألت أحد المضيفين عن الأمر، فقال إن ثمة خطأ في العدد، راكب ناقص! راكب ناقص يعني وجود حقيبة صاحبها لم يسافر، وهذا يفتح الباب على جميع الاحتمالات، في مثل هذه الظروف يتم إفراغ حمولة الطائرة من جميع الحقائب، وينزل الركاب إلى أرض المطار للتعرف عليها، وكلما تعرف راكب على حقيبته يتم إدخالها إلى الطائرة، هكذا يتم اكتشاف الحقيبة التي تخلف صاحبها.

انتظرنا في الصالة المؤدية إلى الطائرة حوالي ساعة، ثم بدأ انتظام الركاب بعد نداء من قائد الطائرة، عدنا لندخل مرة أخرى، ولنضع الحقائب في نفس المكان، ولنجلس في نفس المقاعد، لكنني قررت تغيير موعد تناول الحبة المساعدة على النوم، ابتلعتها.

سألت جاري الصامت عن حقيقة الأمر، فقال إنه لا يعرف، وتعجبت لأنهم لم يدَعونا نتعرف على الحقائب، أقلعت الطائرة، وعندما فتحت عيني، كان الضوء خارج الطائرة مكتملًا، الشمس مشرقة وزرقة المياه ممتدة، والساعة تشير إلى أن الطيران لم ينقض عليه سوى ثلاث ساعات.

هل غفوت؟ هل نمت؟

راودني الشك، لكن.. كيف انقضى الوقت؟، ماذا حدث وتسبب في تأخير الطائرة وركوبنا ثم نزولنا؟ حتى الآن لا أعرف على وجه الدقة، ولكن المؤكد أن الطائرة تتجه إلى مدينة سأكون فيها أكثر أمنًا، وألفةً، ولست مصدرًا للريبة!

5 الشجيع الأبيض

من الثوابت الرواسخ في ذاكرة كل منا ذلك المشهد الذي كنا نتابعه مشدودين، معجبين، وأحيانًا نكتم الأنفاس، الهندي الأحمر الشرير يركض ممتطيًا حصانه، رأسه معصوب بتاج الريش، عاري الصدر، يشهر رمحًا بيد ويمسك المقود بيد أخرى بينما الحصان ينهب الأرض نهبًا، ثم تنتقل الكاميرا إلى العربات التي تجرها الأحصنة، داخلها حسناوات بيض وأطفالهن الرضع، أو الصغار، بينما الشجيع يقود العربة آمنًا، متطلعًا إلى الأمام غير منتبه إلى الخطر الساعي إليه، المحدق به، العربة تتبعها أخرى، إنها قافلة تعبر أرضًا صحراوية أو جبلية، تتجه غربًا.

القافلة تمضي

الهندي الأحمر يركض يتبعه رفاقه الأشرار شاهرين رماحهم

عند اقترابهم يطلقون صرخاتهم الوحشية،الحادة، المتقطعة، ينفذ الرمح في قماش العربة، تصرخ الحسناء البيضاء، عندئذ ينتبه جون واين، أو كيرك دوجلاس، أو أحد المشاهير من زملائهما الذين

احتلوا مكانة في القلوب لشهرتهم وما يقومون به من أعمال خارقة، لا نعرف بالطبع اسمًا هنديًّا أحمر، أقصد اسم ممثل واحد من الذين كانوا يقومون بأدوار الهنود الحمر، إنما تعلق بذاكرتنا أسماء البيض الشجعان، الأبرياء، الذين يقتحمون المجهول والبراري، ويواجهون بهؤلاء المتوحشين من الهنود، طبعًا بسرعة يتخذ الشجعان البيض أوضاعهم ويسددون غداراتهم أو بنادقهم إلى صدور أولئك الهمج، الذين سرعان ما يتساقطون صرعى، بينما الأكف تصفق في السينما للشجيع، إنها ما يمكن أن نسميه ثقافة الإبادة، إنها الثقافة التي قامت عليها أمريكا الحديثة، والتي نفذها البيض، الأنجلو-سكسون، البروتستانت.

عندما وصل الشجعان البيض الأوائل إلى العالم الجديد، إلى ما يوازي أرض الميعاد عند الصهاينة، كان هناك شعب قديم في القارة، يعيش منذ عصور سحيقة، قدر عدده بمائة واثني عشر مليون رجلٍ وامرأة، أنثى وذكر، جنس بشري يملأ هذه الأراضي حيوية، ونسلًا وزرعًا وبناء، موزع على أربعمائة شعب، خلال أربعمائة سنة تمت إبادة هؤلاء البشر بشكل منظم تسنده عقائدية دينية وسياسية، في الإحصاء الذي أجري في مطلع القرن الماضي، أي عام ألف وتسعمائة لم يكن تبقى من هؤلاء إلا ربع مليون فقط، لقد شنت ضد الشعب الأصلي للقارة أطول حرب إبادة في تاريخ البشرية، تخللها جميع أنواع القتل المباشر أي بالرصاص والذبح، إلى غير المباشر، أي بالجراثيم، ربما كان ذلك يفسر هذا الهلع الذي أصاب الأمريكيين عندما ظهرت جرثومة الجمرة الخبيثة، يقول منير العكش إن ظهور هذه الجرثومة أثار في المخيلة الجماعية حرب

الإبادة، لقد أبيد في الماضي الملايين بجراثيم الجدري أو بمبيد الأعشاب البرتقالي وغاز الخردل، ثم اليورانيوم المخصب في كوريا، وفيتنام، وأخيرًا.. العراق. لا تعترف كتب التاريخ الرسمية للولايات المتحدة بوجود أي بشر في هذه الأرض الشاسعة قبل مجيء كولومبس، إذ كانت خاوية تنتظر آدم الأبيض، الأوربي، الدليل السياحي في تمثال الحرية بنيويورك يؤكد أن تاريخ الإنسان في مجاهل الشمال الأمريكي لم يبدأ إلا في نهاية القرن السادس عشر، أما تلك القلة الضئيلة، المتوحشة من الهنود فلم يتجاوزوا المليون، لقوا حتفهم عبر حروب شنوها هم وأضرموا نيرانها، هكذا حفروا قبورهم بأيديهم، كان الشجعان البيض يدافعون عن أنفسهم، ألا يذكرنا هذا بعبارة العنف المتبادل التي تتردد في الإعلام العربي أيضًا بعد العالمي، والبيانات الرسمية، حيث يسوي أولًا بين الضحية والجلاد، ثم يتبادل كل منهما الوضع، فيصبح الجلاد هو الضحية البريئة، والضحية هو البربري المتوحش، عديم الحضارة، يقول منير العكش إن مصادر وكتب التاريخ المدرسي الأمريكي تعتبر موت هؤلاء الهنود حدثًا مؤسفًا نتيجة أمراض حملها لهم الأوربيون دون قصد، وإن موتهم كان ثمنًا لابد منه لانتشار الحضارة.. الحضارة الأوربية طبعًا.

كان الشجعان البيض الأوائل في العالم الجديد يسمون بالحجاج، وما زال التاريخ الأمريكي يضفي عليهم قداسة طوباوية ويعتبرهم أول نموذج للاستثناء الأمريكي الذي فضله الله على العالمين وأورثه مما أورث بني إسرائيل من قبل، هؤلاء الحجاج الأوائل بدءوا حربًا.

كنا صغارًا، نرى هذه الأفلام المبهرة القادمة إلينا عبر المحيط من هوليوود، نتلقاها في دور العرض بالأحياء الشعبية، والمدن الصغيرة، ثم عبر ذلك الصندوق السحري الذي بدأ يظهر في حياتنا منذ نهاية الخمسينيات.

بعضنا أدرك بفضل القراءة أن هؤلاء الهنود الأشرار هم أصحاب الأرض الحقيقيون، وأن أولئك البيض غزاة قتلة، لكن لم يصغ أحد إلى ذلك، بل واعتبر بعضنا هذا اللغو جزءًا من الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، لم ندر إلا متأخرًا جدًّا أننا نعيش واقعًا مشابهًا في عقر ديارنا، صحيح أن الأدوار تغيرت، والرموز اختلفت، لكن جوهر العملية واحد، اقتلاع شعب من أرضه وتاريخه وإحلال شعب آخر بحجج دينية وسياسية وإمكانيات هائلة لتزييف الواقع والوعي والتاريخ، هذا ما يجري بالضبط منذ حوالي قرن في فلسطين، ونحن الآن نشهد إحدى ذرا المشروع الذي بدأ الإعلان عنه في مدينة بازل في القرن التاسع عشر، المشروع الصهيوني الذي لم يكتمل بعد، والذي يقول جوهره ببساطة إن الدولة الصهيونية من النيل إلى الفرات، أحيانًا تبدو بعض الأمور ثابتة، لا نتخيل حتى مجرد إمكانية تغييرها، لكن لا مستحيل في التاريخ، يمكن إنهاء وجود أمة، ويمكن إبادة شعب، وكثيرًا ما تغيب التفاصيل، بل تنقلب معاني الأحداث وتتغلب رؤية أحد الأطراف على ما عداها.

كثيرًا ما تساءلت عن الصلة الحميمة، الوطيدة، بين الولايات المتحدة، وإسرائيل، ومن خلال القراءة والمشاهدة كنت أثق أن ثمة

شيئًا أعمق من الأسباب الظاهرة، لقد فهمت أمورًا عديدة من خلال المتابعة عبر الشهور الأخيرة، خاصة بعد صعود اليمين الأمريكي المسيحي، القريب جدًّا من الصهيونية، ولكنني عندما اطلعت على تفاصيل ما جرى في التاريخ أدركت أنني كنت أشبه بالجاهل، وأن مشاهد الشجعان البيض الأبرياء وهم يصرعون الهنود الحمر الأشرار لم تكن إلا جزءًا من عملية كبرى لغسيل المخ الإنساني، نشهد مثلها الآن في وطننا العربي، وتتم بعض الفصول بأيدٍ عربية، سواء كانت أقلامًا أو أفلامًا أو فضائيات.

الوثيقة التي توقفت أمامها مؤخرًا دراسة مطولة لباحث سوري يعيش في الغرب، اسمه منير العكش، منشورة في مجلة الكرمل التي يرأس تحريرها الشاعر محمود درويش، عدد الشتاء والربيع لهذا العام، لقد قرأت الكثير عن إبادة الهنود الحمر، ولكن هذه الدراسة تستند إلى عشرات المراجع الدقيقة، وبالتالي تحفل بتفاصيل دقيقة، مذهلة، يتشابه بعضها إلى حد التطابق مع ما تقوم به قوات الجيش الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني، طبعًا مع اختلاف الظروف والأسماء، لكن الجوهر يظل واحدًا.

الإبادة، كان لابد من الاستيلاء على الأرض، وللاستيلاء عليها لابد من إخلائها من سكانها الأصليين، خلال حرب الاستقلال الأمريكية شنت حملة ضد هنود الشيروكي تم خلالها إحراق مدن هندية قديمة، وسيق من بقي من هنود الشيروكي إلى الغابات ليتم إفناؤهم في مذابح جماعية، من يعرف منا أن اسم هذه العربة الأمريكية الصنع الجيب التي يركبها هو ما تبقى من شعب عريق قديم تم إبادته

بالكامل؟ الطريف أن شعب الشيروكي كان حليفًا للإنجليز، بعد ثلاث سنوات أصدر جورج واشنطن الذي يطالعنا وجهه من العملة الخضراء الأسطورية الدولار أوامره بإبادة مساكن هنود الأوركذا، ثم قال في رسالة إلى جيمس دواين السناتور والمفوض السابق للشئون الهندية ما جرى قائلًا: «إن طرد الهنود من أوطانهم بقوة السلاح لا يختلف عن طرد الوحوش المفترسة من غاباتها»، لقد دمر جورج واشنطن ثماني وعشرين مدينة للهنود الحمر من أصل ثلاثين في المنطقة الممتدة من البحيرات الكبرى إلى نهر الموهوك، خلال خمس سنوات فقط، قال أحد زعماء الهنود له: «عندما يذكر اسمك يتشبث أطفالنا بأعناق أمهاتهم رعبًا»، أما توماس جفرسون الملقب برسول الحرية الأمريكي وكاتب وثيقة الاستقلال فقد أمر بمواجهة الهنود الحمر بالبلطة، لم تستخدم البلطة فقط، بل السلاح الجرثومي أيضًا، كان الشجعان البيض يقدمون إلى الهنود بطاطين ملوثة بجراثيم الجدري، بل وضعت خطط محكمة لنشر الأوبئة بين الهنود، وقد أصدر اللورد الإنجليزي أمهرست وثيقة مكتوبة يطلب فيها من قواده نشر الجدري لاستئصال هذا الجنس اللعين، يقول منير العكش إن هذه الوثيقة وصفت بأنها «حجر رشيد» الحرب الجرثومية التي كانت من أفتك أسلحة الغزاة لتفريغ القارة الأمريكية من أهلها، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

كان الشجعان البيض القادمون من أوربا يؤمنون أن هؤلاء الهنود الحمر من جنس نصف بشري، نصف متوحش، وكان الأب اليسوعي جوزيف لافيتو قد ذكر في كتاب له عن عادات الهنود الحمر أن بعضهم بدون رأس، وله عينان في صدره!

لقد رصدت مكافآت بدءًا من عام ألف وسبعمائة وأربعة لمن يقطع ويأتي بعدد أكثر من الرءوس، وكان باستطاعة أي عجوز أبيض إذا أتى بأربعة رءوس هندية لأطفال أن يحصل على مائة جنيه إسترليني،وقد أسس الإنجليزي توماس سميث شركة في بورتلاند لجز أكبر عدد ممكن من رءوس الهنود، والحصول على المكافآت، ثم احترف البعض عملية جز الرأس وسلخ الجلد، لقد صار سلخ الهنود الحمر رياضة محببة عند الشجعان البيض الإنجليز، وفي حفلة أقامها الكولونيل جورج روجرز لسلخ ستة عشر أسيرًا هنديًّا، وطلب من جنوده التمهل حتى يستمتع رجاله بالمشهد، عرف الشجعان البيض متعة تقطيع الأعضاء الجنسية، يقول الليوتننت جيمس كانون إن جنديًّا من جنوده اقتطع فروج هنديات وشدها على مقدمة سرج حصانه، وقام آخرون بعرض الأعضاء الجنسية على قبعاتهم في عرض عسكري!!، إحدى افتتاحيات الصحف شبهت فروات الرءوس الهندية المسلوخة بالضفادع التي اجتاحت مصر قبل خروج بني إسرائيل منها، فيما بعد قال الرئيس روزفلت عن مذبحة أبيد فيها الهنود الحمر: «إن مذبحة سانت كلبرك كانت عملًا أخلاقيًّا ومفيدًا؛ ذلك أن إبادة الأعراق المنحطة حتمية ضرورية لابد منها».

نفس النظرة توجه بها الأمريكيون إلى اليابان في الحرب العالمية الثانية عندما اعتبروا الشعب الياباني من الشعوب المتوحشة، وتم وصف جماجم اليابانيين في وثائق رسمية بأنها مختلفة عن الجماجم الأنجلوسكسونية، أما الجنرال وستمورلاند فقد وصف الشعب الفيتنامي بالنمل الأبيض، والنملة البيضاء يخشاها الأمريكي ويخاف

منها؛ لأنها تهدم البيوت بأكلها الخشب؛ لذلك يجب مقاومتها بالمبيدات الفتاكة، أما العراقيون فقد وصفوا بالصراصير!

الأعداد القليلة المتبقية من الهنود الحمر حوصرت، وتعرضوا للتذويب الثقافي، وتولى رجال هوليوود تذويب التاريخ في حمض الأفلام، وتشويه الذاكرة الإنسانية، بحيث يصبح إبادة مائة واثني عشر مليونًا من البشر عملًا بطوليًّا، اقتضاه الأمر للاستيلاء على أرض الميعاد الأمريكية، هنا تلتقي ثقافة الإبادة الأمريكية، مع ثقافة الإبادة الصهيونية، وما أحوجنا أن نعي وأن نكتشف، وهذا ما أدت إليه دراسة الباحث السوري منير العكش في الكرمل والتي حولت استراحة الثلاثاء هذه إلى كابوس، ولكنه كابوس ضروري كي نفيق ونتنبه إلى خطر الشجعان البيض الذين يبيدون الشعب الفلسطيني اليوم وغدًا، إلا أن الحقيقة تقتضي ذكر العديد من الأعمال الأدبية والإبداعية التي ظهرت داخل الولايات المتحدة تدين هذا الجانب المسكوت عنه في التاريخ والذي أصبح مصدر إحساس عميق بالذنب، وإنني أعتبر انتخاب الرئيس أوباما في عام 2008 حدثًا يخص الإنسانية كلها. فهذا البلد الذي عرف أبشع أعمال التفرقة العنصرية يصل إلى نقطة يتم فيها انتخاب رئيس ملون، يثبت هذا قدرة المجتمع الأمريكي على التطور وتجاوز المفاهيم التي قد تبدو راسخة في وقت ما.

ألمانيا 2006

6 وصول

عندما أوقف توماس سيارته الحمراء أمام مقر معهد الدراسات المتقدمة تطلعت إلى المبنى البادي عبر السور المؤطر للحديقة، قصرٌ على الطراز الحديث، أشبه بالعمارة في جاردن سيتي، المنطقة اسمها جرونا فولت، أي الغابة الخضراء، بالطبع مقر لسكنى الأغنياء، أولئك الذين أقاموا قبل صعود النازي إلى الحكم وما تبع ذلك من اضطرار اليهود الأثرياء إلى الهرب تجاه الغرب أو الولايات المتحدة، معظم قصور المنطقة بيعت بأثمان بخسة، قبل عبورنا البوابة الخارجية تراجعت خطوة لأنظر المبنى الذي سأحضر فيه خمسة أسابيع، مدة ليست قصيرة بالقياس إلى أسفاري السابقة، أطولها استغرق ثلاثة أسابيع، كان ذلك مرتبطًا بصدور كتاب في اللغة الفرنسية أو للتعاقد على آخر، غير أنني هنا سأمضي معظم الوقت في هذا المكان، سأمضي فيه أيامًا من مدتي، أمر قديم عندي أن يشغلني المكان الذي سأقيم فيه، خاصة إذا كنت أقصده لأول مرة، أي شارع؟ ما شكل المبنى؟ ما ترتيب الغرفة؟ يعنيني وضعي في المكان؛ لأنه الجانب الآخر لحلولي في الزمن؟

قبل مغادرتي القاهرة جرى تفاوض حول إقامتي، مرة مع توماس منسق البرنامج الذي جئت في إطـاره، ومرة مع رئيس المعهد الذي لـم أعرف إلا اسمه، تبادلنا الرسائل عبر البريد الإلكتروني، طلباتي تلخصت في ضرورة وجود جهاز للاستماع إلى الموسيقى «ستريو»، خلال السنوات الأخيرة أحاول الإصغاء قدر استطاعتي، كأنني راغب في التزود بالأنغام المتطابقة مع مكنوني، تلك التي رجوت عندها، أن ألحق ما فاتني، الموسيقى موجودة في الكون، وما نقوم به أننا نكشف عنها فقط، نتعرف إليها، لهذا حديث يطول، طلبت طبعًا دورة مياه مستقلة وتأمينًا صحيًّا أبديت استعدادي لدفع قيمته إضافة إلى التأمين الذي أشترك فيه قبل مغادرتي القاهرة، أتحسب لكل طارئ غير متوقع، خاصة في مناطق العبور بالمطارات من طائرة إلى أخرى، لم يغب عني تفاصيل ما جرى لي في ألمانيا خلال مشاركتي في معرض فرانكفورت، وقد فصلت ذلك في كتابي «يوميات الحصر» فليطالعه من يرغب.

في إحـدى الرسائل شرح لي مدير المعهد أمـورًا تخص مقر إقامتي، قال إن مساحتها سبعون مترًا، تضـم دورة مياه وحمامًا، جهاز استماع الموسيقى متوفر.

هاأنذا، أما البيت فهو أرستقراطي الشكل والتصميم، ترى من أقام به قبلي؟ لو اطلع من يبني بيتًا على من سيحل محله لأخذه عجب، ولما صدق.

ساعدني توماس في إنزال الحقيبة الكبيرة، لم أقل له إنني أعاني فتقًا آخر أسفل بطني، عانيت من الأول عام ثمانية وثمانين واقتضى جراحة، لابد أنه رأى إرهاقي البادي، لم تكن الرحلة من فيينا إلى

برلين صعبة، ساعة فقط في طائرة صغيرة تشبه المخصصة لرجال الأعمال، لكنه اضطراب النوم الذي يسبب أرقي وتقدمي في العمر وهواجسي.

في مكتب الاستقبال رحبت بنا شابة فسيحة العينين، بادية الذكاء، غير أن رائحتها عندما دنت مني لم تبعث عندي ودادًا، سلمتني مفتاحين، الأول للباب الخارجي، مزود بقرص مغناطيسي صغير مبرمج، أقربه فقط من دائرة مماثلة في الباب، عندئذ أدير المقبض وألجه، حذرتني من فقده، بعد الظهر لا يوجد أحد من العاملين، كذلك يومي السبت والأحد، أما الضيوف المقيمون فكلٌّ في حاله، المفتاح الآخر يخص الحجرة، تقدمتنا فسيحة العينين إلى السلم، قام توماس بالواجب وحمل الحقيبة حتى الطابق الأخير -الثالث-.

عندما ولجت الفراغ الذي سأتحرك فيه طوال المدة قدرت أنه الموقع الأمثل، تطل من خلال نافذة بعرض الجدار على الحديقة وعلى أسطح البيوت المجاورة المغطاة بالزهور، والنباتات الخضراء، ستائر سميكة وأخرى خفيفة، قدرت أنني سوف أنام والنافذة مفتوحة، درجة الحرارة مفتوحة، رطوبة تخنقني وتحدث عندي ركودًا، بعد انصراف توماس تلفت حولي، المكتب العريض، مكتب أقل حجمًا، أوراق بيضاء.

كل ما يمكن توقعه من أدوات الكتابة، أقلام حبر جاف، رصاص، دبابيس، دباسة، أكثر من ممحاة، أرفف مثبتة إلى الجدار، فوق أحدها عدد من الكتب، في كل سنة يصدر مجلد عن المعهد يتضمن شهادات ومقالات لمن أقاموا فيه، أبدأ بترتيب حاجاتي، تلك عادتي عندما أصل إلى أي فندق أو مقر إقامة حتى لو سأمكث ليلة واحدة،

لابد من إيجاد صلة بالمكان، أبدأ بالكتب والأوراق، في منتصف الكتب نسخة مصورة من رواية لم أتمها بعد.

فوق رفٍّ ضال، علوي، رصصت ما جئت به، القرآن الكريم، ألف ليلة وليلة، المجلد الثاني من البحث عن الزمن الضائع لبروست، ديوان الحماسة لأبي تمام، المجلد الأول من أعمال فؤاد حداد الكاملة.

الأوراق البيضاء فوق المكتب، مسودات الكتاب الذي أخطط له منذ سنوات من الاستمرارية في الثقافة المصرية، أنوي إنجازه في تلك الخلوة، زجاجة الحبر، أقلامي.

أتلفت حولي، عندما يجيء جورج ليصحبني إلى بيت توماس يمكن أن أشتري بعض الأغذية والمشروبات، أحتفظ بها في تلك الثلاجة الصغيرة، جورج والده مصري يعمل في المعهد. آه.. نسيت أمرًا، عدت إلى غرفة الاستقبال، طلبت من الفتاة فسيحة العينين أرقام هواتف هامة، أولها الطوارئ الصحية، ثم عربات الأجرة،كيفية التعامل مع الفاكس، المطاعم القريبة من هنا، قالت إن أشهر مطعم إيطالي في برلين يمتلكه عراقي، على مسافة خمس دقائق من هنا، عادت لتكتب لي أرقام الهواتف التي طلبتها، أثناء تدوينها، خطر لي أن هذه الإقامة لو بدأت منذ ثلاثين عامًا أو عشرين، ربما طلبت هواتف النوادي الليلية وأماكن السهر، لكنني أسأل الآن عن هاتف الطوارئ الصحية...

7 عبور الزو

جورج مولود في ألمانيا، يتحدث العربية جيدًا بأسلوب أقرب إلى الفصحى، يبدو متحفظًا بعض الشيء، لكن شيئًا فشيئًا يكشف عن حميمية مصرية خاصة، ما أعنيه لا يتصل بالتفضيل إزاء النوع الإنساني، لكنني أعني طريقة التعبير، أستعرض لقاءاتي بتوماس هارتمان، بيتر ريبكن، تيري فابر في فرنسا، فاليريا كيربتشنكو، روسيا، شولان هونج كونج، عشرات الوجوه من أجناس شتى، عرفتها خلال أسفاري، وجرى لي بهم تماس وممازجة، لقيت من بعضهم ودًّا ومؤازرة لم ألقها من أقربين، رحت أسأل جورج عن الاتجاهات، عن موقع الغابة الخضراء من برلين، عن رقم الحافلة التي تصل بين المعهد وقلب المدينة، زياراتي إلى برلين سريعة، مرتبطة بأماكن محددة للإقامة، لم أعرفها إلا عابرًا، ولكن الانطباع الأول مهم، لم أنفذ إليها ولم تنفذ إليَّ، لم أقدر على تخيل نفسي مقيمًا هنا لفترة طويلة، بل إنني رحت أتساءل مرارًا، ما الذي أعجب الروائي عبد الحكيم قاسم حتى إنه أمضى عدة سنوات عمل خلالها

حارسًا لمقبرة، وعندما رجع إلى مصر لم يكن هو الذي سافر، تبدو لي أحيانًا صارمة بشوارعها المستقيمة، الفسيحة، والتي كنت أرى فيها أصداء الاستعراضات العسكرية القديمة، وصفوف الجنود الملتفتين صوب نقطة واحدة، شخص واحد لأداء التحية، مرجعيتي الأفلام الملتقطة في الثلاثينيات وخلال الحربين، أيام الآحاد تتجسد الوحدة العميقة في فراغاتها وامتداد طرقاتها، كنت أصغي إلى أصداء الصيحات الجماعية وأثق أنها باقية في اللاموضع، اللامكان الذي لا يمكن تعيينه، يبدو لي اتساق المدينة قلقًا، معمارها غير متوائم، ربما لأنها دمرت عدة مرات وبنيت أقسام عديدة منها في وقت واحد على عجل، إنها مدن ما بعد الحروب، موزعة ما بين حداثة متقدمة وبقايا حالة كلاسيكية خاصة، إضافة إلى انقسامها الغربي، الشرقي، لا يمكن لبرلين أن تقدم بحضورها الماثل الألمانية كما وجدتها في مدن أصغر، مثل لينبرج، نورمبرج، أرلنجن، بامبرج.

أعرف قلب برلين الغربية، عندما أصل إليه؛ حيث محطة حديقة الحيوان، وبرج الكنيسة المدمر زمن الحرب، تنتابني رغبة في اجتياز هذا المكان بسرعة، لا أستريح إلى الأماكن المحيطة بمحطات القطارات، خاصة الكبيرة، إنها أماكن العبور السريع، والإقامة المؤقتة، إنها أيضًا أماكن التربص حيث يتوزع المحترفون، الخطافون، ليحصلوا على ما يمكن الحصول عليه من القادمين للتوِّ. منذ طفولتي أصغي إلى والدي يتحدث عن انتشار النشالين في ميدان باب الحديد، صبية وفتية مدربون على اختطاف حافظات النقود المخبأة في ثنايا الملابس والجيوب العميقة، لديهم دربة ومران طويل، ربما ما سمعته من الوالد يمثل مرجعيتي في الخشية من أماكن العبور، خاصة محطات

السكة الحديدية، في أوربا ينتشر حولها باعة المخدرات والمدمنون، محطة الزو- حديقة الحيوانات- هي الرئيسية حتى قدر لي أن أشهد نهايتها كمحطة رئيسية بعد افتتاح المحطة المركزية الكبرى قبل بدء الموندیال، صممها وبناها مهندس مصري، و ستنشأ صداقة عميقة بيننا، وسأحضر حفلة تقليده وسام الصليب الأبيض من درجة فارس في زيارة أخرى من نفس العام إلى برلين، أعرف المنطقة إلى حد ما، أقمت العام الماضي في فندق سافوي القريب أثناء مشاركتي في التحكيم الخاص بجائزة الريبورتاج الأدبي، هناك مناطق أعبرها بسرعة حتى في ذاكرتي عند استعادتها، من تلك الشوارع المتفرعة من محطة الزو تلك، توقفت مع جورج أمام «سوبر ماركت»، مزدحم، اليوم سبت ومعظم الزبائن يتزودون لعطلة نهاية الأسبوع، اشتريت زجاجات ماء- اكتشفت فيما بعد وجودها في المعهد- وعلب طعام محفوظ، ولبنًا وجبنًا، وخبزًا، وطماطم وخضارًا، أي ما يمكن التزود به خلال إقامتي، خاصة يومي السبت والأحد؛ حيث لا يقدم الإفطار ولا الغداء في مطعم المعهد، أما العشاء فيوم الخميس فقط، علاقتي بالطعام محورها الإمكانية، فإذا توفرت أستمتع به كخبير متذوق، أما إذا انعدمت فإنني أكتفي بما يسد الرمق حتى لو خبز بدون غموس، بل إنني أستمتع بمذاق الجبن الأبيض الدمياطي إذا ما اقترن بالخبز البلدي وأعتبر لقاء العنصرين من مصادر متعتي، يمكنني أن أفهم حرص الزعيم جمال عبد الناصر على اصطحاب علبة جبن أبيض من الصفيح في رحلاته إلى الخارج، أثناء رحلاته، كان طعامه المفضل، وإن كنت لا أدري موقع الخبز أثناء سفره، هل كان يصحب معه الخبز البلدي؟

وضعت المواد الغذائية في حقيبة العربة، ثم قصدنا بيت توماس الذي لا يبعد كثيرًا عن محطة الزو.

بيت قديم، يقع فوق المقهى الأسود، نفذ بأعجوبة من قصف الحرب الثانية التي دمرت معظم برلين، يرجع تاريخه إلى بداية القرن، سلالمه خشبية، غرفه فسيحة، والأسقف مرتفعة، فراغات البيت تحيلني إلى بيوت الميسورين في القاهرة القديمة، للعتاقة حضور وقوام أكاد ألمسه، مكتبة توماس عامرة، مكتبه عليه حاسب آلي وأوراق وملفات، في الصالة مائدة سنتناول حولها طعام العشاء.

8 عشاء في شارع كانت

يطل بيت توماس على شارع كانت، طويل، ممتد، قطعته العام الماضي مرتين مشيًا عندما جئت للمشاركة في الحفل النهائي لجائزة الريبورتاج الأدبي، كنت قادمًا من باريس إلى برلين، بعد وصولي خرجت من فندق سافوي لأكتشف المكان المحيط، التقيت فرانك بيربش ومساعدته إسترجولرادو، إنهما القائمان على أمر الجائزة، أشار فرانك إلى مطعم اسمه بار باريس، قال إنه من أشهر الأماكن التي يجتمع فيها المثقفون الألمان، مضيت إليه لتناول العشاء، بعد إقامة عدة أيام في باريس، ها أنا أصل إلى مطعم يرفع اسم العاصمة الفرنسية، اللوحات والصور الفوتوغرافية تغطي الجدران، لا يوجد مكان خالٍ، اضطررت إلى الانتظار قليلًا حتى أجلس، أتطلع إلى الملامح التي لا أعرف أصحابها، بقدر وحشة الشوارع في برلين بقدر الحميمية السارية بين رواد ملاهيها الليلية ومشاربها، ثمة حياة أخرى داخلية لكي نتعرف إليها لابد من مدخل ومعرفة باللغة، بدون ذلك تضرب الوحدة نطاقًا متينًا، ويظل الإنسان غريبًا مهما اقترب، هكذا رحت أتطلع إلى من يتسامرون حولي، عندما جئت إلى

برلين عام ثمانية وثمانين اصطحبني أدونيس في الليل إلى مطعم في مكان ما أجهله الآن، تمامًا كما أجهل موقع الفندق الذي نزلت فيه والمحتفظ بأثاث القرن الماضي، ومذياع من فترة ما قبل الماضي، أهتم بالأماكن التي أعبرها، أجتهد في احتفاظ تفاصيلها، غير أنني سرعان ما أفتقدها، تتوه عناوينها مني، فكأن من أقام بها غيري، لا يتبقى إلا ندف من صور ربما تعبرنا أحيانًا، وربما لا تظهر إلا بالتداعي وقد تفلت تمامًا.

هاأنذا في بيت توماس، أتأثر خفية عندما يدعوني صاحب أو صديق إلى بيته، يعني ذلك درجة من الحميمية، في المغرب عام سبعة وتسعين، صحبتني أديبة مغربية إلى بيت والدها الجميل، مغربي النمنمة، تناولنا الإفطار في ساحته الداخلية التي تفيض بالزخارف الأندلسية، دعاني الرجل إلى جولة ليطلعني على البيت، تنقلنا من غرفة إلى أخرى، في الطابق الثاني توقف أمام باب موارب، قال إنه لمس عندي ما يجعله يطلعني على ما لم يره أي ضيف، حتى الأقارب، فتح الباب، «قال مشيرًا بيده»:

«غرفة نومي..»

رغم أنني لم ألتق الرجل منذ ذلك الحين، وأثق أنني لن أراه مرة أخرى، لا أدري إذا كان على قيد الحياة أم فارق، عنوان ابنته ضاع مني، كما غابت أخبارها عني، إلا أنني أكاد ألمس ذلك الود المقيم بيني وبينه حتى الآن، بعد حوالي عشر سنوات نزلت نابولي، بعد رحلة نظمها ميكائيل كاباسو إلى بركان فيزوف، في طريق العودة توقفنا في قريته، والده سياسي شهير، كان عمدة لمدة أربعين عامًا، وقف بجهده إلى جوار الناس في أوقات عصيبة، خلال الحرب،

وخلال ثورة البركان عام أربعة وأربعين، صحبنا ميكائيل إلى بيت الأسرة، تقع شقته في الطابق الثاني، مساحتها تقارب الأربعمائة متر، موقعها ماسك الجبل من ناحية والبحر من ناحية أخرى، أثناء وقوفنا في الصالة، تطلع إليّ، قال إنه سيطلعني على شيء خاص، توقف لحظة ثم قال بنفس إيقاع الرجل المغربي:

«غرفة نومي..»

ثم أكد لي أنه لم يدع أحدًا من قبل لدخولها، أومأت وعندي نفس ما مر بي في ذلك الصباح المراكشي النائي.

لم يدْعُني توماس لرؤية غرفة نومه، غير أنني تحركت في بيته وكأني في مكان أعرفه منذ سنوات، ألفْته وألِفني، يرجع ذلك إلى حميمية توماس، بساطته وترحيبه وطريقة تعبيره عن الأشياء، العشاء مقام بمناسبة وصولي، بدأ برنامجي بصحبة أنجوس شولتز الذي لم يكن يوجد في برلين، وكان توماس يكرر ما يشبه الاعتذار عن تغيب أنجوس غير المقصود لارتباطه في كرواتيا ببرنامج قراءات، كنت أومئ صادقًا لا يمثل ذلك أي حساسية بالنسبة لي، منها صلتي الوثيقة بأنجوس ومعرفتي به، وأيضًا الهدف الحقيقي هو الخلوة بنفسي وإنجازي الكتاب الذي أخطط له منذ مدة.

حول المنضدة جلسنا، أستاذة مغربية الأصل شعرها فوضوي التصفيف، أستاذة بإحدى الجامعات، رغم أننا تبادلنا البطاقات إلا أنني لا أذكر الآن اسمها وطريقة تطلعها إلى الأمام، إلى جواري أستاذة سورية الأصل قالت إنها تعمل في مجال البحث الاجتماعي، خاصة في مناطق المهجرين، أتراك وعرب ومن أوربا الشرقية، تحدثت عن المشاكل التي تلقاها النساء، الاعتداء عليهن بالضرب

نتيجة اختلال القيم المتوارثة وما يوجد في المجتمع بالفعل، تحدث جورج عن تدهور مستوى التعليم الألماني في المناطق التي تتواجد فيها الجاليات الوافدة، أطفالهم أكثر تخلفًا من أطفال الألمان، يؤدي هذا إلى خلل في العملية التعليمية.

تطلعت إليه صامتًا، دهشًا، إن والده مصري الأصل، لم يعجبني منطقه، غير أنني لم أعلق، فلم أعد أرد على كل ما يستثيرني أو لا أرضى عنه، إن نزوعي أكثر إلى الداخل، حتى إنني تساءلت في لحظة من الليل المتقدم وكل منا يوشك على الانصراف:

«لماذا جئت؟ لماذا أنا هنا؟..»

9 إن بيتًا أنت ساكنه

يسكن المفكر الايراني الإيراني عبد الكريم سيروش في نفس المقر، تعرفت إليه في المطعم، مع الإفطار الصباحي، أتناول إفطاري في التاسعة، أنزل من الطابق العلوي بعد طقوس الصحو؛ من حلق لحية والوقوف تحت الدش وترتيب الفراش، الطقس حار، رطب، خانق، في الليل أفتح النافذة قليلًا، المنطقة هادئة إلى درجة الوحشة، كل يلزم بيته، ومن أراه يجري في الطريق أو يسعى مشيًا إن على عجل أو متمهلًا لا يمكن الحديث إليه أو حتى اللفظ بتحية الصباح، كل في حاله، في وحدته، حتى الذين أقيم معهم في المبنى نفسه، في الحجرات المجاورة لي لا أراهم إلا عند الإفطار أو تناول الغداء إذا كنت مقيمًا اليوم كله، المطعم هو المكان الوحيد الذي أرى فيه من يقيمون في المكان عينه، لكنهم يختفون تمامًا عندما يتفرقون، الأبواب دائمًا موصدة، على كل منها بطاقة صغيرة تحمل اسم المقيم، لا أعرف هل يوجدون أم أنهم بالخارج. باستثناء المطعم لا أثر لوجودهم، لا أرى أيًا منهم، العاملون يختفون بعد الخامسة إلا إذا كان ثمة ندوة ليلية، يتواجد بعضهم، في الطابق الثاني فريق

المشرفين على المعهد، المدير، الأساتذة، الإداريون، قبل أن أرحل إلى مصر، طلبت موعدًا لأقابل مدير المعهد، التقيت به لأشكره على المدة، وعلى الفرصة، أي زيارة مجاملة، بدا رجلًا رقيقًا، دمثًا، حدثني عن أدباء أقاموا هنا، منهم أدونيس الذي مكث عامين وترك للمعهد بعضًا من لوحاته وقصائده المكتوبة بخط جميل، والمجري كيرتش، قال المدير: إنه أبلغه بنبأ فوزه بجائزة نوبل، قال مؤكدًا إنه عرف النبأ منه، أثناء إقامته في المعهد.

في الليل أكاد أوقن أنني بمفردي في المقر كله رغم معرفتي بوجود باحثين وكتاب لا يفصلني عنهم إلا الجدران، يبدو المكان فارغًا تمامًا رغم وجودهم فيه، وهذا غريب!

على الإفطار تعرفت على عبد الكريم سيروش، يتحدث العربية بطلاقة، يحفظ أجزاء عديدة من الشعر العربي، ومما أنشده بتأنٍّ:

إن بيتًا أنت ساكنه　　غير محتاج إلى السُّرجِ

كلما قابلته أبادره بترديد الشعر الذي أعجبني، كنت أراه مرة أخرى في غرفة الحاسب الآلي، ثلاثة أجهزة للاستخدام العام، بعد الإفطار أتجه إليها في نفس الطابق الأرضي المؤدي إلى الحديقة، أجلس إلى الجهاز الأوسط حيث اللغة الإنجليزية، أبدأ بقراءة التقرير الصحفي لصديقي الزميل حسنين كروم والذي ينشره يوميًّا في جريدة القدس العربي التي تصدر في لندن، إذا نزلت وسط برلين فلابد من شرائي للجريدة التي لا توجد إلا في مراكز التوزيع الكبرى، خاصة محطات القطارات، أبدأ بقراءتي الصباحية حيث ألم بما تنشره الصحف المصرية والتي يعرض لها حسنين في كفاءة مهنية وخبرة عالية،إلى درجة أنني ألم خلال سفري بما ينشر فيها

أكثر من مطالعتي اليومية لها في القاهرة، بعد مطالعتي تلك أفتح البريد الإلكتروني.

إلى جواري يجلس عبد الكريم، في مرة فتحت الجهاز الذي اعتدته، يبدو أنه جلس إليه قبلي، قرأت عنوانًا لم يمحه: «المواقع الشيعية»، خلال اطلاع كل منا على ما يريد نتبادل أحاديث عابرة، تمامًا مثل أحاديث المطعم، نعلق على الأحداث، على بعض الأخبار، لم تكن أحاديثنا إلا عابرة، غير أن شعورًا راسخًا استقر عندي كأني أعرفه منذ سنوات وأن صلة وثيقة تربط بيننا، فيما بعد سأذكره كثيرًا وسأردد بيت الشعر الذي تتبعته في مصادر الشعر العربي، وجدت أنه منسوب إلى أكثر من اسم.

يومي السبت والأحد يخلو المقر من الموظفين الذين يبثون فيه أنسًا خاصة في ساعات النهار، من نافذتي أرقب أسطح البيوت المحيطة، الأزهار، الأصص، الأشجار، كل ما يقع عليه بصري جميل، منسق، منمق، ذات صباح لمحت امرأة قدرت أنها أربعينية فوق سطح البيت المجاور، حدث نادر، فريد، فلم يسبق لي رؤية لا رجل ولا امرأة، حتى من خلال النوافذ التي يمكنني رؤيتها، كانت ترتدي سروالًا أسود اللون، ومشد صدر، أي أنها كانت في ثيابها الداخلية كانت تهذب وتنمق الزرع الأخضر، وتنقل حبيبات الطين من مكان إلى آخر وترش الماء، تتبعت حركتها النشطة ولم يثر عندي جسدها أي أصداء، ربما لانشغالي، ربما لفتور الهمة، ربما لذلك الاستسلام إلى الوحدة التامة بحيث أصبح صعبًا اجتيازها حتى عبر المخيلة، أو بما يحدثه البصر، لعلها الفترة الثانية في حياتي التي مررت فيها بمثل هذه الدرجة من الوحشة ونفي الذات عن

صاحبها، المرة الأولى قسرية وكانت في الحبس الانفرادي الذي مررت به عام ستة وستين في معتقل القلعة، باستثناء فترات التحقيق، أي التعذيب البدني، كنت أستبطن ذاتي، أرحل بالمخيلة إلى ما كان مني رغم أنني كنت في مرحلة مبكرة ورصيدي من التجوال يسير، كان عمري وقتئذ واحدًا وعشرين عامًا، قبل سنة من دخولي المعتقل مررت بتجربة مضنية عندما أقمت لمدة سنة في إقليم المنيا بصعيد مصر، سكنت قصرًا كان ملكًا لعائلة إقطاعية، ثم استولت عليه الثورة بعد قانون الإصلاح الزراعي، تقلب به الحال إلى أن أصبح مركزًا لمصنع السجاد اليدوي، أحد المصانع التي كنت أشرف عليها، أقمت في إحدى حجراته بالطابق الثاني، كان عدد غرفه وقاعاته أكثر من خمسين، وبعد انصراف العاملين، الموظفين منهم والمتدربين، أصير فردًا مفردًا، كان القصر يقع على الطرف الجنوبي لمدينة سمالوط الهادئة، لو فارقته ومشيت حوالي كيلومتر أصل إلى منطقة القلب، يمكنني الحديث إلى أي إنسان، في المقهى، عند ترزي تعرفت إليه، حتى في محطة القطار تعرفت إلى أحد السكان، كان موظفًا يحلم بالسفر، ومتعته أن يجيء إلى رصيف المحطة لمتابعة القطارات، كان يسمي المتجهة إلى الجنوب «النازلة إلى قبلي»، والمسافرة إلى الشمال «الطالعة بحري»، كنت أقضي الليل بمفردي، أعرف أن القصر خالٍ إلا مني، ولكن هنا أقضي الليل في حجرتي، القصر متعدد الغرفً، فسيح، أنيق، أعرف أن هناك من يشغله لكنني لا أراهم، ولا تقوم بيني وبينهم وشائج، حتى صاحبي عبد الكريم سيروش أجهل الغرفة المقيم فيها، لم أسأله خلال لقاءاتنا العابرة، وما بقي منه عندي طريقة نطقه لهذا البيت من الشعر.

10 كرومي

قالت الشاعرة العراقية التي التقيتها خلال الأسفار:

«غدًا ستشيع جنازة عوني كرومي.. حضورك سيكون أمرًا طيبًا..».

على الفور أكدت حضوري، لم ألتق عوني قط، قرأت عنه، عرفته أيضًا من خلال ما نشر عنه في أخبار الأدب، فنان مسرحي كبير يعيش في برلين، لا أذكر أننا التقينا، وها أنا أتجه للمشاركة في جنازته، أشارك في تشييعه، جرى لي ذلك من قبل، إنني أتجه إلى عزاء من لا أعرفهم، أشارك في جنازات راحلين لم ألتق بهم قط، أكثر من مرة أقصد مكانًا أو بلدًا للزيارة فأفاجأ برحيل قريب أو جار لمن أزورهم، أدعى عندئذ إلى المشاركة فألبي، غير أن الظرف مختلف، فالراحل فنان معروف، وثمة شيء يجمعنا، أننا أبناء جيل واحد، وثقافة واحدة، عاش غربة طويلة، وأقيم لفترة قصيرة نسبيًّا وطويلة أيضًا في برلين، قصيرة إذا قورنت بالسنوات التي أمضاها عدد كبير من المثقفين العرب اضطروا إلى هجر أوطانهم قسرًا، أما

بالنسبة لي فأنا ضيف معتنىً بي، أجيء ضمن مشروع ثقافي محوره اللقاء بين الأدباء العرب والألمان، أقيم لمدة خمسة أسابيع، بالنسبة لي مدة طويلة فلم أعتد الغياب أكثر من أسبوعين، أخرج من مصر في مهام تتعلق بمؤلفاتي وظهورها هنا أو هناك، أو لحضور مؤتمر، لذلك بدت المدة طويلة.

صحيح أن مقر إقامتي في منطقة هادئة جدًّا، جميلة جدًّا، اسمها الغابة الخضراء، قصور متجاورة، تعد الأرقى والأثرى في برلين، تتخلل القصور بحيرات جميلة، لكن ثمة مثل في مصر يقول «جنة بدون ناس ما تنداس»، ولولا أنني أمضيت الوقت في إتمام كتابي «نزول النقطة» الذي يدور حول الثقافة المصرية بالمعنى العميق لما أكملت المدة ولقطعتها وعدت إلى مصر، خاصة أنني لم أنجح في إقامة علاقة بالمدينة، ليس لأني أجهل لغة أهلها وليس لي علاقات حميمة واسعة، كما أنني خارج الحياة الثقافية التي وصفها لي البعض بالثراء، لكن يحول جهلي باللغة دون التواصل، أقيم في قصر ضخم، في عطلات نهاية الأسبوع لا أرى أي إنسان، أكاد أوقن أنني بمفردي تمامًا، وإقامتي في القصور منفردًا جرت في حياتي عبر مراحل مختلفة سأرويها في مجال آخر.

التاسعة صباحًا توقفت عربة الأجرة التي تقل الشاعرة أمل الجبوري، مقصدنا منطقة كروسبرج التي يقيم فيها الأتراك، منطقة معظم سكانها من السكان الأتراك الذين أسهموا في بناء ألمانيا بعد الحرب، قصدت المنطقة عدة مرات لأشتري أسطوانات الموسيقى التركية التي أستمع إليها كثيرًا منذ الستينيات.

توقفنا أمام كنيسة، جدرانها من الطوب الأحمر، أمام الباب تجمع عدد من العراقيين المقيمين في برلين، لم أتعرف إلى أحد منهم، صافحتهم، صافحت أسرة الفقيد، أرملته وبناته وأقاربهن، شيئًا فشيئًا يفد المشاركون، بدأت ألتقي ببعض من أعرفهم شخصيًا من العراقيين، لاحظت حضورًا ألمانيًا متزايدًا، قالت لي أمل: «تكريمًا للمرحوم سيدفن في المقبرة التي يرقد فيها برتولد بريخت..».

فكرت في المسافة التي تفصل بين مكان المولد والمرقد، بمن سيجاورهم الإنسان عندما يغمض عينيه إلى الأبد، أحيانًا يبدو التناقض فادحًا، مثيرًا للتأمل، حقًّا، لا تدري نفس بأي أرض تموت.

تفتح الكنيسة أبوابها، ندخل إلى القاعة الفسيحة، المرتفعة، تتجه الأنظار إلى المذبح، شيئًا فشيئًا يفد المشيعون، كنت في الصف الثاني، بعد دقائق التفت، دهشت، لقد امتلأت القاعة تمامًا، بعد لحظات من الصمت يدخل شخص ضخم يرتدي «بلوفر» من الصوف وبنطلونًا رماديًا، يتفقد المذبح، يثبت الكتاب المقدس، يحرك بعض باقات الزهور، ثم يتجه إلى باب يقع إلى الجانب الأيمن، يختفي.

يظهر أربعة شبان ألمان يرتدون حللًا رمادية اللون، يحملون نعشًا من الخشب المصقول، له مقابض يحملونه بها، يتقدمون وسط نشيج يعلو خاصة من أسرة الفقيد، يضع الشبان التابوت في مقدمة المذبح، يخرج أحدهم ليعود بصورة للراحل يؤطرها شريط أسود، يسندها إلى النعش، تطالعني نظراته من بعد قصي، كذلك ملامحه العراقية الصميمة، أسمع من يقص بعضًا من تفاصيل رحيله المباغت.

يعود الرجل الألماني الضخم، لكنه يرتدي الملابس الكهنوتية، الكنيسة بروتستانتية، المذهب السائد في ألمانيا، يدخل رجل دين لكنه يرتدي ملابس ذات طراز آخر، ملابس الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، أميزها باللباس الأسود وغطاء الرأس المرتفع، يذكرني الرداء بزعيم قبرصي عظيم، الأب مكاريوس، أحد رموز حركة عدم الانحياز في الخمسينيات مع عبد الناصر ونهرو وتيتو.

يبدأ القس الألماني بقراءة من الكتاب المقدس، يتلو بعض التراتيل، ثم يسلم الأمر إلى الأب الأرثوذكسي الذي يمت إليه عوني كرومي، يبدأ تلاوات منغمة، الكل مطرق، تتوالى الطقوس الجنائزية التي بدت لي قريبة من المشاهد المسرحية التي عاش عوني يبدعها ويقدمها، لكنه هنا مشهد أخير، تهمس لي الشاعرة أمل الجبوري بأنها ستذهب إلى المقبرة بصحبة الأسرة، أومئ برأسي، ألمح الفنان السوري المقيم في برلين منذ نصف قرن، مروان قصاب باشي، أحييه.

يتقدم الشبان الأربعة، يحملون التابوت، يخرجون على مهل، يرتفع نشيج حاد من زوجة وبنات الفقيد، يبدأ بكاء بعض الرجال من الحاضرين، يقف ألماني في حدود الأربعين، يشد قامته، يؤدي التحية في انضباط عسكري، أرى في تحية ذلك المجهول لي، في مشاعر الحاضرين التقدير كله للفنان الراحل الذي لم يقدر لي لقاؤه إلا يوم خروجه من الدنيا إلى الأبدية.

11 في بيت أرنوشميدت

في خلاء الريف الألماني، الشمالي، بعيدًا عن بيوت القرية، وصلنا إلى منزل صغير، مفرد، جئنا بعد ليلة أمضيناها في بارجفيلد، أنجوشولتس رفيق الرحلة، مضيفنا كلاوديا أوت، زوجها صانع الآلات الموسيقية الخشبية.

هنا كان يعيش الأديب الألماني أرنوشميدت، قالت لي كلاوديا إنه من أهم أدباء ألمانيا في القرن العشرين، لكنه لم يشتهر لصعوبة أعماله، ووعورة عوالمه، غير أن اهتمامًا بدأ به خلال السنوات الأخيرة، وترجم عدد من أعماله إلى عدة لغات، منها الفرنسية والألمانية، ورغم عدم ذيوع شهرته، إلا أنه أثر في الأدباء الألمان المحدثين، قالت إن الاهتمام به يرجع إلى رجل أعمال ألماني، ورث مصانع للدخان، كان يؤمن بالأفكار الاشتراكية، باع ما يملكه، إنه ثري جدًّا، هذا الرجل قرأ أعمال أرنوشميدت، أعجب به، قرر أن يرعاها، أنفق على إعداد المتحف الخاص به، ومؤسسة تتولى رعاية أعماله وطباعتها في ألمانيا.

في انتظارنا أمام البيت برند روشنباخ مدير المؤسسة، رجل طيب الملامح، يحفظ أعمال أرنوشميدت عن ظهر قلب، يتكون المتحف من جزأين، بيت الكاتب، وهو منزل بالغ التواضع، يتكون من غرفتين فقط، واحدة في الطابق الأرضي، إنها المكتب، وأخرى في الطابق العلوى، للنوم، عاش هنا مع زوجته، في عزلة تامة، قال:

«كان لا يحب الاختلاط بالناس.. لكنه كتب عنهم بحب..»

في مقتنياته المعروضة آلة تصوير، قال برند روشنباخ: إنه كان يهوى التصوير وقد التقط للمنطقة أكثر من ألفي صورة فوتوغرافية، كل أصولها محفوظة في البيت، لمحت أيضًا منظارًا مقربًا، كان يطيل التطلع إلى القمر في ليالي طلوعه، ونهارًا كان ينظر خلاله إلى بركة قريبة يقصدها نساء الناحية للسباحة، النافذتان في الطابق الثاني متواجهتان، متقاربتان.

فوق مكتبه رأيت صندوقًا من الورق المقوى، مقسمًا إلى خانات متوازية، تبرز منه بطاقات بين اللونين الأبيض والبني الفاتح، كان يدون أفكاره وملاحظاته بخط دقيق، منمنم، كذلك على هوامش الكتب التي قرأها، المؤسسة أعادت طبع (بالتصوير) نسخته الخاصة من رواية يوليسيس لجيمس جويس، قرأها بالإنجليزية ودوَّن ملاحظاته على هوامش الصفحات، البعض يشبهه في ألمانيا بأنه جويس الألماني، والدكتور علاء الدين ندا الذي أعد هذا البستان يعتبر روايته «أحلام الورق» أشبه بيقظة أفنجيان لجويس، من حيث التركيب وصعوبة النص، ومستويات اللغة.

ألمح في مكتبته أعمال إدجار آلان بو، لقد هام به إعجابًا وحبًّا، لم يقرأه جيدًا فقط، إنما كتب عنه وعلق على أعماله، لمحت أيضًا مجلدًا ضخمًا بالإنجليزية، قاموس العالم السفلي، كذلك ألف ليلة وليلة طبعة ريتشارد برتون بالإنجليزية، أما ما لفت نظري إليه برند روشنباخ فترجمة القرآن الكريم إلى الألمانية، نسخة موضوعة على مجموعة كتب رصت فوق المكتب الذي يعمل عليه، في مواجهة الجدار، ثمة ورقة صغيرة بين الصفحات تحدد صفحة اهتم بها، سورة آل عمران، كان مهتمًّا بالإسلام، قرأ عنه، وأول محاضرة ألقاها في الخامسة عشرة من عمره عن الإسلام، اهتم أيضًا بالشرق، باليونان.

يقول برند روشنباخ إن روايته (أحلام الورق) عمل غريب وفريد، حيث يتحول الناس فيها إلى أشجار، إلى جياد، إنه عمل صعب، وخلال حياته كان مجموع قرائه لا يتجاوز الثلاثة آلاف كان من يعرفه يتعلق بنصوصه، لقد كان القراء قلة لكنهم أحبوه بعمق، بعض القراء يشترون كتبه لأنهم سمعوا أنه مهم، لكنهم لا يقرءون له.

رأيت نسخة من (أحلام الورق). مجلد ضخم من القطع الكبير، ترتيب الفصول فيه مغاير لما أعرفه، هوامش على متون، وبالطبع لأنني لا أعرف اللغة الألمانية لم أدر أيهما الهامش أو المتن.

تجولت في البيت الصغير، في الغرفة التحتية والفوقية، كانت زوجته تنام بمفردها في الطابق السفلي، في عام 1972 داهمتها أزمة قلبية، فبدأت تنام على مقربة منه في الطابق الثاني، واضح اهتمامه بالفن التشكيلي، لديه مجموعة نادرة ما تزال في مواضعها على

جانبي السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، لفت نظري مجلد ضخم عن بروجل، الفنان العظيم الذي أهيم به حبًّا و إعجابًا منذ أن نبهني إليه الصديق الأديب علاء الديب، عندما كتب مقالًا عن وقائع حارة الزعفراني عام 1972 في مجلة صباح الخير، وقال: إن شخصيات الرواية تشبه شخصيات بروجل، وقد سعيت إلى التعرف على عالم بروجل وخلال أسفاري زرت المتاحف التي تقتني أعماله ورأيتها مباشرة.

ثمة عناصر خفية، باعثة على الشجن في بيت أرنوشميدت، ربما رقة حاله، أو حالة الوحدة الشديدة التي كان يعيشها، أحد سكان الناحية قال لي إنه كان فقيرًا جدًّا جدًّا، ولكن السيد جان فيليب ريمستين رجل الأعمال أعجب بأعماله وساعده، ويعمل على العناية بأعماله.

يقول برند روشنباخ إنه ليس من أهالي الناحية أصلًا، لم تكن له علاقة بالمكان، لكن الرغبة في الاعتزال أتت به إلى هنا حيث الخلاء والحقول والبيوت المتباعدة، إن دلالة كلمة (قرية) عندي تعني تجاور البيوت وتلاصقها، الكثافة السكانية، هكذا عرفت القرية المصرية، لكن في أوربا يختلف الأمر، خاصة هنا في ريف ألمانيا الشمالي حيث البيوت متفرقة، متباعدة، والبشر قلة.

هنا عاش أرنوشميدت بعيدًا عن الناس، موغلًا في عالمه الداخلي، متفرغًا للكتابة وللقراءة، في حال مدقع، الآن يتزايد الاهتمام به ويقول النقاد إن أدبه من أعظم الأعمال المكتوبة بعد الحرب العالمية الثانية.

متى بدأت علاقة برند روشنباخ مدير المؤسسة الحالي، والذي قدم وشرح لي عالم هذا الكاتب الغريب، الهام، والذي شعرت بتقارب معه من خلال بقاياه وبيته شديد التواضع، هذا الأديب مجهول تمامًا في اللغة العربية وآمل أن تترجم أعماله إلى العربية يومًا.

يقول روشنباخ إنه بدأ يقرؤه في السبعينيات، بدأ يزوره هنا، كان يعيش في برلين، قرأ أول كتبه هناك، درس تاريخ الأدب الألماني، توفي أرنوشميدت عام 1979، توفيت زوجته عام 1983.

طوال الوقت الذي أمضيته في البيت الذي صار متحفًا كان للزوجة حضور قوي خاص، هذه السيدة التي عاشت حياة الفاقة، وشظف العيش، وبالتأكيد، نزوات هذا الكاتب المتوحد، الموغل في عوالمه الداخلية، وعندما تبعت روشنباخ خلال ممر ممهد تحيط به الأشجار إلى مرقد أرنوشميدت وزوجته تحت شجرة ضخمة كان يحبها، لقد تم استصدار تصريح خاص لدفنه بجوار بيته، مفردًا، متوحدًا حتى في أبديته بعيدًا عن مدافن القرية حتى جاورته زوجته بعد أربع سنوات من رحيله.

كنت أفكر أيضًا طوال النهار الذي أمضيته في جان فيليب ريمستين، الذي ورث مصنعًا ضخمًا للسجائر وباعه ليؤسس بأمواله الوقف الذي يكفل استمرارية أعمال أرنوشميدت، إنه أستاذ للأدب الألماني الآن بعد أن هجر عالم الأعمال ويقيم في هانوفر، لقد أوقف جزءًا من ماله لإنشاء المتحف والمؤسسة التي تحمل اسم مؤلف عاش منعزلًا مجهولًا وكلاهما يصدر مؤلفاته والدراسات عنه أيضًا، للأسف لم ألتق بهذا الرجل الذي باع ما ورثه وأوقف ماله

وأعماله على الإحياء والتعريف بأديب يوصف الآن في ألمانيا بأنه أحد أعظم من كتبوا بالألمانية في القرن العشرين، هل يحل يومًا عندنا، في مصر، في العالم العربي فنقرأ عن مثيل له؟!

12 كالكوس

لست متأكدًا من الاسم، لكنه قريب من هذا، قال توماس هارتمان فيما بعد إنه اسم ألماني أصيل، متوسط القامة، يبدو كأنه مبتسم دائمًا، بادر بالاقتراب مني عند تناولي الإفطار صباح أول أيام وصولي، تساءل: لماذا أجلس وحيدًا ودعاني إلى المائدة التي كان يجلس إليها أربعة، علق منهم بذاكرتي أستاذ من جامعة هارفارد كان يتحدث بتأثر عن زيارته لنصب تخليد ضحايا الهولوكست، إنني أميل إلى الوحدة خاصة عندما لا يوجد من تربطني به صلة حميمة، جلوسي إلى من لا أعرفهم معرفة وثيقة يجعلني متكلفا، وعلى غير طبيعتي، كثيرًا ما أخجل من إعلان ذلك، الخجل سمة متأصلة كلفتني الكثير في حياتي وعلى كافة المستويات.

بعد أيام، جاء السيد كالكوس وبصحبته جورج ميخائيل، كانا يتحدثان بالألمانية التي لا أعرف منها شيئًا، رن جرس المحمول، عندما نظرت في الشاشة الصغيرة لمحت رقم مكتبي في أخبار الأدب، يطلبني عزت القمحاوي يوميًّا بعد الظهر لإطلاعي على أمور، أو ليخبرني بأحوال، أن يتصل بي الآن فهذا يعني أن شيئًا استثنائيًّا وقع.

التفت السيد كالكوس، نظرة جانبية فيها ترفع أمقته، قال ما معناه إن الحديث في المحمول أمر أصبح شائعًا، لكنه غير مستحب.

بعد أن انتهيت من المكالمة، تطلعت إليه، كان منهمكًا في الحديث إلى جورج كأنه لم يقل شيئًا.

ما جرى لم أتقبله، لا الطريقة التي نطق بها ما يشبه الملاحظة المحتجة، ولا الوضع الذي اتخذه جسده.

هل أخطأت؟

بالتأكيد لا، فلا يوجد في القاعة من يعلق على تحريم استخدام المحمول، كما أن التعليمات التي قرأتها والمتعلقة بنظام الإقامة لا تتضمن أي إشارة، إنني دقيق جدًّا في تصرفاتي، ولا أقدم على ما يمكن أن يصبح مصدرًا لملاحظة يبديها نحوي آخر، خاصة عندما أكون في الخارج، يرسِّخ هذا عندي ما جبلت عليه من خجل أشرت إليه، بل إنني حتى الآن لا أتناول طعامي مرتاحًا في المآدب العامة، أو المناسبات الرسمية، في طفولتي ألقت أمي على مسمعي تعاليم شتى تتصل كلها بتناول الطعام عند الأقارب، الأكل على مهل، من الجهة المقابلة لي، ألا أمد يدي أول الحاضرين، ألا أمضغ بصوت مرتفع، أن أترك شيئًا ما في الطبق، يستقر هذا في وعيي حتى الآن.

من الأمور الرواسخ عندي بطء رد الفعل، لا أرد مباشرة، يدركني ما يشبه الشلل، غير أن التأثر يبدأ في النمو على مهل مصحوبًا باللوم، بالندم لأنني لم أرد للتو، لأنني لم أقل كذا وكذا، عند لحظة معينة يبدأ مخي في الغليان، أكون مهيأ للعصف بمن وجه لي كلمة جارحة أو ملحوظة سخيفة، هذا ما وصلت إليه عند الثالثة ظهرًا، المفروض أن تبدأ ندوة عن «الرواية والتاريخ»، مقر انعقادها مبنى آخر تابع للمعهد في نفس الشارع.

دخلت البهو الدكتورة رضوى عاشور التي جاءت من القاهرة للمشاركة، الدكتور هاني حنفي المقيم هنا لمدة سنة، الأستاذ بيتر جران الباحث الأمريكي والمؤرخ المعروف، رجل دمث، دقيق للغاية، جورج خليل، السيدة سهير من المكتب الإعلامي المصري..

كان تفكيري كله متجهًا إلى ما جرى في الصباح، لا ندوة، لا رواية، لا تاريخ، إنما الموضوع كله السيد كالكوس وملاحظته، توجهت بالسؤال إلى جورج خليل عما إذا كان يذكر الحوار الذي جرى صباح اليوم حول المحمول، قال إنه يتذكر جيدًا..

«هل ملاحظة السيد كالكوس عادية؟؟»

«بالتأكيد لا..»

«أليس فيها عدم اللياقة؟»

تطلع إليَّ جورج موافقًا، عندئذ وقفت مشيرًا إليه بأصبعي:

«أنت مسئول في المعهد وشاهد على ما وقع، إذا لم يأت الكالكوس الآن ويعتذر فإنني سأقطع البرنامج وأعود إلى القاهرة غدًا، إنني لن أسمح لأي كان بتجاوز الحدود معي..»

تصاعد انفعالي، قعدت مطرقًا، لم يكن تهديدي شكليًّا، إنما كان حقيقيًّا تمامًا خاصة أنني لم أشعر بجدوى كبيرة لإقامتي الطويلة هذه معظم الوقت بمفردي، لو أنني أهدف إلى الخلوة، فثمة أماكن حميمة يمكنني أن أنتج فيها وأتم كتابي، لدينا منزل صيفي جميل بالساحل الشمالي،أما البيت الذي اعتدت الإقامة فيه بالقرية فلا نظير له في العالم عندي، ما يجعلني متحرجًا التزامي تجاه توماس هارتمان.

جاء السيد كالكوس، كان يقف صامتًا، يداه متلامستان أمامه، وقفت، خاطبته بالإنجليزية: تعال هنا.

تقدم خطوة، توجهت إليه بحدة..

هل توجد تعليمات معلقة بمنع الهاتف المحمول؟

يهز رأسه نفيًا.

هل طلب أحد المسئولين بالإدارة ذلك شفهيًّا مني أو من غيري؟

يكرر النفي. صعَّدت من حدتي.

إذن.. كيف تسمح لنفسك بإبداء الملاحظة، مصحوبة بتلك الإشارة من يدك؟!

قال بصوت خافت:

إنني أعتذر.

غير أن انفعالي لم يهدأ، كيف لم أرد عليه في حينه؟ كيف يسمح لنفسه هذا الأجنبي أن يتحدث إليَّ هكذا وكأنه يلقنني درسًا.

((أنت عنصري..)).

ظل واقفًا على حاله، اتجهت بالحديث إلى رضوى عاشور، قلت إنني لم أخطئ في حق أحد، ولن.. لكنني لا أسمح مطلقًا بتوجيه أي ملحوظة تتضمن مساسًا بكرامتي من قريب أو من بعيد، قالت رضوى إنه ينتظر قبولك اعتذاره لينصرف، تطلعت إليه، أشرت بيدي أن يمضي استدار متمهلًا، مبتعدًا، تطلعت إلى الأرض محاولًا تهدئة نفسي، أعرف خطورة الانفعال بالنسبة لي، لاحظت أن العاملين بالمعهد لم يقتربوا من دائرة النقاش رغم ارتفاع الصوت، كل شيء كان يمضي عاديًّا، وكنت أحاول تهدئة حالي قبل دخولي قاعة الاجتماعات للمشاركة في الندوة، كنت أردد: لو أنني لم أقدم على ما أقدمت عليه لطق لي عرق أو لجرى لي عارض مكروه،كله إلا المساس بالكرامة..

13 لغـة

مقعدي إلى جوار النافذة، في المقصورة رجل وزوجته، يجلسان متجاورين، المؤكد من الملامح أنهما تركيان،تأكدت عندما فرد جريدة «حريات»، يمكنني تمييز اللغة التركية.

قرب الباب المؤدي إلى الممر شابان وطفلهما، يجلسان متواجهين، الطفل يرقد في سلة مستطيلة لها غطاء، قدرت عمره بثلاثة أو أربعة شهور، عندما اجتزت إلى مقعدي كان مغمض العينين، الأب في منتصف العشرينيات، يرتدي قميصًا وبنطلون جينز أزرق، يتبادل بعض الكلمات مع الأم، تقاربه سنًّا، الطفل محورهما، نظراتهما إليه، كل ما يقومان به متصل به، إعداد الرضعة، حمله عند استيقاظه، تغيير الفوط الصحية، ملامحهما هادئة، إنه طفلهما الأول بلاشك.

أعد جلستي، أضع الحقيبة فوق الرف بعد إخراجي كتابين، الجزء الثالث من البحث عن الزمن الضائع لبروست، وديوان الحماسة

لأبي تمام، جهاز الأسطوانات المضغوطة، وحقيبة صغيرة زرقاء اللون تحوي عشرًا منها، موسيقى إيرانية، تركية، أغاني الثلاثينيات لمحمد عبد الوهاب، إلى تلك الحقبة تعود أغنيته عن القطار.

وإن طال الوقت على الركاب

يقضوا الوقت في كلام وعتاب

بعد شوية يبقوا أحباب...

ينطبق هذا على الزمن القديم، لم يعد الركاب يتبادلون الحديث، ليس هنا في أوربا فقط، في مصر أيضًا، خاصة في الدرجة الأولى والثانية المكيفة، أجد في المسافة فرصة للانفراد بالنفس، عندما أضع السماعتين الصغيرتين في أذني، هذا يعني تحديد مجالي، لا رغبة عندي في الإرسال أو التلقي، خلال السنوات الأخيرة في أسفاري ينتفي فضولي القديم، يشحب، يحل بدلًا منه تطلع إلى تقليب ما عندي، استعادة المنسي، المتواري في حنايا الداخل، المسافة من فرانكفورت إلى برلين حوالي أربع ساعات، فرصة جيدة للتأمل، للاستماع إلى الموسيقى، للقراءة أحيانًا، تقوى لديَّ الرغبة في ممارسة أكثر من نشاط في وقت واحد، مما يبعث على الراحة، عندي استمرار نهمي إلى القراءة والإصغاء والفرجة، بينما فترت عندي أمور، منها الرغبة في الترحال، صارت أسفاري لتلبية أمور وللمشاركة في أخرى، ليس الدافع الأول الرغبة في الاستزادة، أو البحث عن شيء ما مجهول لا يمكنني تحديده بالضبط.

مع تحرك القطار، مفارقته الرصيف، كل شيء مرتب، الكتاب، الأسطوانات، الجهاز، أخرج القرص المعدني، أبدأ بموسيقى صوفية، عازف الناي وقائد الفرقة عرفته من خلال موسيقاه قبل أن ألتقي به في المؤتمر المقام بضاحية باريسية، قدسي أرجونار، مع بدء الموسيقى أقترب من النافذة.

الطفل يستيقظ، الأب يقوم منحنيًا، متطلعًا، الأم الشابة تتطلع من خلال نظرة جانبية، يتبادلان بضع جمل بالألمانية، أفترض أنهما يتساءلان عن موعد الرضعة، إنها لم تحن بعد، يبتسم الأب، يحرك أصابعه، يثبت الغطاء، يرسل قبلة، أولي الوجه إلى الخارج، تتراجع ملامح المدينة التي جئت إليها عدة مرات خلال الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة، أثناء محاولتي تثبيت السماعة ناحية أذني اليمنى، يميل التركي إلى الأمام، يشير إليَّ، يقول شيئًا بالألمانية، أبتسم، أسأله عما إذا كان يتحدث الإنجليزية، يهز رأسه نفيًا، يشير مرة أخرى إليَّ، أنتبه إلى السيدة، امرأته، كتفها تلامس كتفه، إنها خمسينية، عيناها مركزتان، إطارهما عميق السواد، تنبئني ملامحها بانتمائها إلى الأناضول، ربما كردية، لماذا؟ لا أعرف، أحيانًا نحول الاستنتاج من خلال النظر، طريقة النطق، الإيماءات، عندما تنتفي اللغة، لم أطل النظر إليها بدافع متأصل عندي، خجل من التطلع إلى سيدة بصحبة رجل، يسألني الرجل عن موطني، هكذا قدرت، قلت: مصر.. نطقت بالإنجليزية، ثم الألمانية، ثم قلت: مصر مع كسر الصاد، عندئذ أومأ مبتسمًا مرددًا، مصِر، مصِر، هكذا تنطق بالتركية، أشير إلى الجريدة، إلى الفراغ.

«من استانبول»

يهز رأسه نفيًا، يشير بأصبعه إلى أسفل.

إذن.. الجريدة تطبع في ألمانيا.

في ألمانيا 2 مليون تركي وأكثر...

أمسك بالأسطوانة، أريه غلافها، يهز رأسه، يقول إنه رآها عندما جلست، يشير إلى زوجته، تومئ برأسها، تتطلع إلى الأسطوانة، تقول بحماس: قدسي أرجونار، أقول إنني أسمع الموسيقى التركية الكلاسيكية منذ حوالي أربعين سنة، عرفتها من المذياع، رحت أكتشفها بنفسي، ذكرت الموسيقيين والمطربين والمطربات، دادا أفندي، سعد الدين كينان، أمل حايين، مديحة حايين، موزان سونار، كلما ذكرت اسمًا تهز السيدة رأسها بحماس، تداخلت أصابعي عندما كررت اسم قدسي أرجونار، قلت بالإنجليزية، بالفرنسية: إنه صديقي.

الأب الشاب يتناول زجاجة تعلوها بزازة، الأم تتناول زجاجة لبن، يعدان الرضعة على مهل متأن، تتطلع السيدة مبدية بالصمت استعدادها للمعاونة، غير أن كل شيء يمضي بهدوء بينما القطار ينطلق بسرعة تقارب المائتي كيلو في الساعة.

أعرف أنهما عائدان من زيارة لابنتهما، متزوجة، تقيم في فرانكفورت، أم لطفلين، توأمين، أتطلع إلى صورتهما، في الثانية من عمريهما، يحتفظ بها داخل مفكرة صغيرة تشبه إلى حد كبير تلك

التي لا تفارق جيب سترتي، أدون فيها الملاحظات العابرة خلال الترحال، أحتفظ فيها بصورة لزوجتي وابني وابنتي..

إنها صحفية..

يقول إنني عندما دخلت قال لزوجته إنني ربما كنت صحفيًّا، استنتج ذلك، ابتسمت، إنها نصف الحقيقة، إنني كاتب وصحفي، كتبي في الألمانية، يبدي اهتمامًا، أخرج آخر ما ترجم لي، «متون الأهرام» على الغلاف الداخلي العناوين الأخرى، أجد صعوبة في نطق بعضها، يكتب بعناية الاسم، يقول إنه سيذهب إلى المكتبة، يقدم إليهم الاسم، ويطلب الكتب، القائمة على الحاسب الآلي..

يلتقط الرضيع البزازة، الأم تتولى الأمر، بينما الأب يقف منحنيًا، متابعًا، نتبادل الملامح المستريحة إلى حضور الطفل، واكتمال العناية، يمرق القطار مجتازًا سهوبًا خضراء، ومدنًا صغيرة لا أعرف أسماءها، أتوقف عن سماع الموسيقى بينما الحديث يتصل بيننا، حتى الآن لا أعرف بأي لغة تبادلناه، بعد أن تحدثت بالإنجليزية، توقفت منتبهًا إلى أنه لا يتقنها، بدأت أتحدث بالعربية،هو بالألمانية أحيانًا والتركية أحيانًا أخرى، تداخلت الألفاظ والإشارات والإيماءات، حتى صرنا إلى اللا لغة،كل منا يفهم الآخر، تحدثنا عن تركيا والاتحاد الأوربي، عن مصر والأهرام، عن البوسفور كما رأيته فجرًا عند قدومي إليه من بلغاريا بحرًا، توقفنا لحظة، سرح كل منا بنظراته في اتجاه مغاير، الطفل عاد إلى النوم، يرفع أصبعه، ثمة مفاجأة يدخرها لي، يخرج من حقيبة زوجته غلاف أسطوانة

مضغوطة، حقًّا إنها مفاجأة، صورته وإلى جواره زوجته الماثلة أمامي،إنه يعزف الطنبور، وهي ضابطة إيقاع.

حقًّا مفاجأة، أقدم إليه حافظة الأسطوانات ليرى ما أحمله معي، يمد يده بالأسطوانة مؤكدًا أنها هدية منه، أطلب منه التوقيع.

14 هاني عازر

ما بين إصغائي إلى السفير محمد العرابي متحدثًا لي عن المهندس المصري هاني حلمي عـازر، وما بين لقائي به من حوالي عام، لأول مرة أسمع به من السفير المصري الذي يتحدث عنه الألمان والعرب والمصريون طبعًا بإعجاب لجهوده على كافة المستويات لبناء علاقة صحيحة ونموذجية بين مصر وألمانيا، قدم إليَّ عددًا من مجلة رايدرز دايجست «المختار» الطبعة الألمانية، احتوى على مقال عن المهندس المصري الذي يبني محطة برلين العالمية للسكك الحديدية، أحدث وأضخم محطة في العالم، تمنى السفير محمد العرابي أن يُكتب عنه تعريف به، بعد أسبوع واحد نشر في أخبار الأدب ترجمة للمقال، إضافة إلى معلومات أخرى توصل إليها زملائي من الإنترنت، إنها المرة الأولى التي يُذكر فيه اسمه في جريدة عربية.

في السادس والعشرين من مايو الماضي، مررت بمكان الاحتفال الأسطوري الذي أقيم لافتتاح المحطة، في اليوم التالي عرفت أن بطل

الاحتفال كان هو هاني عازر، حاكم برلين أشاد به بانفعال وصدق (رأيت تسجيلًا للحفل فيما بعد) قال إنه ليس لديه المال الذي يمكن أن يوازي ما قام به العبقري المصري، حفيد بناة الأهرام، لكنه سيقدم إليه أرفع ما لديه، ما لا يمكن لأحد شراؤه بالمال، سيعلن ذلك رغم مخالفته للتقاليد، إذ تقرر منحه وسام الدولة، أرفع وسام ألماني في أكتوبر القادم، في ذكرى إعلان الدستور عام 1950، يقوم رئيس الدولة شخصيًا بتسليمه، إلى جانب وسام الجمهورية الذي تسلمه بالفعل، وهو وسام رفيع لا يمنح إلا لعدد معين من الأحياء، فإذا تقرر حصول آخر عليه يجب أن ينتظر خلو مكان ليتقدم ويتقلده.

الألمان يتسابقون لتكريم هاني حلمي عازر، هذا ليس بالأمر الهين في بلد مثل ألمانيا، حيث التقدم في أقصى درجات، وحيث لا يتم قبول الآخر بسهولة أيضًا إلا لعلم غزير وموهبة فارقة، أو احتياج ضروري.

إذن.. من هو حلمي عازر؟

ماذا فعل؟ ماذا فعل؟ ما من ألماني التقيت به إلا وحدثني عنه، وصفوه بأنه بطل ألمانيا القومي، بالطبع الألمان هنا لا يبالغون، رأيته في حفل أقامه السفير المصري لتكريمه في المركز الثقافي المصري ثم جاء الرجل إلى مقر إقامتي ليصحبني وليطلعني على جماليات وأسرار بناء المحطة، بدا بسيطًا، مصريًا جدًا بملامحه وتواضعه، ملامحه تشبه الملايين الساعين في شوارع القاهرة ودروب المدن والقرى، الجملة التي يرددها خلال حديثه، «أنا ما عملتش إلا الواجب، معقول أنا أستحق ده كله؟» تواضع يذكرني بتواضع

نجيب محفوظ، لكن هذا التواضع يخفي اعتزازًا بالنفس وصرامة في العمل، يتحدث الألمان عن قدرة هاني عازر في السيطرة على العمل، وتنفيذ البرنامج الزمني، والتغلب على المشاكل، والتعامل مع الشركات، هذا كله أدى إلى تنفيذ المحطة وتشغيلها قبل بدء مباريات كأس العالم بأسبوعين، وتلك نقطة حساسة جدًّا، كانت تشكل تحديًا وضغطًا، كذلك لم يتم تجاوز الميزانية التي قدرت بمليارين وثلاثمائة مليون يورو، بل إن إدارة هاني عازر وفرت مائتين وثلاثين مليون يورو.

المحطة تبدو وكأنها تنتمي إلى المستقبل، كأنها محطة فضاء معلقة بين الماضي والحاضر، مطلة على المستقبل، تم اختيار موقعها بعناية، الموقع ذو دلالة سياسية وتاريخية، إذ يقع في المنطقة الفراغ التي كانت فاصلة بين شطري برلين، لم يكن هناك إلا محطة صغيرة لقطار داخلي، المثير أن العمل لم يتوقف طوال البناء الذي شهد مشاكل ضخمة أيسرها المياه الجوفية التي جعلت المكان يبدو كمحيط.

كنت راغبًا قبل كل شيء في التعرف إلى هاني حلمي عازر نفسه.

قال لي إنه وُلِد في طنطا، ثم انتقل مع الأسرة إلى القاهرة، حصل على الثانوية العامة من مدرسة النقراشي، ثم سافر إلى ألمانيا، التحق بجامعة بوخوم بدورتموند، بمنطقة الرور، بدأ في ألمانيا عام 1973، تخرج عام 1978 وعمل في مجال بناء الكباري والأنفاق من خلال شركة كبرى اسمها بولنسكي سولنا، لم تعد موجودة الآن، وشركة أخرى اسمها بلتجروبرجا.

قال لي باعتزاز، إنه عضو نقابة المهندسين المصريين، وأحد كتاب المجلة التي تصدر عنها،كان يكتب بها بانتظام عندما كان رئيس تحريرها سعد شعبان، عندما نزل مصر حاول أن يقابل عثمان أحمد عثمان، وأحمد محرم، لكنه لم يستطع، في مرة أخرى مر بنفق الأزهر، قال لي إنه يعرف الماكينة التي قامت بالحفر، يعرف كل مسمار فيها، خلال عمله بالشركات الألمانية الكبرى أشرف على بناء عدد من الأنفاق الضخمة التي تمر بها القطارات والسيارات، حكومة برلين طلبته للعمل تحت إشرافها، كانت سمعته في ألمانيا قد بدأت تروج، قدرته على الابتكار، صرامته في التنفيذ، قدرته على تحقيق الدقة الاقتصادية، خاصة عدم تجاوز الاعتمادات، قال لي «لما بدأت أتعامل مع الشركات كنت فاهم، عرفت أربيهم..».

تم اختياره إذن لتنفيذ وتصميم وإدارة محطة برلين العالمية للقطارات.

بداية المحطة

التصميم أولى المراحل، راعى حداثة التكوين وعمليته في نفس الوقت، لا توجد ساحة غير موظفة، المحطة تتكون من ثلاثة مستويات، الأرضي والأوسط والعلوي، في البداية كون مجموعة العمل، سبعمائة وخمسين مهندسًا، وألفًا وخمسمائة عامل، بدأ ببناء مكتبه، موقع قيادة العمل، بناء مؤقت من طابقين، حرص على أن يكون نموذجًا في الانضباط والنظافة، بدأ العمل عام ألفين، كانت الشروط أمامه عديدة لكن أهمها، أن يتم افتتاح المحطة وتشغيلها

قبل مباريات كأس العالم بأسبوع (تم الافتتاح يوم 26 مايو وبداية المباريات 9 يونية الحالي).

تم تحديد الشركات التي سيتم التعامل معها، خمس وثلاثون، فرنسية، هولندية، بولندية، نمساوية، البلاط من الصين، الموتورات من لوكسمبورج وإيطاليا، الحديد نصفه من بولندة، والنصف الآخر من ألمانيا، الخرسانة اللازمة نصف مليون متر مكعب، الحديد اللازم خمسة وثلاثون ألف طن، طبعًا تحديد هذه المواد تم بعد دراسة دقيقة اختارت الأفضل والأجود، إلى جانب سبعين مكتبًا استشاريًّا، هاني عازر هو الذي يتعامل مع كل هذه الجهات.

الخطوة الأولى في التنفيذ تحويل مجرى نهر السبراي المجاور للمحطة والذي كان يفصل شطري برلين، يقول هاني ببساطة:

«رديته لورا سبعين متر، لغاية ما بنيت الأنفاق كلها، وبعدين رجعته تاني، التحويل تم من غير مرور المراكب أو القطارات ما يتعطل..».

المشكلة الكبرى كانت المياه الجوفية، عندما رأيت صور المحطة كأني أرى بحرًا ممتدًّا، لجأ هاني عازر إلى تكنيك غريب، إذ قرر تجميد المياه، أي تحويلها إلى ثلج، ثم بدأ الحفر للتحكم في مصادرها وفي نفس الوقت رمى الخرسانة، استخدم غطاسين محترفين لوضع الخرسانة، يقول:

«كان أصعب موقف، التعامل مع المياه الجوفية، وقلب الكوبري، بالنسبة للأول أنا كنت أقضي إجازة مع أسرتي في جزيرة بعيدة ببحر الشمال، اتصل بي رئيس السكك الحديدية، قال لي إن

المياه الجوفية أصبحت تشكل خطرًا، لابد أن تحضر فورًا، قلت له: إنني في مكان بعيد جدًّا، في جزيرة، قال لي: سنرسل طائرة خاصة، قلت: إن الجزيرة صغيرة لا يوجد بها مطار، عندئذ قرر إرسال مركب صيد أخذتني إلى روتردام في هولندة، ومنها طائرة خاصة إلى برلين، عندما وصلت كانت المياه تشكل أزمة، وهنا قررت تجميد الأرض، أي تحويلها إلى ثلج..».

اللحظة الحرجة جدًّا الثانية كانت قلب الكوبري.

الجسر

في البداية لم أفهم تعبير قلب الكوبري، لكنه شرحه لي على نموذج من الورق المقوى يدرس الآن في مدارس الأطفال، بعد أن تم بناء الجزأين الأول والثاني، تحت الأرض وفوقها، أصبح مطلوبًا الجزء الأخير المتعامد على القسمين التحتيين، قرر هاني عازر أن يبني الجسر رأسيًّا مثل البرج، ثم يقوم بإمالته تدريجيًّا حتى يستقر بالعرض، ربما يبدو ذلك ممكنًا نظريًّا، لكن عند تطبيقه عمليًّا يبدو الأمر مخيفًا ومثقلًا باحتمالات الفشل، لكنه أقدم، بنى الجسر واقفًا، طوله بلغ سبعين مترًا، ووزنه 1200 طن من الحديد، تم ربطه بحبال متحركة من المعدن، من أعلى ومن أسفل، يقول هاني:

«الإنسان واقفًا يمكن أن يميل إلى درجة خمس وأربعين بدون أن يسقط، كان المفروض أن يبدأ ميل الجسر تدريجيًّا حتى تسع درجات، كانت أصعب لحظة في حياتي، استمرت لمدة أربع وعشرين ساعة، أي خطأ يعني انهيار المبنى كله..».

سألته عما إذا كانت القنوات العلمية مثل ديسكفري والناشيونال چيوجرافيك قد سجلت العملية، لم أسأله طبعًا عن أي تليفزيون عربي، فلم يكن هناك إعلام يعرف أصلًا أن مهندسًا مصريًّا يشرف على بناء أحدث وأضخم محطة في العالم.

قال: إن هذه المحطات سجلت بناء المحطة خطوة، خطوة، ولكن عملية إمالة الجسر خشي أن تفشل لذلك منع تصويرها.

سألته عما إذا كانت هذه العملية قد ضاعت إلى الأبد من كاميرات التصوير؟

قال إن تسجيلها تم بوحدات تصوير تابعة للسكك الحديدية، قال إن مرور القطارات بالمحطة لم يتوقف لحظة واحدة، طوال سنوات البناء الست بما فيها عملية إمالة الجسر، مع استقرار الجسر تمت عملية تنفيذ المحطة التي تنطلق منها القطارات إلى جميع الجهات الأربع، هذا هو الجديد هنا، تتعامد الحركة وتتقاطع، بحيث إن أي قطار يمر ببرلين لابد أن يعبر المحطة، أثناء العبور لابد لكل الركاب أن يروا رموز الدولة الألمانية المحيطة بالموقع، من خلال الجدران الزجاجية، أهداني هاني عازر قطعة تشبه قلبًا زجاجيًّا من نفس النوع المستخدم في بناء الجدران، سمكه حوالي سنتيمترين، قوي جدًّا، من خلال الجدران يمكن رؤية البرلمان الألماني، مقر الرئاسة، مقر المستشارية، بيت ثقافات العالم.

بعد أن شرح لي خطوات البناء، وفلسفة المحطة، والصور التي تبين الموقع خلال فترات زمنية مختلفة، بعد أن رأيت تسجيلًا لحفل الافتتاح الذي ذُكِر فيه اسمه عدة مرات مقرونًا بالإشادة والثناء، وفي

كل مرة يقف مرتبكًا خجولًا، متلفتًا حوله والتصفيق يدوي، أكاد أسمع ملامحه تقول:

«ما قمتش غير بالواجب، معقول أنا أستحق كل ده؟».

بعد أن أطلعني على تصميم أربع محطات أخرى في برلين مكملة لمشروع المحطة الرئيسية، كذلك أنفاق المرور التي قام بتنفيذها لتنظيم الحركة من وإلى المحطة، قال لي:

«تعال أفرجك بقى على المحطة..».

من مكتبه إلى المحطة ثمة ممر ممهد كان خاصًا بحركته هو، ينتقل عبره في لحظات إلى المبنى، ما زال الممر قائمًا وسيظل، يتجه هاني بخطى واسعة نشطة إلى المحطة، كأنه يتجه إلى بيته، أرض مهدها، وخطط لها، وجفف أنهارها الداخلية، أليس من حقه أن يمشي فوقها بثقة؟! أثناء اتجاهنا إلى المبنى الرئيسي، رن هاتفه المحمول، كان رئيس شركة فودافون العالمية يطلب منه التوسط لحصول الشركة على مركز توزيع في المبنى، غير أن الأوان فات، قال لي هاني إنه تم تأجير ستة وسبعين متجرًا، سوق كامل، يحتوي على أشهر السلع، ومطاعم متعددة المستويات، ومكتبات، في المحطة أربعة وخمسون سلمًا كهربائيًا، وأربعة وثلاثون مصعدًا، في المستوى الأرضي ثمانية أرصفة، وفوق ثمانية، الرصيف طوله أربعمائة وثلاثون مترًا، ستة عشر قطارًا سريعًا يمكن للمحطة أن تستوعبها في وقت واحد، يغذي هذه القطارات خطوط كهرباء في سمك الأصبع الصغير، كان هاني يتدفق بالشرح عندما اجتزنا مدخل المحطة متعدد الأبواب.

قلت مداعبًا:

«تبدو وكأنك صاحب المحل..».

ابتسم، تساءلت:

«ما هو شعورك الآن وقد اكتمل البناء؟».

قال:

«لم يكتمل شعوري بعد، أنا لسه بأربيها، زي الطفلة المولودة من ساعات، عشان كده ما أقدرش أقول إني حسيت بيها، يمكن ده بعد فترة..».

بمجرد اجتياز الباب، يدخل الراكب إلى صميم الحداثة، تكوين هائل من المعدن والزجاج، تم استغلال كل فراغ فيه، ثمة تقنيات تستخدم لأول مرة، منها على سبيل المثال، أو بمعنى أدق ما استطعت أن أستوعبه، يتم تجميع ضوء الشمس بواسطة أنابيب خاصة، تعيد بثه من جديد حتى بعد غيابها، لذلك تستمد المحطة الطاقة من الشمس، ستون في المائة من الطاقة هنا شمسية، الطريف أن المهندس الذي صمم محطات الطاقة الشمسية ونفذها مصري أيضًا، اسمه إبراهيم سمك، قال لي السفير محمد العرابي إنه اكتشفه بالصدفة أثناء حفل الافتتاح.

هاني عازر قام بتنفيذ مائة وواحد تكنيك في المحطة، كلها تستخدم لأول مرة، أدق التفاصيل تمت مراعاتها، نقابة العميان وجهت إليه شكرًا لأنه خصص مسارات خاصة من المدخل حتى

ركوب أي قطار، المسار بلون أبيض مختلف عن الأرضية الرمادية، وعند بدايات الدرابزينات تم وضع حفر بطريقة برايل، المسارات تجعل تمييزها سهلًا بالنسبة للعميان الذين يستخدمون عصا كهربائية، والحروف البارزة تساعد على التقدم بسهولة إلى القطار المطلوب، في نقطة الشرطة تم بناء سجن صغير لزوم الضرورة.

بعد انتهاء البناء وافتتاح المحطة، قام ستة وعشرون بيت خبرة ألمانيًّا بتقييم أداء المهندس هاني عازر، الجميع اتفقوا على أنه حقق الامتياز على كافة المستويات، يوميًّا تظهر مقالات تشيد به، الإعلام الألماني رفعه إلى مستوى البطل القومي لألمانيا، جريدة فرانكفورت الجماينه، قالت إنه حقق معجزة أنقذت المشروع، في استفتاء عام يتم كل سنة لاختيار خمس وعشرين شخصية هي الأفضل عند الألمان، كان ترتيب هاني حلمي عازر الثالث عشر، مستشارة ألمانيا ميركل رحبت به في الافتتاح، خصته بالترحيب والثناء، قالت له: أنا سعيدة بلقائك، قرأت عنك أكثر من مرة.

تتوالى مظاهر التكريم الخارق، وهذا ليس سهلًا في بلد مثل ألمانيا، ربما كان منطقيًّا في الولايات المتحدة التي تستقطب الكفاءات من جميع أنحاء العالم، لكن في ألمانيا المتقدمة، الحريصة على التفوق، المشهورة بالنظام والحداثة، ليس من السهل أبدًا تقبل تفوق إنسان ينتمي إلى أحد البلدان النامية، حتى لو كان يحمل الجنسية الألمانية، دائمًا يذكر هاني باعتباره العبقري المصري، هذا الرجل الذي يبدو بسيطًا، متواضعًا، حقق تلك المعجزة، الطريف أنني عندما تأهبت لتوديعه، قال: إن شقيقته تعمل في وزارة السياحة،

في إدارة تنشيط السياحة، وإنها لم تخرج قط من مصر إلى الخارج في مهمة أو وظيفة بأحد المكاتب الخارجية، منذ فترة جاء أحد وكلاء الوزارة إلى برلين، طلب منه هاني إيفاد شقيقته في مهمة إلى ألمانيا أو النمسا ليراها، كان مشغولًا جدًّا ولا يمكنه النزول إلى مصر، وعده وكيل الوزارة، بل وحدد الوقت الذي ستزور فيه أخته فيينا، هاني صدق واشترى بطاقة السفر، لكنه عندما اتصل بشقيقته فوجئ بأنها لا تعلم أي شيء، لم يتصل بها أحد، ولم تكلف بمهمة إلى أي جهة، أصغيت إليه متعجبًا، قلت له إن شقيقته من كتاب أخبار الأدب، لها مقال منشور (العدد الماضي) أتمنى أن تقرأه، بدا سعيدًا كالأطفال والناس يمضون من حولنا إلى شتى جهات أوربا بفضل هذا المصري العبقري.

15 زوجان.. والعياذ بالله

إنها المنطقة الأجمل بالقطع، بارغفلد، وصلتها مع أنجو شولتز والدكتورة كلوديا أوت بعد أن توقفنا في موقع حادث القطار، اللون الأخضر عميق الخصوبة، متنوع، أراض زراعية على مدى البصر تتخللها طواحين مولدة للطاقة الكهربائية تعمل بالرياح، لا أرى بشرًا، بل بيوتًا متباعدة تنبئ بوجودهم، تعتمد الزراعة على الميكنة الحديثة.

يستقبلنا زوج كلوديا، يجمعهما العزف على آلات النفخ الهوائية، تتقن العزف على الناي الشرقي، تعلمته على يدي الأستاذ المصري رزق سليمان، أما زوجها فيصنع الآلات الموسيقية الخاصة بالأوركسترا الغربي، لها أسماء عديدة، أحجامها مختلفة، ما يجمع بينها أنها آلات نفخ هوائية، كل موسيقى العالم إما هوائية أو وترية.

البيت عمره ثلاثمائة عام، مبنيٌّ من أخشاب عتيقة، وسط الحديقة ركوة نار، الدكتورة تولم لنا بمناسبة حضورنا، زوجها قام بتجهيز السمك الذي تم اصطياده صباح اليوم من البحيرة العذبة القريبة،

سمك مستطيل لم أستطع تصنيفه أو إيجاد الموازي له عندنا رغم خبرتي بالسمك الذي لم أعد آكل من اللحوم غيره، لمحت قطع لحم متساوية مشكوكة في أسياخ جاهزة للشي فوق الفحم الذي بدأ يتقد، كنت متأثرًا بالحفاوة، قالت كلوديا إن الجزار عندما لاحظ اهتمامها سألها باهتمام عن الضيوف، عندما علم أنهما كاتبان، مصري وألماني، وأنهما سيقومان بقراءة أعمالهما في نادي القرية قرر الحضور حتى يرى، وصل أول المدعوين، ألماني بصحبة زوجته التي تعمل مراسلة لإذاعة مقرها برلين، ثم وصل مصري مقيم في الناحية اسمه عادل، بدا مجاملًا، ومن سياق الحوار أدركت أنه من أولئك المصريين الذين هاجروا تمامًا، صار الوطن الأول بعيدًا بالفعل، ربما جاء بفعل الإحراج أمام كلوديا جارته، أو بدافع الفضول، فوجئت عندما مالت كلوديا ناحيتي، وقالت إنني سأرى مفاجأة، تساءلت بملامحي، قالت إنها تنتظر وصول زوج وزوجه، تراجعت قليلًا مباغتًا، قالت مؤكدة، نعم زوجان أكثر منا (تقصد هي وزوجها) مسجلان بشكل رسمي، ليس في الكنيسة، لكن في السجلات المدنية التابعة للدولة، هذا طبيعي الآن في أوربا، تطلعت إليها متعجبًا، غير الطبيعي أصبح طبيعيًّا، على أي حال فلننتظر حتى نرى.

كنت معنيًّا بالرصد والملاحظة، أكثر مني في هذا الجانب أو ذاك، حذرًا، وكأن شيئًا يمكن أن يحدث فجأة، انتبهت إلى ضجة الطفلين وضحكاتهما، كان الزوج يدفعهما في عربة ذات عجلتين ويدور بهما حول الحديقة، تطلعت إلى أمهما، قالت إنهما يحبانه، وإنه

اعتاد اللعب معهما -كلما جاء- كان لسان حالي يقول بالصمت، ألا تخافين على أولادك؟ حانت مني التفاتة إلى الإفريقي- أقصد الإفريقية- رأيته يتطلع إلى زوجه وإلى الطفلين ويتنهد!

أوضاع غريبة

لم تكن المفاجأة رؤيتي للشواذ، إنهم في كل مكان، وفي مصر مشاهير منهم لكنهم لا يصرحون، وأحيانًا يتظاهرون بعكس ما هم عليه، ولكن المفاجأة في العلاقة المشهرة الرسمية الموثقة واعتراف المجتمع بها، أسمع منذ سنوات عن رجال يعيشون بعضهم مع البعض، لكن ظل ذلك بالنسبة لي في إطار الحكايات المسموعة، وها هي علاقة تسعى أمامي، قالت لي كلوديا إنه من الممكن لهما أن يتبنيا طفلًا أو طفلة، وتكون له كافة الحقوق من تربية وميراث وحمل الاسم الذي يتم الاتفاق عليه، كان ذلك مستحيلًا في البداية، ولكنه أصبح شائعًا، ربما بتأثير ضغط المنظمات المؤيدة، وهي عديدة وقوية، وبالطبع قيل إن الدراسات العلمية أثبتت عدم وقوع ضرر على الطفل، ولا أدري كيف تكون نفسية هذا الطفل الذي يشب في بيت، أبوه رجل وأمه أيضًا، وما يزيد الطين بلة إذا كان إفريقيًّا، أوضاع غريبة، تضحك وتدهش وتُبكي (بضم التاء)، في الصباح مضيت إلى زيارة بيت الأديب الألماني أرنوشميدت، إنه غير معروف حتى الآن في اللغة العربية لصعوبته، وسوف نقدمه في جريدة (أخبار الأدب)، تأثرت جدًّا بمنزله البسيط وبما عرفته عن عزلته وفقره.

في طريق العودة قالت كلوديا إننا سنمر بمكتبة هرمان (اسم الزوج)، إنها المكتبة الوحيدة في الناحية، عندما وصلنا إلى المبنى خرج مرحبًا بنا، وفي الداخل كان الإفريقي (أو الإفريقية!) يجلس هادئًا، أومأ إلينا مبتسمًا ومرحبًا، لكنه لم يغادر مكانه، تفرغت لتأمل الكتب فوق الأرفف، الحق أنها مكتبة ثرية، فيها الكتب بأربع لغات، الألمانية واللاتينية والإنجليزية والفرنسية، متخصصة أصلًا في مؤلفات أرنوشميدت. سألته عن أكثر الكتب مبيعًا، عن مزاج القراء، قال إنه أحضر عددًا إضافيًّا من كتابي المترجم حديثًا (متون الأهرام)، قال إن المدام معجبة به، أشار إلى الإفريقي الذي أومأ بدلع، تطلعت إلى أغرب قرائي، وكأني أراه لأول مرة.

لقد أجاب الزوج عن سؤال كنت أنوي أن أسأل كلوديا عنه، كيف يتخاطبون مع الزوج عندما يستفسرون عن الطرف الآخر، هل يقولون له: كيف ستيفان؟ أم كيف المدام؟ فيما بعد قالت لي كلوديا إن الإفريقي يعامل من الناس كأي زوجة، هداياه أنثوية، إنه يتقدم أولًا، ويوضع الطعام أمامه أولًا، الآن أثناء الكتابة تنتابني نفس الحيرة التي مر بها الكاتب المصري الذي كان ينقش نصًّا جنوب أسوان في بداية حكم الملكة حتشبسوت، عندما لم يدر هل يكتبها بصيغة المؤنث أم المذكر؟ الفرق أن حتشبسوت لم تكن شاذة، أما هذا الإفريقي....

إفريقي!

عندما سألت الدكتورة كلوديا عن الزوج والزوج (أي من يقوم بدور الزوجة) قالت مبتسمة: سوف ترى.

لاحظت أنها تتحدث مبتسمة، وكأنها سيدة من بلدتنا، ربما بتأثير ثقافتها الشرقية، إنها تتقن العربية والفارسية والعزف على العود، وربما تعرف الدهشة التي حلت بي عندما أفضت إليّ بحقيقة القادمين، رحت أنتظر، إلى أن توقفت عربة عند السور الخارجي، تطلعت إليّ كلوديا بشقاوة، أدركت أنهما وصلا.

الأول ألماني، ضخم الهيكل، كرشه تتقدمه، يتطلع إلى الأمام وكأنه موشك على الدخول في عراك.

الثاني إفريقي، سواده ليس زنجيًّا، إنما يشبه الأحباش، إنه من جنوب إفريقيا، مغني أوبرا، متوسط القامة، أميل إلى القصر، يمشي متمهلًا، متقصعًا، متثنيًا، متطلعًا إلى الأمام بزاوية ميل إلى الجنب الأيسر، في أذنه اليسرى حلق مستدير وحول أصابعه الثلاثة في يده اليمنى خواتم فضية من نفس شكل الحلق.

إفريقي؟

ياللعار، ظننت أن الطرف السلبى أشقر، أزرق العينين أو أخضرهما، أما أن يكون العكس تمامًا فقد أخذ هذا من فضولي، أن ألاحظ تلك العلاقة التي أطلع عليها لأول مرة، عندما صافحته لاحظت أن يده رخوة، وأنه لا يتطلع إليّ مباشرة، عندما اتجه للجلوس سارع زوجه الألماني بمد يده ليساعده، لم يكن هناك أي ضرورة لتلك الحركة،

لكنه ربما أراد إظهار العاطفة أو العناية، تطلع إليه زوجه من تحت إلى فوق ممتنًّا، نظرة أنثوية تمامًا، عندما استقر وضع يدًا على يد وراح يتطلع إلى اللاجهة وبين الحين والحين يرفع يده ليتحسس شعره الأكرت وكأنه يسويه، تذكرت أنثى من الجمالية، ابنة بلد، مشهورة بشعرها ونعومته وطوله. يالغرابة الذاكرة، أتذكر حركة الست صفية الدلالة من خلال ذلك الإفريقي غليظ الشفتين!

16 مونديال

انتهيت إلى أنني أحضر هنا الاستعدادات لبدء المونديال يوم الجمعة القادم.

قوات الشرطة الألمانية بملابسها الخضراء والصفراء تنتشر في الشوارع، العربات المصفحة، طائرات الهيلوكبتر، تبدو قوات الأمن المركزي في مصر رقيقة جدًّا بالنسبة للمظاهر البادية من استعدادات الشرطة هنا، إذا اندلع العنف يكون حادًّا، الخشية هنا من التعصب القومي الذي تفجره مباريات الكرة، ليس من جانب الألمان فقط، ولكن من الجاليات الكبرى التي تعيش في ألمانيا، خاصة الأتراك الذين يتجاوز عددهم الثلاثة ملايين، وبالطبع سيهبون لتشجيع فريقهم القومي، بالطبع هناك الإنجليز ومجانينهم المشاهير بالعنف الذي يمارسونه في الملاعب، لمحت الأعلام الألمانية في كل مكان، على السيارات، في الشرفات، عند مداخل الأبواب، وفي الطريق أرى الشباب الذي يبيع الأعلام للمشجعين، تمامًا كما حدث في مصر قبل المباراة النهائية لبطولة كأس إفريقيا، ظاهرة

الأعلام المصرية التي حيرتنا، وأقيمت لها الحلقات البحثية وكثر فيها التأمل والفحص والحديث عن الحاجة إلى الانتماء، إنها هنا أيضًا، الأعلام الألمانية لها الأغلبية رغم أن القانون الألماني يمنع رفع الأعلام إلا في الأعياد الرسمية والمناسبات الوطنية- كما أخبرنا الصديق السفير محمد العرابي- ولكن الداخلية الألمانية سمحت برفع الأعلام خلال المونديال على البيوت والعربات لكنني لمحت أيضًا سيارات ترفع الأعلام الإيطالية والفرنسية.

المونديال ليس مناسبة لإظهار المشاعر القومية والوطنية فقط، ويبدو أن المظاهر المتعلقة بهذه المشاعر تتزايد مع تراجع المشاعر التي كانت مرتبطة بالقضايا الكبرى، الأيديولوجية والفكرية، إنه مناسبة أيضًا لتسويق المنتجات والبضائع وللربح، شركات الحلوى طرحت قطع شوكولاتة على هيئة كرة، كل قطعة تحمل علم أحد البلدان المشاركة، إحدى شركات المياه الغازية الأمريكية رفعت لافتات تحمل تواريخ المونديال وانعقاده وتقدم نفسها باعتبارها الأفضل في كل هذه الدورات، شركات السيارات اليابانية دخلت السباق أيضًا بلافتات ضخمة في الميادين، وشاشات عرض هائلة الحجم في الميادين الرئيسية (تشارك فيها الشركات الألمانية أيضًا).

لا يمكن للملاعب أن تستوعب كل الراغبين في الفرجة على المباريات. ولذلك تقوم تلك الشاشات في المدن الألمانية كافة ليرى الألمان المباريات بأفضل صورة ممكنة، التليفزيون الألماني

يبث المباريات، ولم أسمع بوصول الشيخ صالح كامل إلى هناك لاحتكار إذاعة المباريات.

في سماء المدينة مناطيد هائلة الحجم على هيئة كرة قدم، تحمل اسم جريدة دي فيلت (العالم)، هيئة السكك الحديدية، شركات الطيران، المؤسسات الاقتصادية، كلها ترفع لسبب أو آخر ما يتعلق بالمونديال.

الأصدقاء الألمان والمصريون يتصلون بي ويوجهون الدعوات للفرجة على الافتتاح المبهر الذي سيتم في ميونيخ.

سور جديد

حول منطقة الملاعب في وسط برلين، أقيم سور من الحديد، تتخلله بوابات يقف عليها رجال الشرطة، ممنوع دخول الآلات الحادة، والزجاجات الفارغة، وكل ما من شأنه أن يصبح سلاحًا في أرض الملاعب، قلت لصاحبي الألماني إن السور الجديد يشبه سور برلين، كنت أداعبه، لكنه أجاب بجدية، قال: إن الأمر مختلف أيضًا، هذا سور لحماية اللعب.

أقيم في منطقة (الغابة الخضراء)، إحدى أجمل مناطق برلين، على مقربة منها يقع الفندق الذي خصص لإقامة الفريق القومي الألماني، أحيط بمتاريس وحراسات مشددة، في المساء عند الافتتاح خلت الشوارع تمامًا فيما عدا الميادين الكبرى التي تجمع فيها الآلاف لرؤية الافتتاح ووقائع المباراة الأولى، خلالها سحقت ألمانيا بفريقها القومي فريق كوستاريكا بأربعة أهداف، انطلقت مشاعر

الفرح والفخر، وعندما رأيت حجمها ومظاهرها قلت إن ما يجري عندنا مهما بولغ فيه فإنه يظل معقولًا جدًّا بالنسبة لما عاينته، ولما يتم تحميله على تلك اللعبة الشعبية الأولى في العالم من مشاعر وطنية وقومية آخذة في الازدياد.

الخميس مساء

مصرع الإرهابي

تناقلت وسائل الإعلام خبر مصرع «أبو مصعب الزرقاوي».

تذكرت على الفور الشهيد إيهاب الشريف الذي اختطفته عصابة «أبو مصعب» هذا وقتلته، آخرون أبرياء نفذ فيهم حكم الإعدام أمام كاميرات الفيديو، وأذيعت الأفلام على مواقع الإنترنت وللأسف كان يتم ذلك باسم الإسلام، وبالتأكيد فلم يلحق إنسان الضرر بديننا الحنيف كما ألحقته أفعال «أبو مصعب» وصحبه الذين شوهوا أيضًا سمعة المقاومة العراقية الوطنية بأفعالهم، وإصرارهم على إشعال الحرب الأهلية بين السنة والشيعة، بدلًا من توجيه كامل الطاقة إلى المحتل الغازي.

فليذهب هذا الإرهابي، القاتل، غير مأسوف عليه، لقد مثلت أمامي مرة أخرى صورة إيهاب الشريف وهو معصوب العينين أمام كاميرات «أبو مصعب»، وآخرون ذبحوا كالخراف أمام العدسات بينما صيحات التكبير والتهليل تتردد، حقًّا إن الله عزيز وقصاصه لا يتأخر.

الحذاء

تأمل أحوالنا من بعيد، هنا اكتسبت عادة لم أعرفها في القاهرة، أبدأ يومي قبل أن أتناول إفطاري بالجلوس أمام شاشة الحاسب الآلي، أطالع الصحف من خلال مواقعها على الإنترنت، أبدأ بصحف أخبار اليوم، ثم الصحف الأخرى قومية ومستقلة ومعارضة، ثم تقرير صديقي حسنين كروم في القدس، ثم بعض المواقع الإعلامية، خاصة موقع الإذاعة البريطانية.

عندما أسأل نفسي الآن، ما هو أهم حدث سيطر على كل هذه المواقع؟ إنها معركة الحذاء، ما نسب إلى النائب طلعت السادات، وإلى النائب أحمد عز، المهم، كل التعليقات حول خلع الحذاء وحول السباب الذي جرى، وما تبع ذلك من دفاع وهجوم.

في هذا الخضم، لم أقرأ عن مقتل الجنديين المصريين على الحدود بالرصاص الإسرائيلي، أو عن رفع الحراسة عن أموال مالك العَبَّارة، أو صحة ما قيل عن ربح شخص واحد لمليار ومائتي مليون جنيه في نهار واحد، صحيح هذا أم افتراء؟

أهم حدث، واقعة الحذاء؛ لذلك تبدو الأحوال من بعيد، ومن قريب أيضًا، كأننا نشهد فصلًا في مسرح اللامعقول.

فرص ضائعة

عندما قرأ صديق عزيز ما كتبته عن رونالدو على شبكة الاتصالات الدولية (الإنترنت)، اتصل بي، قال: يبدو أنك لم تكن تعرف رونالدو

الذي قرأت اسمه المكتوب على ظهر الفانلة، قلت له إنني لست خبيرًا بالكرة، وقد وقعت عيني على اسمه لأنه كان يجلس بالقرب مني، فهتفت: فيفا رونالدو، لكنني أدركت أنه مهم عندما رأيته اليوم التالي في مباراة مع الفريق الكرواتي، قال صاحبي: هل تعلم أنه أهم لاعب في الفريق البرازيلي؟ قلت: إن هذا واضح، سألني عما إذا كنت أعرف ثمنه. قلت: إنني لا أعرف، قال: إنه يوازي مائة وثلاثين مليون يورو، أي أنه أغلى لاعب في العالم، ثم سألني: هل التقطت صورة معه؟ قلت: إنني لم أفعل، سألني عما إذا كانت الكاميرا معي أم لا؟ قلت: إنها لا تفارقني، كنت أضعها في حقيبة صغيرة من القماش لألتقط بها بعض صور اللوحات في المتحف القومي، ضحك صاحبي المقيم في ألمانيا منذ زمن، فهمت من طريقة الضحك أنه يريد القول: خللي اللوحات تنفعك، حكى لي عن صبي صغير كان يتسوق في أحد محال الأغذية عندما لمح لاعبًا إنجليزيًّا مشهورًا يشتري بعض المواد الغذائية، طلب الصبي التقاط صورة معه، كان معه هاتفه المحمول، ابتسم اللاعب الإنجليزي، وافق، بعد وقت قصير باع الصبي هذه الصورة لوكالة صحفية بخمسة آلاف يورو! رددت الرقم: خمسة آلاف يورو؟! قال صاحبي: نعم، عندئذ حولت المبلغ إلى جنيهات مصرية، حوالي ستة وثلاثين ألف جنيه، أي مرتبي في عام ونصف، ترى، كم كانت الصورة تساوي مع رونالدو وهو في مطعم ألماني، ومبسوط ويرفع يده بإشارة النصر، ويهتف لمصر وللبرازيل ولأسماء اللاعبين الذين كنت أقرؤهم من خلال «الفانلات»؟!، إذن، أنا أحد أصحاب الفرص السرية الضائعة في المونديال.

أغادر مدينة كولون إلى مدينة آخن التي تبعد بالقطار فائق السرعة حوالي ساعة، سنتوقف بها لرؤية معرض كبير يقام للفنان الألماني جاسبار دافيد فريدريش، من حسن حظي أنه في هذا التوقيت، في محطة القطار، يلفت مرافقي نظري إلى السقف، لقد رسم على طريقة سقف كنيسة الفاتيكان الشهيرة التي أبدعها ميكائيل أنجلو خلال أربعة وخمسين شهرًا ظل معلقًا إلى السقالات خلالها، غير أن السقف هنا عليه لوحات تمثل اللاعبين المشهورين من الفرق المختلفة، أمام المحطة نصب كبير أبرز ما فيه كرة قدم، يتحدث توماس المسئول عن البيت الأدبي في كولون باعتزاز عن المدينة، ستشهد نهائي المونديال يوم الأحد القادم، المحطات تفيض بالحركة وبكل ما يمت إلى الكرة، بالأمس عندما وصلنا كان عدد كبير من الشباب يرتدي الملابس اليابانية، بعضهم ملامحه آسيوية، وآخرون ألمان، كانوا يرتدون ملابس الكيمونو اليابانية التقليدية، يستعدون لركوب القطار إلى مدينة ستقام فيها مباراة بين اليابان وفريق آخر، في الساحة أمام المحطة عدد كبير من الشباب يتلحفون بعلم المكسيك، ويصبغون وجوههم بالألوان الصفراء والخضراء والحمراء، العلم المكسيكي، قال لي الأصدقاء الألمان: يوجد أكثر من ثلاثين ألف مكسيكي وصلوا إلى ألمانيا بخلاف المقيمين فيها، أكبر عدد من المشجعين جاء من إنجلترا، حوالي ثمانين ألفًا، في أحد الميادين العامة بالعاصمة برلين رأيت مخلفات هائلة في حديقة عامة من علب البيتسا والهامبورجر وزجاجات البيرة والمياه الغازية،

آلاف من الإنجليز افترشوا الميدان وتركوا فيه ما لم يتركه السودانيون الغلابى في حي المهندسين بالقاهرة، بعد أسبوعين من بدء المونديال الروح الرياضية هي السائدة، صحيح أن الأعلام الألمانية في كل مكان، على الشرفات والعربات والمطاعم والميادين العامة، ولكن هناك عدد كبير من الألمان يشجعون فرقًا أخرى خاصة البرازيل والمكسيك والأرجنتين، في كل مكان شاشات التليفزيون تعرض المباريات، والحمد لله أن نفوذ الشيخ صالح كامل لم يصل إلى هنا، أخبرني أصدقائي عبر الاتصالات الهاتفية أن مصر والعالم العربي كله محروم من رؤية المباريات، بسبب احتكار الشيخ صالح، وقد سألت الأصدقاء الألمان عن البث الفضائي للمباريات فقالوا إن المحطات الألمانية الرئيسية تبث أرضيًّا خلال ألمانيا، ولا يمكن مشاهدتها على الهوت بيرد (القمر الأوربي) ولكن يوجد قمر ألماني اسمه (أسترا) يبث المباريات مباشرة، ويمكن مشاهدتها في مصر لمن لديهم أطباق، أجمل ما أعجبني تشجيع الألمان لفرق أخرى غير ألمانية، ومظاهر المرح الشبابي المصاحبة للتشجيع، مثل صعود عازفين على الآلات الموسيقية يرتدون ملابس الفريق الذي يقومون بتشجيعه وتبادلهم الحوارات مع الركاب، أو تقديم العروض في الميادين العامة، في أثناء انتقالي بالقطارات كان السائق يعلن نتائج المباريات على الركاب باللغتين الألمانية والإنجليزية وينقل بعض مجريات الأمور مثل طرد لاعب، أو إنذار آخر، في المطار رأيت بعض مقدمات الطائرات التابعة للشركة الألمانية وقد تحولت إلى كرة قدم، أما سماء برلين فمازال منطاد ضخم يسبح في

فراغ سمائها، يحمل اسم أهم جريدة ألمانية تصدر في العاصمة، (دي فيلت) أو العالم، رغم الزحام النسبي (من وجهة نظري) في وسائل المواصلات والميادين العامة. يقدر عدد المشجعين الذين وفدوا إلى ألمانيا بمليون شخص، إلا أن أصحاب المطاعم يشكون من قلة الإيرادات التي حصلوا عليها بالمقارنة بما توقعوه. خلال جولتي بعدة مدن ألمانية انقطعت عن عادتي الصباحية من فتح مواقع الصحف المصرية والعربية لمعرفة أخبار الوطن، عندما وصلت إلى برلين ركبت عربة أجرة كان سائقها إفريقيًّا من غانا، لاحظت أنه يسمع الإذاعة البريطانية بالإنجليزية، سألته عن أهم أخبار العالم، قال مبتسمًا: المونديال!

ذاكرة الشعوب

وصلت برفقة الأديب الألماني أنجوشولتز إلى بلدة (أسْد) بعد رحلة طويلة بالقطار بدأت من ميونيخ إلى هانوفر، إلى تلك المدينة الصغيرة، على الرصيف كانت المستعربة كلوديا أوت تنتظرنا مع طفليها الصغيرين، يرفع كل منهما العلم الألماني ويحمل باقة صغيرة من الزهور لكل منا، أعرف كلوديا منذ سنوات، وقد تابعت مشروعها لترجمة ألف ليلة وليلة ترجمة جديدة كاملة، وقد خرج إلى النور في معرض فرانكفورت العام قبل الماضي، ولاقى نجاحًا كبيرًا، تتحدث العربية بطلاقة وتعزف على الناي بمهارة، تعلمت على يدي أستاذ مصري تذكره بود عميق، الفنان رزق سليمان، قبل انتقالنا إلى القرية التي تقيم بها، والتي تضم مركزًا هامًّا لواحد من

أكبر كُتاب ألمانيا وأكثرهم صعوبة في القراءة والتفرد، أرنوشميدت، قالت إن مدينة (أسد) صغيرة، غير مشهورة إلا بشيء واحد للأسف، وهو حادث القطار فائق السرعة الذي وقع عام ثمانية وتسعين وراح ضحيته أكثر من مائة راكب، أشارت من فوق رصيف المحطة إلى قنطرة حجرية تلي المحطة، هنا وقع الحادث، القطارات السريعة تلك بدأت في فرنسا، تبلغ في أقصى سرعة ثلاثمائة كيلومتر، ويعتبر هذا هو الحادث الوحيد حتى الآن، وقد رأيت عنه فيلمًا مفصلًا في قناة (ديسكفري)، بدت كلوديا حريصة على أن ترى موقع الحادث، اتجهنا إلى القنطرة، فوقها نصب تذكاري من الأسمنت، وبجواره لوحة تسجل وقائع ما جرى الساعة العاشرة وثماني وخمسين دقيقة، ذلك الأربعاء من ديسمبر عام ثمانية وتسعين عندما اختلت العجلات وخرج القطار الذي كان مندفعًا بسرعة مائتين وثلاثين كيلومترًا في الساعة، اصطدم بالعامود الذي يتوسط القنطرة، وتدافعت العربات لتصطدم ببعضها وتخرج عن الخط، مكان خروج القطار طريق بلون مختلف من العشب يوضح المكان الذي استقرت فيه العربات، خط يتلوى كثعبان، في المكان نفسه تم زراعة أشجار بعدد الضحايا؛ لكل قتيل شجرة، كل هذه الأشجار تثمر زهورًا تتفتح في يوم ذكرى الحادث كل عام، وفي هذا اليوم تجيء وفود من المدارس والمواطنين العاديين ومصلحة السكك الحديدية لوضع باقات الزهور، كانت كلوديا تشرح بتأثر، والطفلان يتابعان باهتمام، وتذكرت تفاصيل الفيلم التي شرحت كل شيء، فالمهم عند الألمان: لماذا وقع الحادث؟ وما هي الأسباب حتى يمكن

تلافيها؟ لكن الأهم من هذا كله ذكرى الضحايا، هذه الأشجار، وهذا النصب الأسمنتي المؤثر، في هذا المكان النائي تذكرت بأسى ضحايانا من المصريين في قطار الصعيد، وقصر ثقافة بني سويف، ثم كارثة العبارة التي لم يهتم فيها أحد بتوجيه كلمة مواساة إلى التعساء من أهالي الضحايا أو أولئك الذين نجوا من الغرق بأعجوبة، كان الأهم هو إنقاذ ممدوح إسماعيل مالك العبارة، وتهريبه إلى الخارج حتى يظل في مأمن، استغرقتني المقارنة، هذا هو وضع الإنسان عندهم وهذا وضع الإنسان عندنا!

صباحًا في المقهى:

أخرج من المتحف القومي بعد أن أمضيت فيه حوالي ثلاث ساعات، معرض مخصص للتأثيرات الثقافية المتبادلة بين اليابان وألمانيا، كنت سعيدًا ومرهقًا، أما السعادة فلرؤيتي أصول لوحات قابلتني في كتب الفن التشكيلي، فوجئت بها في المعرض، لا شيء يعادل رؤية الأصل مهما بلغت جودة الطباعة والقدرة على التصوير، أما الإرهاق فلطول الوقوف والمشي المتمهل.

عبرت الطريق إلى مجموعة المباني الضخمة، الحديثة المعروفة بأشهرها، عمارة سوني، أرى مساحة حولها مطاعم، مقاهٍ، أمضي إلى أحدها، يتبع فندقًا حديثًا يرتفع بناؤه فوقه، لا أحد، المطعم خالٍ تمامًا، تتطلع النادلة الحسناء إليّ بحيرة، يبدو أنه محجوز، لكن ربما رقّقها منظر شيخوختي وإرهاق بادٍ، سألتني عما إذا كنت بمفردي، أومأت، تقدمتني إلى منضدة جانبية، طلبت شايًا، عادت

بطبقين صغيرين، في أحدهما زيتون أسود والآخر فيه شطائر خبز، وقائمة الطعام، رحت أتأملها على مهل، بعد دقائق فوجئت بتدفق أعداد كبيرة من شباب متقاربي العمر، يرتدون زيًّا موحدًا، قمصانًا صفراء وبنطلونات زرقاء، بعضهم اسمه مكتوب على الظهر، كانوا مرحين، أصواتهم عالية، تسري بينهم حميمية ضاعفت شعوري بالوحدة في يوم الأحد هذا، عندما مرَّ أحدهم أمامي لمحت البطاقة المعلقة إلى صدره، أدركت أنني أمام فريق البرازيل بالكامل، وإدارته أيضًا، وجوههم مألوفة، بعضها ذات ملامح إفريقية، كنت الوحيد المختلف، لا أحد غيري، شيئًا فشيئًا تصاعد المرح الأمريكي اللاتيني، ضحكات مرتفعة، ومع احتسائهم البيرة الألمانية بدأت الونونة، والغناء الجماعي، من أغنية إلى أخرى، تذكرت الرحلات المدرسية الجماعية في الزمن الخالي من الهموم، في الجماعة بهجة، وفي الصحبة ونسة ومتعة، كان بعضهم لا يكف عن الحركة، خاصة الفتيات اللواتي يرتدين قمصانًا صفراء وبنطلونات جينز وتبدو عليهن علامات الصحة والعافية والتمكن!

بعد أن فرغت من أكل طبق السَّلَطَة وشرب الشاي، طلبت الحساب، بعضهم كان ينظر إليَّ بفضول، يبتسم لي، أبادله الابتسام في صمت، كنت أبحث عن بيليه الجوهرة السوداء، وما زال جيلي يذكر مجيئه في بداية الستينيات وتسجيله ثلاثة أهداف، كانت دار أخبار اليوم هي الجهة الداعية لفريق البرازيل وقتئذ، لم ألمحه بينهم، قمت واقفًا متأهبًا للانصراف وقد سرى إليَّ شعور بالبهجة منهم، فجأة حدث ما لم أتوقعه.

صاح أحد الجالسين في مواجهتي بالإنجليزية:

- مع السلامة.

وردد الفريق كله «مع السلامة»، وقوفي وهم جميعًا جلوس جعلهم ينظرون إليَّ، عندئذ قررت أن أرد التحية بأحسن منها، رفعت يدي بعلامة النصر، وصحت هاتفًا:

- فيفا برازيل..

وكأنني أوقدت نارًا، نهض بعضهم، وارتفعت أيديهم ولوحت قبضاتهم:

- فيفا برازيل..

فجأة وجدت نفسي أنا من كان إحساسي بالإرهاق والوحدة قبل دقائق أقود مظاهرة، ومع من؟ مع أشهر فريق كرة قدم في العالم، كانوا في غاية الانبساط وقررت أن أبادلهم الود، لمحت اسمًا مكتوبًا على ظهر أحدهم، رفعت صوتي:

- فيفا أرنالدو..

طبعًا لم أكن أعرفه، لكن في مباراة البرازيل ضد كرواتيا بعد يومين اكتشفت أنه من أهم اللاعبين، فجأة صاح أحدهم:

- من أين أنت؟

استمرت يدي مرفوعة بشارة النصر:

- مصر.

وإذا بقاعة المطعم تدوي بهتاف الفريق البرازيلي وإدارته:

- فيفا إيجبت (تحيا مصر).

رددت مرة أخرى فرددوا خلفي، وعندئذ قررت المجاملة:

- فيفا برازيل.

ثم توالت الهتافات، فيفا رونالدو، فيفا بيليه، تعددت الفيفات، وسرت بهجة حارة بين الجميع، وعندما غادرت المطعم صفقوا جميعًا مسرورين «فيفا إيجبت». مشيت إلى محطة المترو مبتهجًا، مبتسمًا، مفكرًا، كيف سأحكي ما جرى لصحبي؟ عندما أخبرت صديقًا عزيزًا مقيمًا في برلين بما حدث، قال إن الصحافة الألمانية تحاول تعقب خطاهم، وتصرفاتهم، ما لفت نظري أن العدد الذي رأيته كبير بالقياس إلى عدد الفريق (أحد عشر لاعبًا). لقد رأيت أكثر من ثلاثين وبينهم فتيات جميلات، طبعًا لم أكن في حاجة إلى هذه الواقعة لأقرر تشجيع البرازيل.

إيران عصرًا

في مقر إقامتي بمعهد الدراسات المتقدمة مكتبة ضخمة بالطابق الأول، يتصدرها تليفزيون، يبدو المبنى خاليًا رغم يقيني بوجود ضيوف آخرين، إنه يوم الأحد، جلست في مواجهة التليفزيون، بعد قليل ستبدأ مباراة إيران والمكسيك، ليست لي اهتمامات كروية

إلا عندما تلعب مصر في مباراة مع فريق أجنبي، قررت تشجيع إيران، ليس لإعجابي العميق بالأدب الإيراني، والموسيقى الإيرانية التي أصحب تسجيلاتها معي، إنما تعاطفًا مع إيران التي تتعرض لحملة ظالمة من الولايات المتحدة لإصرارها على امتلاك التكنولوجيا النووية في الوقت الذي لا يرتفع فيه صوت ضد قدرات إسرائيل النووية.

منذ أن بدأت المباريات وتسود ألمانيا حالة من البهجة والشعور بالتنافس الرياضي الحقيقي، الشاشات الضخمة موزعة على الميادين الرئيسية، يحتشد أكثر من مائة ألف لرؤية المباريات، في الحدائق العامة شاشات أيضًا، في جميع الأماكن العامة، من حق المواطن الألماني أن يتفرج مجانًا وفي المكان الذي يوجد فيه، المطاعم تتنافس في وضع الشاشات، صاحب مطعم مصري قال لي إنه أدخل شاشة ضخمة، ولكن إقبال الجمهور الأجنبي ليس بالمعدل الذي تم تقديره قبل المونديال، الشرفات ترفع الأعلام، طبعًا الأغلبية ألمانية، لكن هناك وجود قوي لجاليات أخرى، الإيطاليون، الإسبان، مواطنو أمريكا اللاتينية، لكن المثير للانتباه أن الألمان يشجعون فرقًا أخرى وخاصة البرازيل، في الميدان الرئيسي القريب من حديقة الحيوان، نصبت خيام يحمل كل منها علم فريق شارك، علمان عربيان يرفرفان في كل مكان، التونسي والسعودي، تابعت مباراة إيران والمكسيك، مثير رؤية انفعالات المدربين والمعاونين، هُزمت إيران رغم أنها لعبت بشكل جيد، وأخبرني من يتقنون الألمانية أن المذيع كان متعاطفًا مع الفريق الإيراني، غير أنني كنت على موعد مع البرازيل مرة أخرى.

الثلاثاء/ عصرًا

في القطار العائد من ليبزج، نزلت في المحطة المركزية التي بناها المهندس المصري هاني عازر، ربما يفسر هذا شعوري أن لي صلة بشكل ما بها، صعدت إلى المستوى العلوي لأركب المترو، كان مزدحمًا، وعدد كبير من الركاب يرتدون الزي الرياضي للفريق البرازيلي، ظننت أنهم برازيليون، لكنني اكتشفت من اللغة والملامح أنهم ألمان، ثم فوجئت بفتيات ألمانيات جميلات، يرتدين ما خف حمله بسبب الحر- قاتل الله التقدم في السن- يوزعن قطعًا صغيرة من الورق المغطى بالبلاستيك داخلها ورقة تطبع على الجلد وشمًا هو شعار البرازيل، وطبعًا مكتوب توضيحات أنها لا تضر الجلد وأنها تُزال بسهولة، أما الحسناوات اللواتي يرتدين الشورتات الساخنة فيقدمن عروضًا لطمأنة الركاب، بإلصاق الوشم على الذراع والجبهة والسيقان مما يجعلني أنظر إلى الناحية الأخرى حياءً، سألت جاري الألماني في المترو: لماذا يشجع الألمان فريق البرازيل؟

قال إنه فريق كبير وله شعبية كبيرة، ثم قال إن الألمان يشجعون فرقًا تلعب ضد فرق قوية لا يريدون صعودها إلى النهائيات، فقد كانوا ضد الفريق الهولندي مثلًا. عندما نزلت من المترو في وسط المدينة متجهًا إلى محطة الأتوبيس، رأيت شبابًا يرفعون أعلام إسبانيا التي ستلعب في ليبزج غدًا، وبينهم فتيات يرتدين البكيني أو ما يشبهه وعلى أجسادهن وشم العلم الإسباني، عندئذ أسرعت الخطى مرددًا: لقد زاد التشجيع عن الحد.

سلوفاكيا 2007

17 إقلاع

أنتظر لحظة الإقلاع دائمًا، أترقبها، أترصدها، أستنفر حواسي كافة، السمع مرهف إلى هدير المحركات، تغيرها، كل ما يطرأ عليه من تدرج، تصاعد، ثم انطلاق، ثم ما يجري بعد الإقلاع.

النظر مصوب إلى الخارج، إلى الأرض بالتحديد عبر النافذة المستديرة، أعد على أصابعي، أترقب الرقم الذي سيبدأ عنده، أتمنى أن يكون رقم سبعة، أتفاءل به، الأرض تتراجع إلى الوراء كأنها تجري ونحن في الحقيقة الذين نمضي، ها أنذا في الطائرة المصرية المتجهة إلى ڤيينا، ترى، كم مرة أقلعت من قبل؟ يمكنني أن أحصيها لو عكفت على جوازات سفري التي أحتفظ بها كافة منذ سفري لأول مرة إلى خارج الحدود عام ثلاثة وسبعين قاصدًا دمشق، أول طائرة مصرية تقلع بعد وقف إطلاق النار، سبعة جوازات سفر، ستة بطل مفعولها، تحمل أختام السفر والوصول، الدخول والخروج، مجرد خطوط لا تعني شيئًا لمن يتأملها الآن، لكن في ثنايا كل منها أشواق وخطرات وفيوضات، فيها ما فيها كما يقول مولانا جلال

الدين الرومي في واحد من أعذب وأجمل دواوين الشعر الإنساني كافة، منها يمكن الاستدلال على مرات إقلاعي، لكن سيظل الأمر ناقصًا، ماذا عن مرات إقلاعي في الطائرات العسكرية زمن الحرب، وزمن الإعداد لخوضها، مرات عديدة في طرز مختلفة، إليوشن 14، الأنتينوف، هرقل سي 130، ثم الإقلاع العمودي، طائرات الهليوكبتر سوفيتية الصنع، سمي 8، سمي12، والطائرات الأمريكية من طراز سيكورسكي، في عام سبعين حضرت مناورة عسكرية، كان ذلك صيفًا، يمكنني اعتبارها تجربة للعبور الكبير الذي قُدر لي أن أشهد معاركه اعتبارًا من اليوم التالي- الأحد-خلال المناورة وفي يوم واحد أقلعت بي طائرات الهليوكبتر أكثر من ثماني مرات، إذن.. لا يمكنني الاعتماد على الذاكرة، لا يمكنني إحصاء المرات التي انفصلت فيها عن الأرض، عن اليابسة التي أشعر بالاطمئنان كلما مشيت فوقها، أو كنت قريبًا منها، حتى إنني أثناء الطيران أكون أكثر اطمئنانًا مادمت فوق اليابسة، حتى إذا بدأ فوق البحر أو المحيط أجدني أقل اطمئنانًا مع أن الوضع واحد، لا أدري أين قرأت مثلًا صينيًّا يقول: إذا نمت فنم قريبًا من الأرض، أتذكره دائمًا في الطوابق العليا التي أضطر إلى النوم فيها خلال أسفاري، أو في البيت الذي أقيم فيه (الخامس).

تستدير الطائرة لتواجه الممر، أحيانًا يمكنني رؤية امتداده، بتوالي هدير المحرك، يبدأ الإسراع، دائمًا البداية من مطار القاهرة، أصبحت أحفظ تفاصيله، كذلك المسارات التي تتخذها الطائرة عند الإقلاع، كذلك عند الهبوط.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة...

دائمًا أترصد تلك اللحظة، عندما ترتفع المقدمة وتفارق العجلات الأرض، أرقب ابتعادها، الصعود القوي، الهادر، يُقال إنها أخطر اللحظات في الطيران، الإقلاع والهبوط، أذكر المرات التي أقلعت فيها، عبر الذاكرة تتشابه المرات، عدا القليل منها، دائمًا أستعيد إقلاعي عام ستة وتسعين، كنت متجهًا إلى الولايات المتحدة في رحلة علاج، كنت مقبلًا على عملية جراحية دقيقة في القلب، كانت وقتئذ من العمليات المصنفة بأنها خطيرة، وكنت قد مررت بأحوال انتهت بي إلى التكيف مع الوضع، وقبول أقصى النتيجة، عندما جلست إلى جوار زوجتي في الطائرة الجامبو، ما زلت أذكر اسمها «حتشبسوت»، لسنوات ظللت كلما لمحتها في المطار ينشأ عندي أمر ما، غامض يستعصي على التفسير، عندما فارقت عجلاتها الأرض، أومأت مودعًا، مقتنعًا أنها المرة الأخيرة، وأنني ربما لن أرجع مرة أخرى لأخطو فوقها، إنما عودتي ستكون بدءًا لتناثر ذراتي في حناياها، في رحلة العودة كنت كالطفل المولود من جديد، لكنها ولادة مغايرة بمعارف مكتملة، وتراث مساند، لا يشبه إقلاع الآخر، أحيانًا لا أشعر بالفرق بين الاندفاع فوق الأرض وارتفاع الفراغ، يتوقف الأمر على مهارة الطيار، والحق أن شهرة الطيارين المصريين في الإقلاع والهبوط معروفة، النعومة والسلاسة، عندما تندفع الطائرة لتحقق الإقلاع تكون سرعتها فوق المائتي كيلومتر في الساعة، وهذا قليل، ظننته أكثر، لكن المحركات تعمل

بأقصى طاقتها، الإقلاع والهبوط يتمان عبر قيادة الربان ومساعده، في الأعالي يقوم الطيار الآلي بضبط الرحلة.

ها أنذا في الفراغ، سحب خفيفة، نهار صحو، تستدير الطائرة متجهة إلى الغرب، أعرف المسار، عندي توثب وفضول، إنني أقصد بلدًا أنزله لأول مرة، سلوفاكيا، أقطع الطريق للمرة الثانية، محطة الوصول فيينا، سينتظرنا أصدقاء سلوفاك، أنتقل إلى براتسلافا العاصمة بالسيارة، مسافة حوالي ستين كيلومترًا، إن الوجهة التي يقصدها الإنسان عند الرحيل تحدد مزاجه وحالته النفسية، كذلك وضعه في الجلوس، في السنوات الأخيرة أضيف عامل آخر، الإرهاق أو الراحة، أي الحالة الصحية.

في كل الأحوال يُعَدُّ الإقلاع فاصلًا بين حدين، بين وضعين، إنه عين الانتقال وجوهره، فلأنتبه، النهار جميل، واللون الأزرق الذي يحيرني مصدره صاف، موحٍ، رقراق رغم الغمامات السابحة.

18 نحو الأرض

كما أترقب الإقلاع، أستنفر حالي عند النزول، من الأرض بدأت، وإليها أعود، سواء على مدى الرحلة الصغرى، أو الرحلة الكبرى المرتبطة بالوجود، لكثرة ما عبرت البحر المتوسط صرت أتقن ملامحه، مسارات الطائرات، سواء تلك المتجهة إلى الغرب، باريس خاصة، التي أتردد عليها مرة أو مرتين في العام، أو روما، أو ذلك المسار المتجه إلى ألمانيا، أو عبر فضاء تركيا إلى موسكو وأوربا الوسطى، أعرف معالم جبال الألب، أعتبر الوصول إليه عندما أقصد أوربا إيذانًا ببدء الهبوط.

للمرة الثانية هذا العام أجتاز ذلك المسار، إلى فيينا، لكنني هذه المرة لا أقصدها،إنها مجرد نقطة عبور إلى براتسلافا عاصمة سلوفاكيا، حتى العام الثاني والتسعين كانت دولة تشيكوسلوفاكيا قائمة حتى بعد انهيار النظام الشيوعي، هذا البلد من معالم ذاكرة مقتبل العمر، فعندما اتجه جمال عبد الناصر إلى المعسكر الاشتراكي لتسليح الجيش المصري، كانت تشيكوسلوفاكيا هي البلد الذي وقع

عليه الاختيار ضمن المنظومة الاشتراكية لتزويد مصر بالسلاح، ربما حتى لا تحصل مصر على السلاح مباشرة من الاتحاد السوفيتي في زمن كانت الحرب الباردة تشهد تصعيدًا خطيرًا، غير أن البلد ارتبط عندي بأمرين آخرين، براغ هي العاصمة التي ارتبط اسمها بأديب عظيم أكن له احترامًا ومحبة وإعجابًا، إنه فرانز كافكا، الذي كان يكتب بالألمانية ويعيش في براغ؛ لذلك اعتبره التشيك أديبًا تشيكيًّا، أما الألمان فأدرجوه بين الأدباء الألمان، ولكن اليهود اعتبروه كاتبًا يهوديًّا لأنه منهم، إنه أحد عباقرة الإنسانية، أما الثاني فلترددي خلال الستينيات على المركز الثقافي التشيكي الذي كان مقره وسط المدينة، وكان يقدم عروضًا موسيقية ومسرحية جميلة، لكم تمنيت زيارة براغ، لكن انفصالًا سياسيًّا وقع، جرى في هدوء ناعم، بدون حروب أو صراعات، استقلت سلوفاكيا عن التشيك أو العكس، ها أنذا أمضي إلى سلوفاكيا لأحاضر في عدد من جامعاتها، وألتقي بأدبائها، أعرف أن محاولة زيارة بلد آخر ربما تثير حساسيات، أذكر أنني في عام سبعة وثمانين من القرن الماضي لبيت دعوة من جامعة هاله في ألمانيا الشرقية، أمضيت أسبوعًا في برلين الشرقية، لم أفكر حتى في عبور السور إلى الغربية، رغم أنني لم أزرها حتى ذلك الوقت، كثيرون من الضيوف العرب كانوا يبدون نفس الرغبة ولم يكن هناك ما يمنع، لكنني أحترم مشاعر من يضيفني، ولا أرغب في ترك حساسيات من أي نوع، موعد الرحلة مثالي للطيران، كذلك المناخ فوق المتوسط، أطيل تأمل زرقة السماء بدرجاتها المختلفة وتداخلها مع الغيوم التي تختلف كثافاتها من جزء إلى آخر، يتيح لنا الطيران رؤية الكوكب الذي نعيش فيه من زاوية مغايرة، وبرغم كثرة

الأسفار فإنني ما زلت أحتفظ بالدهشة الأولى، أتأمل أولئك الذين يستغرقون في النوم بمجرد ربط الأحزمة وإقلاع الطائرة، حتى في الليل، أتطلع بفضول إلى أضواء المدن البعيدة، هناك بأسفل والتي أجهل أسماءها وأتساءل عن البشر وما يجري والمصائر المجهولة لي.

تقترب الطائرة من المطار، أصبحت ملمًّا، حافظًا للأصوات التي تصاحب عملية الهبوط، كذلك حركة الجناح، تبدأ العملية بطيئة ثم تتسارع مع الاتجاه إلى الأرض، الغيوم كثيفة، طبقات، ألمح ظل الطائرة على السحب، ذلك البياض الذي يشبه بياض القطن، يبدو الظل بعيدًا ثم يقترب فجأة مندفعًا إلى الطائرة، إلى الأصل، حيث يندمج به ويعود إلى الانفصال مع ظهور غيوم أخرى، أتأمل الظل، إنني موجود فيه بشكل ما، من العلاقات التي أديم التأمل فيها الصلة بين الأصل والظل، أيهما يتبع الآخر؟ لا أذكر من قال: إن الأصل في الأشياء الظل، أخيرًا تبدو الأرض، التقسيمات، اللون الأخضر، الفراغات، البيوت المتباعدة.

خارج المطار الذي أصبحت أعرفه جيدًا تقف سيدة ترتدي معطفًا من الفرو، ملامحها شرقية تمامًا، سمراء، لا تزال ثلاثينية وربما أربعينية في البداية، تحمل لافتة كتب عليها اسمي، بجوارها رجل مديد القامة، أنيق المظهر، يتقدمنا إلى حيث انتظار العربات، إنهما موفدان من وزارة الخارجية السلوفاكية، السيدة دبلوماسية عملت في فرنسا، متخصصة في الشئون الاقتصادية، الرجل سائق قديم.

تنطلق بنا السيارة المرسيدس الوثيرة، ما بين فيينا وبراتسلافا حوالي ستين كيلومترًا، عندما جئت إلى فيينا الصيف الماضي، كانت سائقة عربة الأجرة سيدة ضخمة البنيان، قوية التكوين، قالت لي إنها من

سلوفاكيا، كثيرون من أوربا الشرقية يتدفقون خلال السنوات الأخيرة على أوربا الغربية للعمل في مهن مختلفة، كان يقوم بها العمال الأتراك أو المغاربة أو الأفارقة، الآن تغلق أوربا في وجه الهجرة القادمة من الجنوب وبالتحديد من العالم الإسلامي، أما الأعمال التي لم يكن يقوم بها إلا أبناء العالم الثالث، فسوف يتولاها الآن أبناء دول أوربا الشرقية، حدثتني مرافقتي عن الأحوال الاقتصادية الصعبة في الشرق، عن البطالة المنتشرة بين الشباب، الآن تنتظر سلوفاكيا دخول الاتحاد الأوربي الذي أقر بالفعل ولكنه يتم على خطوات، لا تزال هناك حدود ونقاط عبور، الآن يتم التعامل باليورو ولكن في أماكن محددة.

تندفع السيارة عبر طرق ممهدة، تمر بمدينة نمساوية صغيرة، الأناقة طابع جلي سواء في العاصمة النمساوية أو المدن الصغيرة، بين البيوت مسافات فسيحة، الأرض زراعية ممتدة، أقرب إلى السهل.

نصل أخيرًا إلى الحدود التي ستزال تمامًا في العام القادم، ثمة بوابة عريضة ذات اتجاهين، يجلس ضباط الجوازات -بعضهم نساء- داخل مكاتب مشرفة على الاتجاهين، يرفع السائق جواز سفري وبطاقتي هويته، يشير الضابط إلى أن نتقدم، واضح أن العربة معروفة بأرقامها الدبلوماسية، ما من ضرورة للتدقيق.

بمجرد عبور البوابة تختلف المشاهد، خاصة تلك التي أقامها الإنسان، الطبيعة واحدة، كذلك لون النبات، لكن البيوت مغايرة، تجمعات من العمارات ذات الطابع الواحد، تذكرني بالمساكن الشعبية التي بنيت في مصر خلال الخمسينيات ثم اكتشفت فيما بعد أن تصميماتها مستعارة من أوربا الشرقية، ها أنذا في صميمها قبل خطوة من اندماجها في الغرب.

19 في براتسلافا

توقفنا عند مدخل شارع ضيق مبلط بالحجر في براتسلافا القديمة، غير مسموح بدخول العربات إلى هذه المنطقة، لكن العربة التي أقلتني لديها تصريح لأنها تحمل أرقامًا دبلوماسية، توقفنا أمام بيت قديم، بوابة خشبية عريضة تشبه بوابات البيوت العتيقة في الريف المصري، ضغطت مرافقتي الجرس، بعد لحظات أطل شاب في العشرينيات، بدا هادئًا، على وجهه ملامح حزن ما، قالت السيدة إنها مضطرة إلى الذهاب، اقترب موعد زوجها وقد اتفقا على تناول الغداء معًا، انصرف السائق أيضًا، تقدمني الشاب إلى المدخل الأيسر المؤدي إلى طابقين يتكون منهما المنزل، قال إنه شُيِّد في القرن الثامن عشر، كان مهملًا، تم ترميمه وأصبح مقرًّا لضيوف وزارة الثقافة، سألته عما إذا كان يوجد ضيوف آخرون، قال إنه يظن وجود سيدة أخرى. لكنه ليس متأكدًا تمامًا.

كنت مرهقًا، خلوًا من ذلك الفضول القديم الذي يتأجج عند وصولي إلى مكان أنزله أول مرة، لم أستفسر منه عن طبيعة عمله، كيف لا يعرف نزلاء البيت إذا كان يعمل فيه؟ ما طبيعة صلته بالمنزل إذن؟!

على مهل صعدت الطابقين، بعد وصولي إلى الأول طلبت منه أن يساعدني في حمل إحدى الحقيبتين، في الطابق الثاني توقفنا أمام باب أحمر مستطيل، يقابله باب آخر، يشكلان معًا زاوية قائمة، أخرج ثلاثة مفاتيح، قال إن الآخرين يخصان الباب الرئيسي، اجتزنا إلى صالة فسيحة، تتصدرها ثلاجة صغيرة فوقها زجاجات عصائر، وعلب قهوة وشاي، وخبز مجفف، وأكياس مكسرات، تذكرت أوائل الستينيات في مصر، عندما بدأ إنتاج مصنع إيديال يظهر في الأسواق، بدأت الأسر الميسورة في اقتناء ثلاجة، كانت المقاسات تتراوح بين تسعة أقدام وستة، وفيما بعد ظهرت الضخمة ذات الستة عشر، كان الجيران يضعونها في مدخل الصالة، مع انتشارها وكثرتها دخلت مكانها العادي (المطبخ) حجرة مستطيلة، أريكة ممتدة بعرض الجدار، أثاث قديم، غرفة صغيرة مؤدية إلى حجرة النوم، سرير عريض، نافذة فسيحة، شقة يمكنها استيعاب أكثر من شخص، قلت للشاب إنني سأخرج بصحبته لأنني أريد تغيير مبلغ صغير بعملة البلد، صحيح أن الدفع باليورو ممكن ولكن ليس في كل الأماكن، خرجنا على الفور، تطلعت إلى الباب الأحمر المجاور، مصمت كأنه لا يؤدي إلى شيء، واضح أنها الشقة الأخرى، ربما أصغر، ربما أكبر، لم يبد أي أثر لوجود أحد بالداخل، سألت عما إذا كان يوجد هاتف، قال إنه بأسفل، قرب المطبخ، لكنه لا يعرف أين بالضبط؟

تقدمني، في الطابق الأول، غرفة اجتماعات، منضدة، مقاعد مصفوفة، ستائر تعبق رائحة القطن المنسوجة منه الفراغ، حجرات أخرى مغلقة، دفعت باب إحداها، إطارات قديمة مختلفة الأحجام، خالية من الصور أو اللوحات، لمحت سلمًا يؤدي إلى حيث لا أعرف، عندما وصلنا إلى الطابق الأرضي خطوت نحو الفناء

المكشوف، حوض رخام يعلوه صنبور قديم، شجيرة في المنتصف، الفناء مفتوح، يعلوه الفراغ المؤدي إلى السماء، تذكرت البيوت العربية في القاهرة القديمة، في المغرب، في الأندلس.

أخرج الشاب المفاتيح، اثنان يخصان البوابة الرئيسية، الأول أصفر، الثاني أبيض لأسفل، قال إنني يجب أن أغلق الأصفر أولًا ثم الثاني، دائمًا أبدأ بالعلوي، عند الفتح أيضًا من الخارج، مرة أخرى تطلعت إلى الداخل، البيت متعدد الغرف والأركان، لمحت سلمًا يؤدي إلى طابق تحت مستوى الأرض، لم أستفسر، ما يشغلني الهاتف إذا ما شعرت بمتاعب صحية، هذا هاجس ملازم لي في السنوات الأخيرة، بمن أتصل، أين مركز الطوارئ؟ هل من إسعاف؟

قال الشاب إنه لا يعرف بالضبط، أقرر مراجعة أرقام الهواتف التي جئت بها من مصر وزودني بها القائم بالأعمال السلوفاكي، هاتف المشرف على زيارتي السيد زولدوش، وهاتف أستاذ مصري يدرس اللغة العربية في جامعة براتسلافا، مهم أن أكون على صلة ما رغم يقيني أن معظم الهواتف النقالة في أوربا تغلق ليلًا، المهم عليَّ أن أتصل عبر هاتفي المحمول الذي أضفت إليه خدمة التجوال، لو أنني أعرف هذه السيدة التي تقيم في البيت؟ لو أتأكد أنها موجودة فعلا يمكنني أن أشرح لها ظروفي، لكن البناء يبدو خاويًا تمامًا، تقدمني الشاب مطرقًا، يبدو دمثًا لكنه غير متحمس، قال إنه ينتظر فرصة عمل في فيينا، قال إنه يوجد مكتب صرافة على مقربة، الشوارع مرصوفة بالحجر للمشاة فقط، واجهات المباني سلافية الزخارف، أنيقة، مجددة، ألمح مطاعم مختلفة، متاجر للملابس، بعض الأسماء التي تتكرر في عواصم العالم من نيويورك إلى دبي إلى شنغهاي، وجودها دليل على الانفتاح ومسايرة العصر، تذكرت الحملة الإعلانية

الضخمة في مصر مع بدء السياسة الاقتصادية الجديدة في سبعينيات القرن الماضي، كانت تعرف الناس بمشروب غازي جديد، قيل إنه كان ممنوعًا في مصر لأن الشركة الأصل تتعامل مع إسرائيل، مركب من الليمون والصودا، يباع في علب وفي زجاجات، يوم ظهوره وقف الباعة في الميادين أمام عربات تحمل الصناديق وترفع أعلامًا ورقية عليها الشعار، ويرتدي بعضهم طراطير ورقية بنفس ألوان الزجاجة والعلبة، يوم مشهود، لم أر فيه إلا أفواهًا مفتوحة، وعيونًا متجهة إلى أعلى، كان القيظ في أوجه، تذكرت صاحبة روسية، أستاذة شابة في الجامعة، مع بداية التحول في أوائل التسعينيات، كانت تردد مبتسمة، أخيرًا ستأكل البنانا، البنانا، لم تسمع عن البنانا إلا في الكتب.

بعد أن غيرت مائة يورو في مكتب استبدال العملة، دعوت الشاب إلى مشروب في أي مكان يختاره، قال إن الاحتفالات بالكريسماس بدأت أمس، افتتحها عمدة المدينة في الميدان القريب من البيت، عبرت الشوارع الضيقة، لاحظت وجود مكتبة عريضة الواجهة، سأعود إليها فيما بعد، أحاول تحديد بعض العلامات التي يمكن أن تثبت في الذاكرة حتى إذا خرجت إلى التجول منفردًا لا أضل الطريق، أعجبني مقهى كل ما فيه يمت إلى الشيكولاتة، وتمثال جندي لا يظهر منه إلا رأسه المغطى بخوذة يتطلع بالمنظار المكبر صوب نقطة ما أمامه مباشرة، أخيرًا نصل إلى الميدان، خيام منصوبة، شموع، مسرح كبير في الواجهة يقدم عروضًا موسيقية مجانًا، أطعمة خاصة، سجق، لحم، حلويات، نبيذ ساخن تذكرت مثله في مارسيليا، زهور صناعية، تماثيل خشبية، رخام، الجو بارد، لفحة أوربية، مناخ ديسمبري وإن لم يصل بعد إلى تحت الصفر، أصافح الشاب بعد أن توقفنا في الميدان قليلًا، أتجه إلى الشارع الضيق، أتساءل، هل أقيم بمفردي أم توجد تلك الأنثى فعلًا؟

20 شيء ما

ثمة شيء، شيء كامن في كل مكان، ربما يسفر عن طبيعته منذ اللحظات الأولى، وربما يمضي الإنسان عمرًا محاولًا اكتشافه، هذا الشيء هو ما يمنح المكان خصوصيته، مما يجعل الأقصر تختلف عن فينسيا، أو جهينة مغايرة لبراتسلافا، إنه ذلك الشيء الناتج عن التراكم البطيء للعناصر المرئية والخفية، منذ وصولي إلى براتسلافا وأنا أبحث عن أسباب الخصوصية، على مقربة من الميدان الرئيسي في المنطقة القديمة حيث الخيام المنصوبة، المتجاورة بمناسبة اقتراب عيد الميلاد طبقًا للتقويم الغربي (الكريسماس)، ثمة برج يعلو بوابة من الحجر، سلافي الطابع، يتكون من ثلاثة أجزاء، مربع مستطيل تتخلله نوافذ ضيقة، يعلو البوابة الحجرية، اسمها سان ميتشيل، فوق أرضيتها رسمت دائرة حددت بالمعدن، تشير إلى الجهات الأربع الأصلية، على كل جهة كتبت أسماء مدن، «القاهرة» داخل مثلث، على الجانب الجنوبي الشرقي، تأملته طويلًا وبلغ من قوة الاسم وحضوره أنني شعرت كأني رأيت مدينتي، الجزء الثاني

من البرج ليس به نوافذ، إنما أربع ساعات لتحديد الوقت، كل منها تواجه جهة، يعلو البرج جوسق متدرج أخضر اللون، قاعدته بصلية الشكل وهذا ما يمنحه طابعًا سلافيًّا، القباب السلافية مستوحاة من البصل، يزداد نحافة كلما ارتفع إلى أعلى، البرج معلم، مهيمن على الجزء القديم، يشرف على ساحة صغيرة مبلطة بالحجر، يقف الشباب يشربون النبيذ الساخن المخلوط بالعسل، يعد مشروبًا قوميًّا، اعتذرت لمرافقي عن تذوقه لأنني لا أشرب الخمر، الكل وقوف، الأعمار متقاربة، إناث وشباب، صحيح أن أهل سلوفاكيا متحفظون نسبيًّا لاشتغال معظمهم بالزراعة، غير أن التقاليد الأوربية الحالية تطول المجتمع هنا، فيمكن لاثنين أن يعيشا معًا بدون زواج، وأن ينجبا، وأن تعترف الكنيسة ويعترف المجتمع بالطفل، المهم أن يأتي الطفل وليس المهم كيف جاء، بل إنني أسمع حكايات غريبة عن نساء يقررن الإنجاب، فيخرجن مع الأصدقاء إلى رحلة يتم خلالها التعارف الذي قد يحدث فيه لقاء جنسي عابر يتم خلاله الحمل، وفي ظروف أخرى سمعت وقرأت عن بنوك تحتفظ بمني الذكور بحيث يكون تحت الطلب، ويتم تلقيح الأنثى التي تريد إنجاب طفل بالجرعة المحفوظة من أب مجهول، هكذا يجيء الطفل يتيمًا من الأب إلى العالم، تتطور العلاقات الإنسانية وتتغير وتتجه إلى مسارات لا نقدر بطبيعة تربيتنا وعقائدنا أن نستوعبها، هكذا العالم الذي نعيش فيه.

خواطر عديدة توالت عليّ وأنا أقف في تلك الساحة الصغيرة تحت بوابة سان ميتشيل أحد أبرز المعالم في براتسلافا، الوجوه

تفيض بالأنس وبعضها تطفر منه السعادة، بينما التطلع والأمل والترقب من الأخرى، تلك الملامح لا أعرف أصحابها، كما أنهم لا يعرفون عني شيئًا، ربما ينتبه بعضهم إلى ذلك الغريب المتأمل، لكن لا يحدث اتصال بسبب انتفاء المعرفة وصعوبة الحوار لجهلي باللغة، عندئذ أصير موجودًا وغير موجود، موجودًا بالفعل، بالحضور، وغير موجود لأنني لا أعرف شيئًا عن هؤلاء الذين أراهم، وإن كانت تلك الحالة يمكن أن تمر بالإنسان في أماكن يعرفها ويألفها، غير أن هذا نادر.

شيئًا فشيئًا أستوعب المدينة، غير أنني لم أمسك بعد بما يمنحها تلك الخصوصية التي أرصدها، في الصباح الباكر خرجت إلى الشوارع المحيطة بالبيت، إنه الجزء القديم، لقد خطط في القرن الثامن عشر (1781) بتوجيه من الكاردينال جوزيب باتياني رأس الكنيسة الكاثوليكية وكان مجري الأصل، ما زال القصر الكبير يطل على الساحة بطرازه الذي يعود إلى عصر النهضة، القلب القديم للمدينة مدجج بالرموز الدينية الكاثوليكية التي بنيت زمن حكم أسرة الهابسبورج التي سيطرت على النمسا والمجر وسلوفاكيا أيضًا، ربما كان القصد الكامن محو ذكرى وصول الأتراك إلى هذه المنطقة، لقد وصلت جيوش الإمبراطورية العثمانية بالفعل عام 1543 إلى براتسلافا، ولكن ارتدت عن أسوار العاصمة النمسوية فيينا. بعض المؤرخين يعتبرون ذلك بداية انكسار وانحسار الإمبراطورية العثمانية، ربما كان ذلك صحيحًا من الناحية العسكرية، لكن الانكسار الحقيقي بدأ في رأيي عندما تغيرت سياسة الإمبراطورية

إلى الضم والاستعمار عبر البلاد الإسلامية، وليس اتجاهها غربًا، بدأ ذلك بالتحديد عندما قرر سليم الأول الاتجاه بجيوشه إلى الشام وإعلان الحرب ضد السلطنة المملوكية في مصر، ثم بدأت الوقائع بهزيمة الجيش المصري المملوكي في مرج دابق شمال حلب، ثم الزحف إلى القاهرة بعد أن أفتى له العلماء المنافقون بفتاوى عديدة تبرر غزو مصر البلد الإسلامي، أطرفها أن السلطان المملوكي سك نقودًا عليها اسم الجلالة وهذا يعرضها للتداول وملامسة أيدي غير المسلمين لها، من هنا حق إعلان الحرب عليه واحتلال مصر!

تذكرت ذلك مبتسمًا وأنا أتجول في الميدان القديم خلال الصباح الباكر، في المواجهة دكاكين صغيرة تبيع العاديات والفرو، ومطعم حديث، إلي جواره مقهى، اقتربت منه، المقهى مكسو بالخشب، اللون الغالب البني بدرجاته، كل ما فيه يمت إلى البني، المقاعد لها شكل خاص، كذا المناضد البيضاوية، الأرفف تصطف فوقها علب تعرض جميع أنواع الشيكولاتة في العالم، اجتزت الباب، من البرد إلى الدفء، رأيت نافورة شيكولاتة، قاعدة عريضة من المعدن ترتفع منها زهرة ضخمة تعلوها أدوار تصغر شيئًا فشيئًا، تنطلق الشيكولاتة السائلة من ذروة النافورة لتنحدر متجهة إلى أسفل، إلى القاعدة حيث تعاود الدورة من جديد، أجلس إلى المنضدة، واضح أنني الزبون الأول، أتطلع إلى الميدان العتيق، يتأكد يقيني أن هذا مكان فريد لم أعرف له مثيلًا في أي بلد زرته، يخيل إليّ أنني أمسكت بشيء خاص.

21 ذلك الحنين

في العاشرة تمامًا جاء الدكتور خالد البلتاجي ليصحبني إلى جامعة براتسلافا، الدكتور خالد خريج كلية الألسن المصرية التي أسسها الشيخ محمد رفاعة الطهطاوي بداية القرن التاسع عشر، درس بها اللغة السلوفاكية والتشيكية، أمضى عدة سنوات ليعد رسالته العلمية في جامعة براغ، ارتبط بقصة حب مع شابة سلوفاكية انتهت بالزواج، كانا خلال زيارتي يستعدان لاستقبال مولودهما الأول، استقر به الحال في براتسلافا أستاذًا يدرس اللغة العربية. حتى عام اثنين وتسعين كان هناك دولة واحدة تضم القوميتين، السلافية والتشيكية، عاصمة الدولة براغ، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، تقرر الانفصال لكن بهدوء، بدون ضجيج، أصبح هناك جمهوريتان، التشيك وعاصمتها براغ، سلوفاكيا وعاصمتها براتسلافا، خلال المرحلة الشيوعية كان هناك اهتمام بالثقافة العربية والأدب العربي، كانت العلاقات قوية وكان من الطبيعي ذلك الاهتمام، لم يقتصر ذلك على تشيكوسلوفاكيا فقط، إنما كل بلدان المنظومة الاشتراكية، بعد

الانهيار تراجع الاهتمام بالثقافة العربية، ومر المستعربون بمحنة، حتى إن أساتذة كبارًا في معهد الاستشراق بموسكو لم يتسلموا رواتبهم لسنوات مما اضطرهم إلى البحث عن مصادر رزق أخرى، وكان ذلك خسارة للعرب وللثقافة العربية قبل أن يكون خسارة للآخرين، كنت أتمنى أن تهب الجامعة العربية لدعم مراكز ومعاهد الاستشراق المهددة بالإغلاق، لكن غاب هذا عن البلدان العربية والمنظمة التي تجمعها، لحسن الحظ استمر وجود بعض أقسام اللغة العربية في عدد من الجامعات، منها براتسلافا، أمضي إلى مقر الجامعة المطل على نهر الدانوب، يوجد ثلاثة أساتذة كبار، سأقابل كلًّا منهم على حدة، اليوم الأول أتجه للقاء الأستاذ سوربي، إنه أستاذ الأدب العربي بالجامعة، وينفرد بين زملائه بعمله في السلك الدبلوماسي، وكان سفيرًا لبلاده في العراق.

مكتبه مدجج بالمؤلفات العربية، كتب التراث القديم، وروايات الأدباء الكبار المعروفين، دراسات نقدية، إنه في حدود الستين، يبدو أصغر سنًّا من عمره، قدم لي بعض كتبه عن الأدب العربي، أحدها بالإنجليزية، ننتقل إلى مطعم قريب من الجامعة، إيطالي، ديكوراته حديثة جدًّا، ينتظرنا فيه أستاذ آخر مجايل للدكتور سوربي، إنهما نفس العمر تقريبًا، كلاهما تعلم في مصر.

نتحدث عن نجيب محفوظ، كل منهما التقى به في مقهى ريش خلال ندوته الأسبوعية التي كانت تعقد مساء الجمعة، كل منهما درس في القاهرة، أمضى فيها أربع سنوات من عمر الشباب، كان ذلك في مرحلة الستينيات، عندما كانت سياسة الرئيس جمال

عبد الناصر تسهل مجيء العرب والأجانب للدراسة في الجامعة المصرية، كانت المنح المجانية التي تقدم إلى الوافدين أكثر من تلك التي تقدم إلى الطلاب الموفدين من مصر إلى العالم، وكان وراء ذلك سياسة بعيدة المدى، فكل طالب يدرس في بلد ما سيصبح بمثابة سفير لها مدى الحياة، خاصة إذا جاء في زمن التكوين، تمامًا كما يقرأ الإنسان كتابًا يظل البلد الذي طبع فيه الكتاب مرتبطًا بالنص، جزءًا من الذاكرة، استمر هذا الوضع حتى بداية السبعينيات عندما جاء الرئيس السادات وتقررت سياسة جديدة قصيرة النظر كانت تستهدف جمع العملة الصعبة بسرعة بدلًا من التأثير بعيد المدى، وكانت المصاريف المقررة لكل طالب تافهة جدًّا، فقط خمسة آلاف جنيه إسترليني، فكم خسرت مصر وكم تعبت؟

الأستاذ سوربي من ثمار السياسة الأولى، درس في مصر بمنحة مجانية، بدأ كل منهما يسألني عن معالم وسط المدينة، عن مقهى جروبي الأنيق الذي كان يضارع المقاهي الأوربية الشهيرة، قلت إنه موجود وغير موجود، بدت عليهما علامات الدهشة، قلت إن أحد رجال الأعمال المنتمين إلى التيار الديني السياسي اشتراه زمن الانفتاح، وحول شخصيته، أصبح مكانًا عاديًّا لا يحمل من الماضي إلا الاسم.

سألا عن وسط المدينة، قلت إنه ما زال موجودًا، لكن القاهرة اتسعت وأصبح لها أكثر من مركز، لقد أصبحت عدة مدن في مدينة واحدة، في الستينيات كان وسط المدينة مركزًا للبنوك، للمتاجر الكبرى، لشركات السياحة، الآن، أصبح في القاهرة فروع لهذه

المنشآت، في مصر الجديدة، في المهندسين، في المعادي، أما وسط المدينة التقليدي فقد انهار تقريبًا ولم يعد الأرقى، كما أنه صار مزدحمًا جدًّا، يتجنبه الناس لصعوبة الحركة فيه.

بدأت ملامح الأستاذ سوربي تترقرق، قال إنه عاش قصة حب مع زميلة له مصرية، ثم تدارك بسرعة قائلًا:

«قصة حب عذري طبعًا..»

قال إنها فتاة جميلة، رقيقة، كان لابد من الزواج، لكنه لم يكن يقدر على تكاليفه، كان يحتاج إلى ألف جنيه لكي يتم المشروع، وكان راتبه الشهري خمسين جنيهًا فقط، عندما ضحكت ضحكة عالية تطلع إليَّ متسائلًا، قلت له إن الزواج في هذا الزمن كان أيسر، الآن يمكن أن يدفع الإنسان ألفًا من الجنيهات في حساب مطعم متوسط، أما الزواج وبنفس المقاييس فالأمر يعد بمئات الألوف..

أبديا دهشة، قالا إن الأمور تتغير في براتسلافا أيضًا، خاصة بعد الانضمام إلى الاتحاد الأوربي، تحدثنا قليلًا في السياسة، ثم سألني صديق الأستاذ سوربي عن ملحق الأهرام يوم الجمعة، عن الدكتور لويس عوض، وعن الدكتور حسين فوزي، قلت إنهما رحلا، وإن الملحق أيضًا رحل، أمد الله في عمر الأستاذ هيكل، قالا إنهما يحتفظان بمقالاته، ماذا عن مقالاته الآن؟

تطلعت إليهما صامتًا، إلى ملامحهما، إلى ذلك الحنين في نظراتهما إلى زمن عرفاه وتكونا فيه، لكنه مضى!

22 بين الماء والطين

صباح السبت، يوم الإجـازة يذكرني بأيام الجمع في مصر، الشوارع خالية، البيوت ناعسة تشي بحالات قاطنيها، نيام حتى الآن أو خرجوا إلى الريف، عربة المرسيدس الفارهة تقف عند نهاية الشارع، أحمل حقيبة اليد، تحتوي على ما يلزمني لمدة ليلتين فقط، يرافقني السفير زولدش، يتحدث العربية بطلاقة، مثل بلاده في دولة الإمارات وهو مرافقي خلال أيامي السلوفاكية تلك، طبعًا تلك إشارة إلى الأهمية التي يحيطونني بها، ليس لأنني في منصب مهم، لكن باعتباري كاتبًا عربيًّا ومثقفًا وتلك بداية خطوات مماثلة، أدركت هنا أن لديهم هذا الاتجاه؛ تقوية العلاقات الثقافية مع العالم العربي خاصة والشرق عامة، الاتجاه غربًا بمفرده لا يكفي، نعم سيصبحون جزءًا من الاتحاد الأوربي، لكن هذا لا يكفي، الثقافة مدخل أعمق وأبعد مدى للعلاقات، ليتنا ندرك ذلك!

السائق المهيب يتقدم ليفتح الباب، بعد أن استقر كل منا في مكانه، فوجئت بجندي شرطة يتقدم من السيارة، يتحدث إلى

السائق، يدقق في الأرقام، يقول السفير زولدش إنه يتأكد من هوية السيارة ذات الأرقام الدبلوماسية لأن المكان ممنوع على السيارات إلا في الحالات الضرورية فقط، قال إن ذلك جيد، الجندي يقوم بواجبه، هذا يعني أنه متيقظ، في مثل هذه المواقف أستدعي مواقف مشابهة من مجتمعاتنا، إذا جرى ذلك في بلادنا، ستجد أحيانًا من يهب في الجندي متسائلًا باستنكار: ألا تعرف من أنا؟ يحدث هذا في إشارات المرور، وأمام المصالح، وفي الأغلب الأعم يكون الشخص الذي يدعي أنه مهم لا أهمية له، لكن الأمر مرتبط بهيبة السلطة وقوتها وسريان القوانين على الجميع، تواجد الشرطة في الشارع عنوان لهذا كله.

انطلقت السيارة إلى الطريق المؤدي إلى مدينة بشتاني إحدى مناطق العلاج الطبيعي المشهورة في أوربا، حوالي مائة وخمسين كيلو مترًا تتخلل المناطق الزراعية، حقول ممتدة، ولا توجد ارتفاعات حادة، أخيرًا نصل إلى بشتاني، الطبيعة متغيرة، ثمة مرتفعات متوسطة مكسوة بالخضرة، الأشجار فارهة لكنها جرداء، الخريف هنا خريف، والشتاء شتاء، الفوارق بين الفصول واضحة في أوربا كلها، عندنا تتداخل الفصول، يمتد الصيف إلى ديسمبر، وفي ربيعنا تهب عواصف الخماسين، أما الخريف فيرقُّ الجو ويصبح هو الربيع.

منطقة الفنادق والاستشفاء تقع في جزيرة وسط الدانوب، نعبر الجسر الذي يتصدره تمثال كبير من الناحية اليمنى حيث الدخول

لرجل يتوكأ على عكاز، تمثال آخر من الناحية اليسرى، نفس الرجل يمشي على قدميه، يكسر عكازه ويلقي به بعيدًا.

الفنادق ضخمة، فسيحة، تذكرني بالمنتجعات التي شيدت في المعسكر الاشتراكي زمن الانفتاح قبل انهيار الاشتراكية، المكان تم خصخصته وأصبح ملكًا لمستثمر بريطاني يحمل لقب لورد، هنا عيادات طبية تعالج مرضى العظام والروماتويد بالطين المجلوب من النهر والذي يتم إعداده طبيًّا في أماكن خاصة.

عندما دخلت إلى الغرفة الوثيرة الفسيحة نسبيًّا بالقياس إلى الفنادق الكبرى التي أعرفها في أوربا، أدرت مفتاح تشغيل التليفزيون، المحطة العربية الوحيدة، الفضائية الكويتية، عرفت أن عددًا كبيرًا من الإخوة الكويتيين يجيئون للاستشفاء، وأنهم اكتشفوا المكان منذ فترة مبكرة، قال لي مدير الموقع إن الإقامة الكاملة بالعلاج تكلف النزيل مائة يورو يوميًّا، وعندما أبديت ارتياحي لرخص التكاليف، قال إن هذا لن يستمر إلا لمدة سنة، بعد الانضمام التام إلى الاتحاد الأوربي، سوف تسري الأسعار المعمول بها في أوربا، هذا يعني تضاعف التكاليف، قال إنه ينصحني بالبدء الآن، قلت إنني أحمد الله فالعظام سليمة، وإن كان المكان يحوي علاجًا لأمور أخرى عديدة منها تخفيض الوزن، ولكن هذا يحتاج إلى ثلاثة أسابيع على الأقل.

يبدو المكان قصيًّا جدًّا، بعيدًا، هكذا تبدو الأماكن التي تقف على الحافة، أكثر من سبب يدفع بالمنشآت كلها إلى الحافة، يقع الفندق وأماكن العلاج على جزيرة، والجزيرة بين ضفتين، أي بين حافتين، طبيعة المكان مصحة، كل من جاء إليه يسعى إلى العلاج، هكذا يقف بين الصحة والمرض، في الصباح تبدو صالات الفندق

خالية، الأشجار على المرتفعات شاحبة، بعيدة، إنه الشتاء حيث الموجودات كأنها من وراء زجاج، يتخللها الضباب الشفيف، هنا تتخذ حركة البشر سمتًا خاصًا، فالكل يتحرك على مهل، الحياة تصوير بطيء، أما الهدوء فمعتم، لم يكن لدينا برنامج صحي يشغل وقتنا، لا أنا ولا السفير زولدش، لذلك كان هناك الوقت الكافي للجلوس وللتأمل، خاصة الصالة المطلة على الحديقة والمرتفعات المحيطة، التأمل من خلف الزجاج، هواية قديمة منذ أن اعتدت الجلوس في مقاهي وسط المدينة في الستينيات، خاصة المطلة على ميدان التحرير، أجلس وراء الزجاج وأتأمل المطر، هنا في برشتاني، أتأمل الطبيعة والبشر الباحثين عن العلاج، وأستعيد أيامي الغاربة.

في المساء يظهر النزلاء الذين اختفوا نهارًا، يظهرون في المطاعم، في صالات عزف الموسيقى، ينتمون إلى جنسيات مختلفة، وأعمارهم مختلفة أيضًا، اعتدت بعد تناول العشاء أن أصغي إلى عازفين متلازمين دائمًا، من حواري معهما عرفت أنهما من الجنسية المجرية أصلاً، أحدهما عازف الكمان، والآخر عازف على البيانو، توجد أقلية مجرية في سلوفاكيا إلى جانب أقليات أخرى، استمعت إليهما في المطعم، لفت نظري قدرتهما على العزف، لا أحب الاستماع إلى الموسيقيين أثناء تناول الطعام والدردشة، أجد في ذلك نوعًا من إهانة الفن والفنانين، أبديت لهما الود، طلبت الاستماع إلى متتاليات هنغارية لبرامز، وكان ذلك مدخلاً لتفاهم إنساني وعلاقة عابرة تركت عندي أثرًا في هذا المكان النائي الذي يلتمس فيه الإنسان الشفاء من خلال الماء والطين..

23 أماكن قطار الليل

في طريق العودة بصحبة السفير زولدش أغمض عيني للحظات، الآن أصبح لي ذكريات في سلوفاكيا، عندما نصل بلدًا جديدًا لم نبلغه من قبل نتلقى، نتخذ موضع التلقي مهما عمقت تجربتنا من قبل، شيئًا فشيئًا يصبح لنا ماض يخص هذا المكان بالتحديد، هذا الموضع الذي نصله أول مرة، تنشأ ذكريات خاصة به، ثم شيئًا فشيئًا تتراجع اللحظات كلها بعد أن نغادره لتشكل جزءًا من ماضينا الممتد إلى البعيد المنقضي.

في الليلة الأولى لوصولي براتسلافا رافقني صديق تعرفت عليه، مضيت إلى محل لبيع المأكولات، كنت أريد شراء بعض ما اعتدت تناوله في الإفطار، اللبن الزبادي وعسل النحل والشاي، مررنا بكنيسة صغيرة مزدحمة، المذهب الغالب هنا يتبع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، لاحظت أن معظم الحاضرين من الشباب، قال مرافقي إن نسبة البطالة عالية؛ ولذلك يلجأ الشباب إلى الدين، إلى الكنيسة، بعد صمت أضاف قائلًا إن الوضع في مرحلة الاشتراكية

كان أقرب إلى سجن كبير، السفر ممنوع، حرية القول محدودة، لكن كل ما يحتاج إليه الإنسان كان موجودًا.

ذكرت له زيارتي للريف الألماني، نزولي قرية قرب هانوفر؛ حيث الطبيعة الخضراء العميقة الممتدة، خلال عشاء دعاني إليه صديق عزيز التقيت براعي كنيسة المنطقة، كان يرتدي القميص والجينز، قال إنه يتقاضى نصف راتبه فقط لقلة عدد المؤمنين، الكنيسة في ألمانيا تنفق من التبرعات الأهلية، لا تمدها الدولة بأي عون، ولأن المؤمنين يتناقصون فإن الدعم يشحب، علق مرافقي السلوفاكي قائلًا: إن مشاكلهم محلولة.

ربما ليس الأمر بتلك البساطة، لكن المؤكد أن فترة التحول من الاشتراكية إلى الاقتصاد الحر جلبت مشاكل عديدة أهمها البطالة، غير أن المجتمع يتضمن أملًا في المستقبل بقدر ما يحوي من قلق فربما تتحسن الأوضاع بعد الاندماج الكامل في الاتحاد الأوربي.

اكتمل الغروب بينما السيارة تقطع المسافة إلى مدينة ترينشن، أبتسم، أتذكر رنين الهاتف في المطعم أثناء تناولي الغداء أمس مع زولدش، المتحدث صاحب حميم من القاهرة عندما سألني عن المكان، قلت إنني في الخارج، ولأنني اعتدت نطق اسم الكيان القديم منذ الخمسينيات، تشيكوسلوفاكيا؛ أي الكيان الذي يضم القوميتين والذي لم يعد له وجود سياسي منذ عام اثنين وتسعين بعد انهيار الاشتراكية، نطقت بالأسهل، الاسم المحفور في ذاكرتي «تشيكوسلوفاكيا»، عندئذ قال مرافقي السفير زولدش مصححًا:

«سلوفاكيا»

قالها بوضوح حاسم وعتاب أيضًا، ابتسمت مرددًا «سلوفاكيا»، نقترب من المدينة التي وصلت إليها الجيوش العثمانية وارتدت عنها، غير أن قصة حب بين فاطمة المسلمة وشاب سلوفاكي ما تزال تتردد أصداؤها في التراث الشعبي هنا، المدينة صغيرة، قديمة، مؤثرة، تحدث في النفس تأثيرًا مباشرًا، توقفنا أمام فندق وردي الواجهة، هنغاري الطراز، اسمه (تاترا)، شيد عام 1901 تحت المرتفع الصخري الذي تقوم فوقه القلعة، المنظر فريد، الفندق أرستقراطي المظهر تحت والقلعة فوق، حضورها قوي، مهيمن، على السطح المؤدي إليها تتوزع بيوت صغيرة، أنيقة، ومطاعم، أحدها اسمه «فاطمة» ربما إشارة إلى وصول الأتراك هنا، أو إلى قصة الحب المتداولة، أو مجاملة للسياحة العربية المتداولة، بين هذه البيوت منزل لكاتب اشتهر في أوربا برواياته عن التاريخ المصري القديم اسمه مزوروفسكي، سألت عما إذا كان قد زار مصر وسمعت النفي، تلك ظاهرة معروفة في تاريخ الأدب الأجنبي، فالعديد من الذين كتبوا عن العصر الفرعوني عرفوه من الكتب، ولم يروا الآثار المصرية القديمة ولم يدخلوا مصر.

داخل الفندق قاعة من الزجاج الشفاف، تطل على جزء من الصخرة التي تقوم أعلاها القلعة، على الصخرة بضعة سطور محفورة تسجل انتصار الإمبراطور الروماني ماركوس أوريلوس، عام 179 ميلادية، في معركة جرت بالقرب من هنا، القاعة المطلة على السطور مزار مهم، إنه أثر يثبت رومانية المدينة، كما أنه أقدم

ما يمكن أن تراه العين بها، بالطبع بدا ذلك متواضعًا لمن أتى من بلاد اخترعت الكتابة وصاغت من المعابد والمقابر والمدن كتبًا من الحجر، لكن ما احترمتُه الحفاظ على التاريخ، على الآثار، وإحاطتها بهذا الاهتمام وتلك الرعاية مهما كانت ضآلتها، صعدت الطريق المؤدي إلى القلعة رغم ما كبدني ذلك من جهد ومشقة، هناك في أعلى نقطة أشرفت على المدينة التي لا يزيد عدد سكانها على ستين ألفًا، القلعة مشرفة على السهل كله، بيوت المدينة أنيقة، عتيقة، تبدو وكأنها نموذج ضخم لمدينة مهجورة، خالية، غير أن طريقًا للقطار يمتد هناك بأسفل، عند مرور القطارات به تحدث ضجة تبدد ذلك الهدوء المعتم.

قطار طويل قديم من الغرب إلى الشرق؛ لأن الصمت عميق فحركته تحدث ضجة وصخبًا، تتغير ملامحها عندما يجتاز الجسر الممتد فوق النهر، ثم يوغل في الابتعاد، يدخل إلى صميم الليل والغربة، من مكاني أعلى القلعة كنت أتابع القطار الليلي حتى غيابه حيث لا أعرف، أفكر في سفري غدًا صباحًا، وأثق أن ما سيبقى في ذاكرتي من رحلتي إلى سلوفاكيا ذلك القطار وابتعاده، ذلك القطار الذي لا أعرف من أين جاء وإلى أين.

الصين 2008

24

الوجهة التي يقصدها الإنسان تحدد حالته عند السفر، بلاد تثير عندي البهجة والرغبة في الاكتشاف، وأخرى أقصدها لضرورة عملية فلا تحفُّز ولا سرور، إنما أداء واجب. كذلك تحدد المسافات الطاقة المستنفرة، لو أنني متجه إلى بلد أوربي، لن تزيد المسافة المقطوعة على أربع ساعات ونصف، بعد انقضاء ساعة واحدة يبدو ما مرَّ طويلًا وما تبقى أطول، لكن.. عندما تكون الوجهة أقصى الشرق أو الغرب فإن قدرًا مغايرًا من الطاقة والقدرة على الاستعداد يتم استنفاره، الليلة أقصد الصين، ورغم تقدم وسائل السفر التي ألغت البعد المكاني عمليًا، فإن مجرد لفظ اسم الصين يثير إحساسًا بالبعد، بالأقصى، رغم أن المسافة مجرد ساعات، كما أن الصين حاضرة بقوة في عالمنا اليوم ويتزايد دورها وتأثيرها، إنها الرحلة الثانية خلال عامين، رغم ذلك ما زلت في مرحلة استكشاف هذه

الديار، كما أن معرفتي القديمة بالصين تؤثر على رؤيتي، ترتبط الصين بالبعد، إنها الأبعد، المكان الذي كان صعبًا بلوغه حتى وقت قريب، يقول رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو في الصين». وفي رحلته التي استغرقت جُلَّ عمره، احتاج ابن بطوطة سنوات عديدة حتى يبلغها ويخبر عنها، ها أنذا أتأهب للصعود إلى طائرة مصر للطيران. في الرحلات الطويلة أفضل شركتنا الوطنية لما ألقاه من رعاية خاصة، إنني أعرف الآن ملامح العديد، سنتجه شرقًا إذن، معظم رحلاتي غربًا، سنحط أولًا في بانكوك عاصمة تايلاند، بعد حوالي تسع ساعات من الطيران المتصل، ثم نستأنف إلى بكين. نصلها بعد خمس ساعات تقريبًا، الأمر دائمًا نسبي، مرحلة واحدة في الرحلة تساوي المسافة من القاهرة إلى باريس، سنتحرك عكس اتجاه الشمس، عكس النهار؛ لذلك سنفقد ست ساعات، نستردها في العودة، ترى كيف يكون الشروق في الشرق، فوق المحيط؟ أسئلة عديدة تجعل النوم في الطائرة صعبًا، أستقر فوق المقعد، أبدأ العلاقة بالمكان على الفور، الكتب إلى جواري، أوراق بيضاء أمامي، علبة الأدوية إلى جواري، جهاز الاستماع إلى موسيقاي في جيبي الأيمن بعيدًا عن موضع القلب، تُغلق الأبواب، تهدر المحركات، الحركة الأولى فوق الممر في مواجهة الليل والمسافة.

الحادية عشرة ليلا

إقلاع

إقلاع هين لين، يشتهر به الطيارون المصريون، مع بدء الابتعاد عن الأرض يصبح الإنسان مع نفسه أكثر، نصبح بعيدًا عما ألفناه

واعتدناه، عن علاقاتنا التي تركناها هناك حتى وإن شُغلنا بها، عن صِلاتنا بمن نحب، عن مواقفنا وما تتضمنه، تتوافد علينا الملامح والرؤى، أو من يفدون على الخاطر أولئك الذين تجرى دماؤهم في شرايينا، ذوي القربى، ثم الصحاب والرفاق، نستعيد ما كان منا، نقيِّم أفعالنا، ننتقد أنفسنا أحيانًا، أو نأنس إلى صلات حميمة ولحظات عزيزة، نحنُّ، نشجو، نندم على بعض مما فات، على أوقات لم نعشها كما ينبغي، ساعات السفر جوًّا أو برًّا عرضة لتقليب الذات، للمراجعة، للرنوِّ إلى ما سيكون.

الواحدة صباحًا

أسماء

رغم أن الحيز ضيق، مقعد أشغله في أنبوب طائر بسرعة ألف كيلو متر تقريبًا، ما من فرصة للتعلق بالمواضع التي نعبرها وإلا كان الهلاك، السلامة الآن في اجتياز الأماكن والعبور فوقها دون ملامستها أو التعرف عليها، الرؤية من النافذة الضيقة المستديرة لا تمدنا بشيء، خاصة في الليل، إلا أنني أحاول بقدر الإمكان معرفة موضعي في العالم، بالنسبة للمكان الذي انطلقت منه، بالنسبة لما سأبلغه، في الشاشة الصغيرة قنوات عديدة تعرض أفلامًا مختلفة، لكنني أفضل متابعة بيانات الرحلة، سرعة الطائرة، الارتفاع، سرعة الرياح، المسار، خريطة الأرض، طوال الطيران فوق مصر تغمرني الألفة والسكينة، وبمجرد عبور البر إلى البحر سواء كان في الإسكندرية أو البحر الأحمر، يبدأ الشعور بالخروج من الديار،

بالاغتراب، بالخشية، إن الوطن ليس شيئًا مجردًا، الطائرة تتجه إلى عبور الجزيرة العربية، الشعور بالمكان أقل، أستبدل به أشخاصًا عرفتهم، أصدقائي في جدة، في الرياض، في الدمام، في البحرين، أستحضر الملامح، في دبي التي نطير فوقها، بعد ثلاث ساعات يختلف الأمر، أتطلع من النافذة، أنبه زوجتي التي ترافقني في هذه الرحلة، «نحن فوق دبي..» تبتسم، يبدو أن شيئًا طفوليًّا في طريقة نطقي، السبب أن ابنتنا هنا منذ أسبوع، تزور صديقة قديمة لها بعد عام شاق أمضته في جامعة لندن للعلوم السياسية لإعداد الماجستير، نحن في نقطة متحركة، وهي هنا، وربما يقع التعامد بيننا لجزء من الثانية عند المرور فوقها، تجتاز الطائرة الإمارات كلها إلى سلطنة عمان، مرة أخرى أستحضر العديد من الأصدقاء، الوجوه الحميمة، شيئًا فشيئًا نبتعد عن الساحل العربي، أدير ظهري للجزيرة العربية، نعبر بحر العرب إلى كراتشي، إلى الساحل الهندي، المعارف هنا من بعيد، أسماء من التاريخ، من الإعلام، الأماكن قرأت عنها ولم أعاينها، يختلف الأمر، إلى الجنوب يمتد المحيط الهندي، الماء هو الماء، مستواه واحد، لكن تتعدد الأسماء، بحر العرب، خليج البنغال، المحيط الهادي، كلمة محيط توحي باللانهاية، بالبعد، تمامًا مثل كلمة الصين.

الثالثة إلا الربع

كابتن فطيم

ينصحني الدكتور جلال السعيد بالمشي كل ساعة في الرحلات الطويلة، وشرب جرعات قليلة من الماء، قبل الصعود عرفني الأستاذ

صفوت موسى مسئول المحطة الأرضية على الكابتن فطيم قائد الطائرة البوينج الضخمة، في هذه الرحلات يوجد طاقمان يتبادلان المواقع، عندما قمت للحركة وجدته واقفًا في المساحة الضيقة التي تلي الكابينة، رجل دمث، صاحب خبرة طويلة تقاس بآلاف الساعات، سألت عن الفرق بين الطيران فوق الأطلنطي، والطيران في هذه الرحلة إلى الصين، قال إن عبور الأطلنطي يحتاج إلى تكنيك معين، المسارات فوقه محددة، المفترض أن يكون بين المطار والمطار ساعة جوًّا، في الطريق إلى الصين مطارات عديدة، أما الأطلنطي فيكون الطيران فوق الماء لمسافة أربع ساعات على الأقل، لابد من احتياطات معينة لتجاوز هذه المدة، لم أسأله عن هذه الاحتياطات، لكنني استفسرت عما إذا كان يبقى على صلة بنقاط المراقبة الأرضية، قال إنه يظل على صلة طوال الوقت، لاحظت أن بعض أفراد الطاقم استبدلوا بالملابس الرسمية ملابس النوم، لهم مكان خلف الكابينة، وثمة مكان آخر تحت مقصورة الركاب معد لطاقم الضيافة، لابد أن يتمتع العاملون بجهاز عصبي قادر على التكيف، يمكنهم من النوم بسرعة والإفاقة بسرعة أيضًا، سألت الكابتن فطيم عن الشروق، تطلع إلى ساعته، قال إنه سيكون بعد حوالي ربع ساعة من الآن فوق باكستان، أشار إلى نافذة مجاورة للباب الذي صعدنا منه، قال إنه يمكنني الرؤية من هنا، بالطبع لم أسأله عن إمكانية الرؤية من داخل كابينة القيادة، فالتعليمات تقضي بعدم دخول أي غريب مهما كان، والآن ألاحظ عزلة مكان القيادة تمامًا عن بقية الطائرة، الأسباب معروفة طبعًا..

الثالثة فجرًا
الشروق

ألصق وجهي بالنافذة المحدودة متطلعًا إلى الفضاء المكسو بالليل، الآن الثالثة طبقًا لتوقيت القاهرة الذي لا أغيره أبدًا مهما ابتعدت غربًا أو شرقًا، أعرف الفروق وأضيف أو أجمع بعقلي، لا أبدل عقارب الساعة، العتمة عميقة، يبدو أن الغمام كثيف، لا ملمح أرضي، لا أضواء بعيدة، أنتظر، فجأة يبدو عند الأفق الدائري حد نحيل جدًّا من لهب غير مألوف، أحمر، برتقالي، يتداخل معه لون أزرق كوني، حد مرهف، دقيق، رقيق، كأنه شفرة سيف تقطع العتمة، أو بداية فتق هائل لا يمكن تحديد أوله من آخره، يتزايد الفتق، تتسع مساحة اللون، تتضح الحدود بين ما هو تحت وما هو فوق، تحت بحر من قتامة الغيوم، سوداء، فوق يبدأ من الأفق الدائري، تتضح ملامح السماء،تندفع الطائرة نحو النهار، الأمر نسبي أيضًا، فلو أنني أقف فوق الأرض سيطول انتظاري لاكتمال الشروق، لكن اندفاع الطائرة يظهره بسرعة، ها هو الانبلاج الأتم، الأفق أفق والسماء سماء والأرض أرض، كل هذه ليست إلا أعراضًا للأصل البعيد، القصي، الذي لا تدركه الأبصار ولا الحواس، من أي نبع هذه الأحوال، هذه الألوان، الأزرق الغميق والأحمر اللعلاع وما بينهما الأصفر الحائر!

أخيرًا، تلمسني الشمس، أشعتها تنفذ إليَّ عبر النافذة، واضحة كالصراحة، ناصعة كالأبيض، أتنفس بعمق، أحمد الله كثيرًا أن هذا الشروق يطلع عليّ، أنني موجود، لست موجودًا فقط، لكنني أطير، لا أطير فقط، إنما أتجه عكس النهار، رغم أنه يطويني ويلفني،

لكنني بالحركة أمضي إلى حيث كان الليل، إنه أقصر نهار عرفته في مساري، شروق سريع لا يمكث كأنه عمر الزهور، وهل مكث أي شروق؟ وهل دام أي غروب؟ إنما نشوتي تلك في الأعالي؛ لأنني ما زلت أدركه وما زال يدركني.

صباحًا: الاثنين
حيدر أباد

نعبر الهند بالعرض، أقرأ على الخريطة اسم «حيدر أباد»، لم أكن أعرف أنها في أقصى شرق الهند هكذا، هذه المرة لا أستدعي ملامح أعرفها، أو أماكن مشيت فيها، إنما عناوين كتب، منذ سنوات أقتني كتبًا طبعت في حيدر أباد باللغة العربية، توجد دار نشر لا أعرف من أسسها، اسمها دائرة المعارف العثمانية، لقد قدمت نصوصًا نادرة من التراث العربي، الإسلامي، بعضها لم يطبع في مواطنه حتى الآن، مثل كتاب عن غزوة القبارصة لمدينة الإسكندرية وضعه شاهد عيان من أهلها كان يعمل ترزيًّا ويهوى الكتابة، هذا النص حققه الدكتور عزيز سوريال عطية وطبع هنا في حيدر أباد، كذلك رسائل ابن عربي، وغيرهما، لكن اسم المدينة أثار خيالي، وها أنذا أطير فوقها، متجهًا إلى بانكوك التي تقع على الضفة الأخرى من خليج البنجاب.

الحادية عشرة، صباح الاثنين
ألوان آسيا

رغم أنني أتطلع بعيني طائر يحلق على ارتفاع شاهق، إلا أنني أرى ألوانًا مختلفة عن تلك التي أراها في وطننا العربي، أو أوربا،

خلجان وحقول ممتدة، ألوان خاصة جدًّا، حتى لون الغمام ودرجة الضوء، عناصر شتى تؤكد لي آسيوية ما أراه، أدخل إذن إلى صميم آسيا.

نهبط إلى مطار بانكوك بعد تسع ساعات تقريبًا من الطيران المتصل، الساعة الآن في القاهرة الثامنة، هنا الواحدة ظهرًا، خمس ساعات فارق التوقيت، ألمح لافتة ضخمة «يعيش جلالة الملك»، صورة رجل يرتدي لباسًا أوربيًّا ونظارة، متقدم في العمر، أسأل أحد مضيفي الطائرة عما إذا كانت اللافتة حقيقية أم أنها مثل لافتات العالم الثالث، يقول إنها تعبر عن مشاعر حقيقية، فهذا الرجل أسهم في نهضة بلاده التي كان يضرب بها المثل في الفقر، إنها تشهد نهضة كبرى الآن.

ساعة مكثناها في المطار الحديث، يتم تزويد الطائرة بالوقود، طبقًا لقوانين الطيران، يجب علينا نحن المستمرين في الرحلة الجلوس بدون ربط الأحزمة والانتظار، تغلق الأبواب، تبدأ الحركة نحو الممر، إقلاع مرة أخرى صوب الوجهة الأساسية، صوب الصين.

الاثنين/ بعد الظهر
إلى بكين

ما بين محطة التوقف في بانكوك والعاصمة بكين أربع ساعات ونصف من الطيران، أي ما يعادل المسافة بين القاهرة وباريس، نتجه من الجنوب إلى الشمال، أمر فوق فيتنام، أقرأ أسماء مواقع علقت في

الذاكرة منذ زمن الحرب، دانانج، هانوي التي كانت تقصف بأثقل أنواع الطائرات، ال:ب 52 والتي ربما كانت تسلك نفس الممرات التي نطير عبرها الآن، أما سايجون عاصمة فيتنام الجنوبية وقتئذ فأصبح اسمها (هوشي منه)، الزعيم الأسطوري، الذي قاد بلاده الفقيرة في حرب انتهت بفرار الولايات المتحدة في هزيمة ساحقة، ترى.. كيف ينظرون إليه الآن؟ قرأت تقارير مختلفة عن ارتفاع عدد السياح الأمريكيين إلى فيتنام، عن ظهور الرموز العولمية، عن متاجر الوجبات السريعة، والماركات الشهيرة، تجري الحروب ويفقد الملايين حيواتهم وينتهي الأمر بتحول ميادين المعارك إلى ساحات ومزارات للسياح الفضوليين، فما أغرب وأعجب الإنسان!

نصل إلى مطار بكين في السادسة والنصف مساء، أي الثانية عشرة والنصف ظهرًا بالتوقيت المصري، المطارات هي بوابات المدن الآن، في الماضي كان الرحالة الذي يتنقل على قدميه أو راكبًا دابته يصل إلى بوابة المدينة فينتظر حتى الصباح ليمر بعد فتحها، كانت بوابات المدن تغلق بعد الغروب، لابد أن ابن بطوطة واجه هذا الموقف كثيرًا؛ فعندما وصل إلى حدود الصين يذكر أن رجال الحدود كان لديهم قدرات عالية للرسم، يقومون برسم المسافر الغريب، ويحتفظون بملامحه لديهم، كان ذلك عملًا متقدمًا في العصور الوسطى، الآن كل مطار يعد بوابة للمدينة، للبلد، مطار بكين مبهر بضخامته، بنظافته، بحداثته، المسافة من باب الطائرة إلى مكاتب الجوازات تستغرق حوالي عشر دقائق مشيًا، المبنى ينتمي إلى ما بعد الحداثة، أقارنه بمطار شنغهاي الذي نزلته منذ

عامين، مطار بكين أصغر حجمًا، لم تعد العواصم هي المدن الأهم، بل إن بعض أسماء المدن الصينية تتردد الآن باعتبارها الأغنى والأحدث، مثل مدينة تشينجن التي بدأ منها التحديث والانفتاح في الجنوب، منافذ الجوازات عديدة، معظمها مخصص للصينيين بعد تزايد سفرهم ورفع كافة القيود التي كانت في الماضي، منافذ أخرى مخصصة لأهالي المستعمرات الصينية، ماكاو التي كانت تحتلها البرتغال (كثيرًا ما أسأل نفسي بسذاجة، ماذا أتى بهؤلاء القوم إلى آخر الدنيا؟) ثم أهالي الصين الوطنية (فورموزا)، ومواطنو هونج كونج التي عادت إلى الصين بعد انتهاء الاستعمار البريطاني واحتفاظها بالنظم الخاصة بها، الملاحظ أن الحدية لم تعد من سمات السياسة الصينية، زالت الحدة عن مشكلة فورموزا، أيضًا لم تعد هناك مواجهة أيديولوجية بين نظامين متناقضين إلى حد الصدام كما كان الأمر عليه في الماضي، كل ما لم تحصل عليه الصين بالصدام والعنف تصل إليه الآن بالحكمة والتعقل والسياسة الهادئة، عندما بدأ التغير في توجهات الصين، قال دنج هسياو بنج الذي يعتبر مهندس الصين الحديثة: لا يهم لون القط، أسود أو أبيض، المهم أن يأكل الفأر!. مقولة دالة، تشبه مقولات حكماء الصين القدامى، فيها براجماتية؟ نعم، فيها منطق: الغاية تبرر الوسيلة؛ نعم، المهم تقدم الصين وقد تقدمت بالفعل، المطار مدخل لمن لا يعرف، كل بضائع الدنيا يمكن رؤيتها على أسقف السوق الحرة، وفي أسواق البلد، كان جورب النايلون ولبان الأطفال الغربي حلمًا في يوم ما للنساء

في الدول الشيوعية، الآن كل شيء متاح لمن بيده المال، على أية حال تلك تأملات سابقة لأوانها، ما زلنا في المطار.

لا زحام، وصلت بسرعة إلى ضابطة الجوازات، قدمت جوازين، جوازي والآخر يخص زوجتي، مازلت أتصرف كصعيدي، فأوراقها معي وعند المشي أتقدم وعيني عليها حتى وإن كنت في الأمام.

تبدأ الضابطة الحسناء إجراءاتها، عند لحظة معينة تتطلع إلى ملامحي، أسمع خبطة الختم بالجواز، لم يستغرق الأمر إلا دقيقة، لم توجه إليّ أي سؤال، أمام النافذة آلة صغيرة عليها أربعة أزرار لإبداء الرأي في المعاملة، حسن جدًّا، حسن، سيئ جدًّا، سيئ، بصراحة ضغطت الزر، حسن جدًّا، وخرجت إلى الصالة التي ننتظر فيها الحقائب، أقصد خرجت أو دخلت إلى الصين.

الاثنين/ الساعة السابعة

في انتظارنا الأستاذة (دينا) وأستاذ آخر، كلاهما متخصص في الأدب العربي، كل مستعرب هنا يتخذ اسمًا عربيًّا يتعامل به مع أبناء الثقافة التي يدرسها، دينا شابة تقترب من الثلاثين، حاصلة على الدكتوراه في أدبي، وقامت بترجمة روايتي «وقائع حارة الزعفراني» والتي تصدر أيضًا مع روايتي «هاتف المغيب»، هذا هو السبب في توجيه الدعوة إليّ، في الرحلات البعيدة أحرص على مرافقة زوجتي، أوربا بالنسبة لنا قريبة، مثل هذه البلاد قد لا يتاح لها رؤيتها وما دام ذلك في الإمكانية والظروف المادية تسمح والحمد لله، فلا شيء يعادل الرفقة الطيبة، الموحية، لحظات اللقاء بالمدن

تشبه البشر، الانطباع الأول مهم، في الموقف عربة سوداء فاخرة من طراز أمريكي شهير، تتبع الأكاديمية، حرصت دينا على أن تشرح لنا كل ما نمر به، أعرفها جيدًا من خلال الرسائل المتبادلة عبر حوالي عام، عبر شبكة الاتصالات (الإنترنت)، تعرفت على دقتها الشديدة وحرصها على إنجاح الزيارة، فالأدباء العرب من النادر أن يزوروا الصين، واتحادات الكتاب وأيضًا وزارات الثقافة العربية ترسل وجوهًا غير معروفة، عندما يكون للكاتب مؤلفات مترجمة يصبح التفاهم أعمق، شنغهاي تبدو منذ اللحظة الأولى مدينة عملاقة، مستطيلة إلى أعلى مثل نيويورك، إحدى أهم سمات المدن المعولمة الأبراج، هناك تنافس على إقامة الأبراج الأشد ارتفاعًا، المرجعية نيويورك بالطبع، عاصمة الرأسمالية العالمية، بكين تبدو مختلفة، لا تستطيل إلى أعلى، مبانيها عادية الارتفاع، لكن يتجسد فيها أحدث وسائل العمارة، ما بعد الحداثة، الزجاج والمعدن، تبدو المدينة وكأنها بنيت كلها في وقت واحد مثل مدن الخليج، بل هكذا تبدو الصين كلها باستثناء المواقع الأثرية، مررنا بمحطة القطار سوفيتية المعمار، فوقها ثلاث كلمات بالصينية، حمراء اللون، قالت دينا إن هذا خط الرئيس ماو، كتب اسم المحطة على الورق وتم تكبيره، عندي أسئلة كثيرة عن ماو وعن النظام الشيوعي وما يجري، لكننا مازلنا في البداية، والوقت ليس مناسبًا، الفندق حديث جدًّا، مريح، قريب من مبنى الأكاديمية ومن الميدان السماوي الشهير، بعد الاستقرار المؤقت قالت دينا إنها ستصحبنا إلى مطعم إسلامي للعشاء، سألتها عما إذا كان المطعم حديثًا، قالت: إنه كذلك، لكن المطاعم

الإسلامية موجودة منذ تأسيس الدولة، لم يمنع النظام الشيوعي المسلمين الذين حاربوا مع ماو من بناء المساجد وإقامة شعائرهم، تبدو المساجد متأثرة بالعمارة الصينية، لكن اللون الأخضر غالب، على مدخل المطعم كتب باللغة العربية: «مطعم إسلامي»، في بكين عدد كبير منها، وتلك تقدم الطعام الصيني الشهير لكن بدون لحم الخنزير، أما الخمور فمتاحة لمن يرغب!

الثلاثاء/ صباحًا

خرجت بصحبة زوجتي إلى الشارع، ستأتي الدكتورة دينا التي سترافقنا طوال أيامنا هنا وتشرف على كل شيء في العاشرة، الآن، الثامنة والنصف، بعد تناولنا الإفطار في المطعم الفسيح الذي يقع في الطابق الخامس آثرنا الخروج لاستكشاف المنطقة المحيطة،في المطعم رحت أتأمل الزبائن، النزلاء، معظمهم أجانب، واضح من السرعة التي يتناول بها البعض إفطارهم أنهم رجال أعمال في مهام محددة، البعض ملامحهم صينية، يتصرفون بالطريقة نفسها، على عكس آخرين ملامحهم أوربية، يتحركون على مهل، ويمسك بعضهم بآلات تصوير، إنهم سياح، حركة السياحة خاصة من الغرب مرتفعة جدًّا، معظمهم من الولايات المتحدة، في الصين الكثير مما يثير الفضول، الإفطار ينقسم إلى صنفين، الأول نعرفه، فطائر، بيض مقلي، أنواع مختلفة من الكورن فلكس، فواكه طبيعية وأخرى مجففة، هذا مما تفضله ماجدة، تتعامل بحذر مع كل صنف غريب،

بعكس ما أفضله في أسفاري، أن أقدم على تناول طعام القوم مهما اختلف عما عرفته، أعرف الطعام الصيني منذ سنوات طويلة، في الستينيات كان مطعمان وسط المدينة، أحدهما قريب من شارع عماد الدين، والآخر في عمارة أبو رجيلة المطلة على شارع سليمان باشا، عرفت الثاني ولم أدخل الأول الذي لا تزال واجهته الغامضة معلقة في ذاكرتي، ثم تناولته كثيرًا في أوربا والولايات المتحدة، لكن في الصين الأمر يختلف، حيث أنـواع شتى لا نجدها في الخارج، مطبخ شديد الثراء والتنوع يحتاج إلى خبرة الزميل العزيز عباس الطرابيلي صاحب القدرة على التذوق والتأمل، وله كتاب جميل يتضمن أسفاره بين أطباق الطعام، إذ كتب رحلاته من خلال الأكل، ولو أنه جاء إلى الصين فسوف يحتاج إلى مجلد ضخم لطيف فيه طعام شنغهاي ومعظمه من البحر، وطعام كانتون الثري بتوابله، وطعام سيشوان الحار، الحراق، أما طعام بكين فأبرز ما فيه البط الشهير، أما فول الصويا فيعدون منه كل شيء، ما يشبه اللحم أو السمك أو الحلويات، واللبن أيضًا، كنت أضع أصنافًا غريبة من الحشائش وأعشاب البحر في الطبق، ولم تخف ماجدة جزعها مما آكله، كانت قد قرأت في كتاب ما، أن أهل الصين يأكلون كافة ما يطير في الهواء عدا الطائرات، ما يوجد في البحر عدا السفن، وما يدب على الأرض أو داخلها، وقد ذكر ابن بطوطة ذلك، إن فضولي له حدود، فلا يمكن أن أقدم على أكل لحوم الكلاب أو احتساء الشوربة المعدة منها، وهذا منتشر في كوريا، جنوبية وشمالية.

الثامنة والنصف
إنها بكين

نخرج من الفندق، ثمة شيء في الضوء، في الهواء، في السماء، طبعًا في ملامح الوجوه، يقول إننا في مدينة مختلفة، ولأنني أعرف اسمها، فهي بالتحديد بكين، لكن ثمة حضورين يستثيرهما الاسم، بكين التي عرفتها عن بعد عاصمة للصين الشيوعية، التي أعجبت بكفاح شعبها منذ أن قرأت كتاب أستاذنا محمد عودة «الصين الشعبية» في بداية الستينيات، أعجبت بنضال الشعب ضد الاحتلال الأجنبي من اليابان وبريطانيا وفرنسا والبرتغال وإنجلترة، بالمسيرة الطويلة الأسطورية التي قادها ماو، وعندما وقع الانقسام العقائدي بين دول المعسكر الاشتراكي، كنت أقرب إلى وجهة نظر ماو، كنت أعرف أسماء المواقع التاريخية، والأدب الصيني المترجم، وفيما بعد قرأت بإعجاب مصادر الفكر الصيني القديم، خاصة كتاب «التاو» الذي قُدر لي أن أقف وراء الترجمة الوحيدة له من اللغة الصينية إلى العربية مباشرة والتي شجعت الدكتور محسن فرجاني على إنجازها ونشرها في جريدة (أخبار الأدب) إلى جانب الكتب المقدسة الأخرى في الفكر الصيني القديم، ثم كان اكتشافي للموسيقى الصينية التقليدية حدثًا هامًّا بالنسبة لي، إنها موسيقى نابعة من أصوات الطبيعة، وتعبر عن حالة انسجام مدهش بين الإنسان والكون ومصيره، كذلك الرسم الصيني التقليدي، كان ذلك يؤكد حرصي على تحقيق الخصوصية فيما أكتبه، وهذا هدف عملت على

تحقيقه، فلكل ثقافة خصوصيتها، وهذا يثري الثقافة الإنسانية، ثراء الثقافة في تنوعها وليس في سيادة ثقافة واحدة، بكين في ذاكرتي هي الاستعراضات الكبرى، والأعلام الحمراء، وطلة ماو في الميدان السماوي، كذلك أحداث الثورة الثقافية الغامضة، المأساوية، أما بكين التي نزلتها ليلة أمس فتبدو مغايرة تمامًا، كل المباني حديثة فكأنها بنيت في وقت واحد مثل المدن الحديثة في الخليج، صحيح أن الارتفاعات أقل من شنغهاي التي ترتفع فيها الأبراج الشاهقة، ولولا الحروف الصينية المكتوبة على الواجهات لبدت أقرب إلى نيويورك، إلى مدن ناطحات السحاب الكبرى، بجوار الفندق سوق مركزي ضخم (مول)، بعض المباني تنتمي إلى عمارة ما بعد الحداثة حيث يتعانق الزجاج والألومنيوم، المطاعم عديدة، متنوعة، العمال منهمكون في تنظيف البلاط وحافات الأرصفة، وأيضًا واجهات المباني وزجاج المتاجر التي لم تفتح أبوابها بعد، نصل إلى شارع السلام، مساء أمس عبرناه إلى المطعم الإسلامي، إنه يؤدي إلى الميدان السماوي، أكبر وأشهر ميدان في العالم، الشارع عريض ممتد، على جانبيه المباني الحديثة، يمكن قراءة اللافتات التي تعلن عن الأنواع الشهيرة، إن (اللوجو) يلعب دورًا كبيرًا في مفهوم العولمة، بيوت الأزياء الشهيرة، أنواع العطور، المصنوعات الجلدية، أقلام الحبر، الأجهزة الإلكترونية، سلاسل المطاعم والمقاهي الشهيرة، يبدو اللوجو ضروريًا للتأكيد على أن البلد الذي يرتفع فيه يسلك الطريق السليم في إطار منظومة العولمة الحديثة، إن وجود هذه الماركات الشهيرة يعني وجود قادرين على شرائها،

في الصين أسواق تخصصت في صناعة أشهر الماركات وبيعها بثمن بخس، وحدثني بعض من أثق بهم عن أزمة بين منظمة التجارة العالمية والحكومة الصينية التي تعهدت بإغلاق المصانع التي تنتج المصنوعات المقلدة تقليدًا متقنًا، إنها تؤدي إلى ضرب مشروعية اللوجو، في سيرنا الصباحي هذا الاستكشافي أحرص على ألا أبتعد كثيرًا، الشوارع فسيحة، مستقيمة، وصلنا إلى الرصيف المواجه لمحطة بكين التي مررنا أمامها أمس، لم ألمح أي صورة لماو، ولا قادة الحزب الشيوعي التاريخيين، ولم ألمح أي صورة لرئيس الصين الحالي، أو قادتها، تبدو المدينة بحداثتها وضخامتها ولافتاتها أكثر حداثة من أي مدينة غربية، فقط بعض الملامح الخاصة مثل أسراب الدراجات التي تمشي في طرق مخصصة لها، وكذلك أعداد قليلة من دراجات أعدت لتنقل راكبًا واحدًا مثل عربات الركشا الهندية، لمحت مبنى الأكاديمية التي ننزل في ضيافتها، مبنى شبه رسمي، به تأثيرات من العمارة السوفيتية الستالينية؛ حيث تتشابه مساحات الواجهات وتمتد لمسافة، مثل هذا المبنى قليل في العاصمة التي تستعد لاستقبال الدورة الأوليمبية العام القادم ولهذا حديث يطول.

التاسعة

الأبواب الإلكترونية

مازال في الوقت متسع؛ لهذا دخلنا إلى السوق المركزي الضخم (مول)، عمليات النظافة على قدم وساق، الأبواب مغلقة،

جميع أنواع البضائع التي يمكن تخيلها من كافة أنحاء العالم، أشهر العلامات، المعروضات في هذه الأسواق حقيقية، غير مزورة، عند تمام العاشرة، العاشرة تمامًا، بدأت الستائر المعدنية التي تفصل بين الأقسام والتي تغطي الواجهات ترتفع تلقائيًا وكأننا في مسرح شديد الانضباط، الستائر ترتفع في الموعد المحدد ليبدأ العرض، الكل في لحظة واحدة ينتظرون الزبائن، ملمح هام من ملامح ما يجري في الصين منذ بداية الانفتاح، والذي يحقق معادلة وعرة، انفتاح على أحدث ما وصلت إليه النظم الرأسمالية لكن بانضباط شيوعي صارم، تلك هي المعجزة إذا جاز تسميتها بذلك!

من شروط الحكمة الصينية

أن تدري أنك لا تدري: ذلك منتهى الحكمة، إن خطيئة من يرتكب الغلط هي ظنه أنه يدري وهو لا يدري.

من الحكمة الإسلامية

كلمة لا أدري نصف العلم.

الثلاثاء

نتجه إلى الميدان السماوي، تقول دينا إنه مغلق على السيارات بسبب انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي، آلاف القيادات جاءوا من مختلف أنحاء الصين، رأيت لقطات من الاجتماعات في التليفزيون،

يختلف مظهر الاجتماعات الآن عن الماضي، في مرحلة ماو كان الجميع يرتدون الحلة الموحدة الشهيرة، الآن قادة الصين يرتدون الملابس العادية، بل إن مظهرهم وحركاتهم تبدو عادية، تخلو من الإشارات الدقيقة، والتي في معظمها ترد على الجماهير المحتشدة المتشابهة التي تنظر إلى جهة واحدة، إلى نقطة واحدة، إلى زعيم واحد، في برلين الموحشة كنت أمشي في الشارع الرئيسي العريض الذي بدا لي خاليًا، باردًا، تسلكه السيارات بسرعة غير أنني كنت أستعيد بالخيال استعراضات الجيش النازي وشبيبة العاصفة، انتظامهم، التفاتهم إلى نقطة واحدة، إلى رجل واحد، إلى الفوهرر، هل من تشابه؟ منذ سنوات كنت أرفض المقارنة، فما أوسع المسافة التي تفصل بين ماو القائد الشيوعي الذي قاد شعبه من أجل التحرير والعدالة، والقائد النازي العنصري هتلر الذي قاد شعبه إلى مصيبة كبرى! والذي كان عماد فكر نظامه العنصرية وإبادة الجنس المخالف، الآن في طريقي إلى الميدان السماوي وعلى الجانبين جميع رموز الرأسمالية الحديثة والتجارة العالمية، أجد المقارنة واردة، إنني مؤمن بالمراجعة، أن يعيد الإنسان النظر في مواقفه، في معتقداته السياسية والفكرية، شرط ألا تكون المراجعة بسبب السعي للحصول على مكاسب مادية، إن تغيير بعض المثقفين لمواقفهم ورشاقة انتقالهم من مواقعَ فكريةٍ إلى أخرى يجعلني أشد ضررًا، لكنني من ناحية أخرى أشعر أن ما تبقى لنا محدود، الوقت المتاح قليل، ويجب أن نشهد شهادة صادقة قبل الرحيل، أخشى الآن يقيني من أن كل ما اعتقدته وآمنت به ليس إلا قبض ريح!!

الثلاثاء

عصرًا

ها نحن نقترب من الميدان السماوي، تتوزع حوله مؤسسات الدولة، الزحام الشديد، المؤتمر العام للحزب الشيوعي الحاكم يعقد هنا في مقر نواب الشعب، يمكنني أنا غير الخبير بالصين وقومياتها أن ألمح أولئك الذين جاءوا من أماكنَ بعيدةٍ عن بكين، من طريقة النظر، التطلع، المشي في مجموعات، إنهم ضيوف على العاصمة، الميدان فسيح، لعله الأكبر فيما شاهدت، أوسع من الساحة الحمراء بموسكو، ومن ميدان الكونكورد الذي تتوسطه المسلة المصرية في باريس، على الميدان يطل مدخل المدينة المقدسة،مقر الإمبراطور الصيني، النظام الذي ظل يحكم هذه البلاد مترامية الأطراف لأكثر من ألف سنة، انتهى في عام عشرة من القرن الماضي، مقر الحزب الشيوعي في مواجهة المقر الإمبراطوري، مراكز الحكم واحدة وإن اختلفت طبيعتها، بل إن الشرفة التي كان يطل منها ماو على جنده وحرسه الأحمر وجماهيره تقع أعلى المدخل الرئيسي للمدينة المقدسة حيث قصور الإمبراطور ومؤسسات حكمه، تتدلى صورة ضخمة بالألوان للزعيم ماو، التعبير على وجهه حيرني، غامض، هل هو صارم؟ هل هو حانق كظيم لتبدل الأحوال، وقيام النقيض لكل ما حارب من أجله وقاد الجماهير لتحقيقه؟ لا أدري، ولكنني علمت أنها الصورة الوحيدة لماو في الصين كلها، عندما زرت شنغهاي منذ عامين، أثناء صعودي السلم المتحرك داخل المكتبة الضخمة التي توازي في حجمها مجمع التحرير، سألت مرافقتي الأستاذة في

الجامعة عن صور ماو، أين هي؟ أشارت إلى صدرها، قالت بغموض صيني: إنها في قلوبنا، عندئذ ابتسمت، لم أنطق الإجابة، لا فائدة من المجادلة، الصور لا توجد، في هذه المرة تحدثت مطولًا إلى عدد من الأدباء وأساتذة الجامعة ومواطنين عاديين، ماو الذي كان معبود الجماهير شخصية مختلف حولها الآن، البعض يحن إلى أيامه لأن المستوى كان متقاربًا، ولكن الجزء الأكبر يرى فيه قسوة وأنه كان عظيمًا، لكن أخطاءه كانت أعظم، خاصة الثورة الثقافية التي راح ضحيتها عشرات الألوف وتركت ذكريات داكنة، يتحدثون بعاطفة محبة عن شو اين لاي، عن قادة آخرين زاملوا ماو، لكن الرجل الذي يتحدثون عنه بإعجاب، دنج هسياوبنج، إنه مهندس الصين الحديثة ومؤسس هذا التحول الذي جرى، هو صاحب الجملة الشهيرة: ليس مهمًّا لون القط أسود أو أبيض، المهم أن يأكل القط الفأر، وهو القائل أيضًا: لنصل إلى الضفة الأخرى من النهر بتحسس الأحجار تحت الماء، كانت الخطوة الأولى في مؤتمر الحزب عام ثمانية وسبعين الذي أسس للتحول هي النزول بسن المراتب العليا من القيادة إلى سن الخمسين، وألا يستمر المسئولون في مواقعهم إلا مدتين فقط أيًّا كانت مهاراتهم أو قدراتهم، كان ذلك بداية انطلاق الصين، الانطلاق الحذر المنضبط الذي وصل بها إلى معدلات تنمية تتجاوز العشرين في المائة، وعكس كل دول العالم تجري محاولة تهبيط معدلات النمو، إحدى القرى الصينية أصبحت مركزًا صناعيًّا هامًّا للإنتاج، دخلها السنوي الآن أربعون مليار دولار! تأمل ما يجري في الصين مهم جدًّا بالنسبة لنا، ويثير

الأمل ولكن بشروط! فلأتأهب لدخول المدينة المقدسة، إنني من أولئك الذين يتطلعون إلى الماضي أكثر.

الثلاثاء

المدينة المقدسة

للمعمار الصيني خصوصية نابعة من ثقافة الصين العريقة، عندما نرى بناءً هنا خاصة من العصور القديمة نجده مختلفًا عن كل ما عرفناه، خاصة قمة المبنى التي تكون غالبًا من الخشب والألوان التي يغلب عليها الأخضر والأحمر، وتُشَادُ على هيئة بناء مثلث، بعض المباني الحديثة جدًّا في بكين يوضع فوقها السقف الصيني بزخارفه، في محاولة أيضًا من البعض لإبراز نوع من الخصوصية المعمارية، المدينة المقدسة شاسعة، تقوم على مساحة 720 ألف متر مربع، وتحتوي على ثمانية آلاف وسبعمائة غرفة وقاعة، بالطبع زيارتها واستعراضها يحتاج إلى شهر كامل وربما أكثر، أمضيت يومًا كاملًا أتأمل معمارها وفلسفته، أيقنت بوجود تشابه بين العمارة المصرية القديمة والصينية، فكلتاهما تنطلق من مبدأ القداسة، والرمزية التي تعد الصلة بالكون أهم عناصرها، كذلك فكرة التدرج، للمدينة سور، وكلها محرمة على المواطنين العاديين، إنها مقر حكم الإمبراطور وأجهزة دولته، يتخلل السور أبواب ضخمة، أهمها الباب السماوي الذي منح الميدان الكبير اسمه، كل باب يتجه إلى وجهة أصلية، جنوب، شمال، شرق، غرب، المحاور الأساسية للوجود، الصلة بالسماء أساسية في العمارة المصرية القديمة، باب

المعبد أو المقبرة يجب أن يتجه إلى الشمال حيث النجم سوتيس، أو كما يعرفه العرب بالشعرى اليمانية، كان ظهوره مرتبطًا ببدء فيضان النيل، مدخل المدينة المقدسة يؤدي إلى ساحة فسيحة على جانبيها مكاتب الإدارة الإمبراطورية، ثم يبدأ باب آخر يؤدي إلى مرحلة أخرى أدق خصوصية، وهكذا تتوالى الأبواب، كل منطقة إلى الداخل تصبح أكثر تحريمًا حتى الوصول إلى مقر الإمبراطور وغرف إقامته ونومه وحريمه، وفي نهاية المدينة المقدسة برج يوضع فيه المغضوب عليهم من علية القوم، السجناء الأمراء والنبلاء وكبار الموظفين، الباب الأول اسمه الصباح حيث الاستقبالات الرسمية، الباب الثاني للظهر وتتم عمليات شنق المعارضين أمامه، كل طقوس الحكم من تبجيل واحترام ومراسيم وشنق وحبس داخل أسوار المدينة المقدسة، الباب الثالث اسمه باب العقل، على قمة الأسوار نرى التنين الحيوان الخرافي وأولاده التسعة من الحيوانات، اللون الأصفر خاص بالإمبراطور فقط، ومن هنا جاءت تسمية الجنس الأصفر مع أن الصينيين لونهم أسمر في العموم، أقرب إلينا، كل عناصر الطبيعة ماثلة هنا، وعناصرها في المعتقد الصيني خمسة وليست أربعة كما هو الحال في الفكر المصري القديم والذي انتقل إلى الإغريق والرومان، هناك العناصر هي الهواء والماء والتراب والنار والخشب، عندنا نحن لا يوجد الخشب، في الصين استخدم الخشب في العمارة لذلك لم يتبق الكثير، في مصر استخدم الحجر لذلك بقي الكثير، التدرج الذي رأيته هنا يشبه التدرج في المعبد المصري والذي جاء نتيجة تأمل طويل، بدءًا من رحلة الحياة، فلا

يوجد مخلوق يوجد مرة واحدة، إنما يتدرج من طفولة إلى صبا إلى شباب إلى غروب، كذلك نهر النيل عماد الوجود في مصر، يبدأ فيضانه بنقطة ماء ثم يرتفع شيئًا فشيئًا إلى أن يعم ويهدر، ثم يخبو مرة أخرى، هكذا دورة الحياة، في المعبد المصري القديم سور محيط، تتخلله بوابة الدخول، الساحة الأولى لكل الناس، مفتوحة فسيحة، الساحة التالية لكبار الكهنة ورجال الدولة، إلى أن نصل إلى قدس الأقداس، آخر مرحلة في المعبد، الضوء أعمق، والمكان أضيق، المسموح لهما فقط هما كبير الكهنة والملك، هنا تشابه حميم بين العمارة الصينية والمصرية خاصة في البعد الرمزي، رغم اختلاف المنطلقات الفكرية والروحية؛ فمصر القديمة حكمتها رؤية دينية ومعتقد يؤمن بوجود خالق وعالم آخر، أما الصين فحكمها مجموعة مبادئ إنسانية فلسفية شكلت نسقًا خلقيًّا للحياة التي تتوازن فيها احتياجات الإنسان وأخلاقياته، كذلك التماهي مع الطبيعة، لقد بهرت بالحدائق الصينية وتصميمها ورمزيتها وتلك لها حديث طويل سأفصله في أخبار الأدب، نخرج عصرًا من الفناء الداخلي إلى الخارجي، كنت في حالة من الإرهاق الشديد ويبدو أن ذلك نتيجة فرق التوقيت، أو ما يعرف بالساعة البيولوجية، الميدان السماوي مزدحم، والعثور على تاكسي مستحيل بسبب مؤتمر الحزب السابع عشر، اقترب شخصان من مرافقتنا الدكتورة دينا، قالت لي إنهما يعرضان توصيلنا بدراجتين إلى الفندق، لكنهما تنتظران خارج السور، ابتسم أحدهما تلك الابتسامة الصينية المهذبة، أشار إلى جهة ما بما يعني أن الدراجتين قريبتان جدًّا.

الثلاثاء

ركشا

بعد خطوات شعرت بالإنهاك، توقفت، إلا أن الصيني متوسط العمر أشار مشجعًا بما يعني أن الدراجة قريبة، غير أننا كنا نوغل في منطقة غير مطروقة من المدينة المقدسة،مررنا بمعبد لكونفوشيوس بديع العمارة، وقفت أتأمله بإعجاب وللأسف لم أدخله، من محاسن الثورة الشيوعية سواء في روسيا أو الصين أن الثوار لم يدمروا الآثار الموروثة عن العصر السابق، ولم ينهبوا التحف، بل اعتبروها ملكية للشعب يجب أن تصان، كذلك دور العبادة، غير أن الاستثناء حدث خلال الثورة الصينية التي قادها ماو، لقد دمرت خلالها مواقع ثقافية وأثرية هامة، قال لي مثقف بارز إن الثقافة الصينية تعتبر الأم في جنوب شرق آسيا، بالنسبة للسائد في كوريا واليابان والأقطار المجاورة، آثار الثقافة الصينية التي توجد في تلك البلدان الآن أكثر مما يوجد في الصين بسبب ما تم تدميره في الثورة الثقافية التي يجمع الكل هنا على أنها كانت كارثة.

ما يزال الرجل يشير بما يعني أن الدراجة قريبة، بعد مسيرة طويلة خرجنا من الباب الشرقي للمدينة، مسافة طويلة لو قدرتها ما مشيت، غير أنني أخيرًا وصلت إلى الرصيف الخارجي، الدراجة معدة مثل عربة الركشا، مقعد خلفي على عجلتين، ركبت دينا مع زوجتي وركبت دراجة بمفردي، وانطلق الرجلان، قيمة المشوار خمسون يوان، أي ما يقارب سبعة دولارات، إذن ما زال بعض

الصينيين يتحايلون على اكتساب الرزق، كنت أتطلع للشوارع الصغيرة التي يمر خلالها بدقة ومعرفة، شوارع لا أظن أجنبيًّا يعرفها، غير أنه عند خروجه إلى الشوارع الفسيحة بدأ يدركني توتر، إذ راح يتخلل المركبات الكبيرة عربات الأوتوبيس والنقل والسيارات من مختلف الأحجام، أحيانًا كان يلقي بنفسه في مواجهتها ليعبر من جانب إلى آخر، صحيح أنه كان ماهرًا جدًّا، لكنني ما زلت ريفيًّا في أعماقي، فلا توجد عندي قدرة القاهريين على مراوغة السيارات والمشي بينها، كما أنني لا أعرف قيادة العربات ولا أي مركبة تسير بما فيها الدراجة، لم تترك لي القراءة في أيام الصبا حتى إمكانية تعلم الدراجة، ولأن فكرة الموت تهيمن عليّ، رحت أفكر في أن ألقى قدري هنا في بكين وخلال ركوب دراجة، بل رحت أتخيل ردود فعل الأحباب، غير أن الله سلم، أخيرًا أمام الفندق، غدًا، نتأهب لزيارة سور الصين العظيم.

الأربعاء

الطريق الأبيض

المكان الذي عدت به من الصين مقابر أسرة مينج التي حكمت منذ 1644، تعاقب خلالها ثلاثة وعشرون إمبراطورًا، إنه المكان الذي تركت جزءًا من روحي فيه هناك، لا أدري، هل كان التأثير سيختلف لو أنني زرته في مقتبل الشباب أو في منتصف العمر، هل روعني وأقلقني وأرجف نفسي لأنني أقترب من اللامكان، إلى

حيث تنتفي الحدود والمقامات الموسيقية والألـوان التي تميز، والبرد والحر والظل والأصل؟ لا أعرف، لكن يمكنني القول إن كل ما رأيته في جانب وهذا المكان في جانب آخر، مكان يقف بمفرده الآن في ذاكرتي، لا يضاهيه آخر، إنه أقوى مكان معبر عن الرحيل الأبدي رأيته وعاينته في العالم، أقول هذا وقد جبت الكوكب شرقًا وغربًا، ورأيت أشهر النصب، والأضرحة والمباني الدينية والتذكارية، لم يؤثر فيَّ مثل هذا الموقع، لقد عدت به، أستعيد تفاصيله وأراه أينما وليت وجهي، خاصة ذلك الطريق الصامت، البارد، الوحيد، المنحني باستمرار، الأبيض كالعدم، إنه المكان الوحيد الذي لم أعرفه، المدينة المقدسة مشهورة، السور الأعظم أقرأ عنه منذ طفولتي، حتى إنني أطلقت على رحلتي تلك، رحلة السور العظيم، رغم أنها مرتبطة بصدور روايتين لي في اللغة الصينية، وبرنامج يفيض بالحفاوة والترحيب سمعت خلاله ما أخجلني، لكن هذا الطريق الرمزي، الموجود، مسني وأثار شجاي.

بعد أن زرنا سور الصين العظيم، بدأنا العودة إلى بكين، لم أعرف أن الصديق البروفيسور باسم (الاسم العربي لأحد كبار المستعربين) لديه نقطة لم يخبرني عنها في البرنامج، عندما اقتربنا من السور طوبي اللون الذي تتخلله بوابة ضخمة على الطراز الصيني ظننت أننا سنزور مكانًا مثل المدينة المقدسة، إن الأسوار لا تفصح أحيانًا عما تخفيه وراءها، أحيانًا يكون علينا الاستنتاج، وأحيانًا نتخيل بما تزودنا به من معارف، لم يكن عندي أي معلومات، لكنني بمجرد

رؤيتي للبوابة وللسور أدركني أسى ما، إنني بإزاء مكان معزول، السور حجاب لكنه أحيانًا يشي، من هنا أصغيت إلى البروفيسور باسم وهو يقول إننا سنزور مقابر أسرة مينج؛ ظننت أنني سأقصد مقابر بعينها، سأقف على أضرحة الأباطرة التي أصبحت مزارًا سياحيًا، كل المقدسات القديمة أصبحت مواقع سياحية، أقدس أماكن مصر القديمة أصبحت مواقع سياحية للفرجة، ومصدرًا للعملة الصعبة، لا شيء يبقى كما هو، لا شيء يظل مهما كان، كل شيء يدركه التحول بدءًا من الفكر إلى الحجر، حقًّا.. ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾، المبنى الذي يقع في المدخل له أربعة أبواب تواجه الجهات الأربع الأصلية، واحد فقط مفتوح إلى الخارج، بمجرد العبور نرى تكوينًا غريبًا، سلحفاة ضخمة من الرخام ينهض من منتصف ظهرها عامود ضخم إلى السقف، القطعة التي نحتت منها السلحفاة واحدة، واضحة براعة الفنان، ربما توحي السلحفاة بالعمر المديد في مدخل هذا المكان الحزين، حقل الرخام ومادته وظلال المكان الرمادية تحدث في النفس أثرًا يتجاوز السكينة، الجبال متوسطة الارتفاع تحيط بالوادي الذي حفرت فيه قبور الأباطرة، القبور عند سفوح الجبال، اللون الأخضر الكثيف سواء خارج السور أو داخله، المكان حديقة ضخمة، لكنها حديقة للأبدية، تبدو في البداية مثل أي حديقة، نجتاز الباب وكأننا سنقبل على نزهة في حديقة غناء، لكن بمجرد اجتياز المبنى إلى داخل الحديقة ندرك على الفور أننا في حيز مغاير، نقف أمام ممر طويل لا

يبدو له نهاية، إذ ينحني على مهل، انحناء متمهلًا حتى في مواجهة البصر، فجأة نرى الطريق وقد اكتمل انحناؤه هناك أو في اللاهناك، الممر عريض يتوسطه طريق أبيض، درجة خاصة من البياض فلا يوجد أبيض واحد، إنما تتعدد الدرجات في الألوان كافة، أبيض شاحب، أبيض أمر بالصمت، أبيض لم أعرف مثله،الطريق الذي يبلغ عرضه حوالي مترين محفوف برمال غامقة، وسط ما بين الأصفر والبني، يلقي هذا بظلاله على الممر الذي نبدأ الخطو عليه، لابد أن نمشي فوقه، فبالرغم من عدم وجود أي علامة ترشد أو تنصح أو تشير، شعرت أنني مرغم على المشي فوق هذا الطريق الذي يمتد وسط طريق آخر محفوف بالشجر، وآه من هذا الشجر.

الأربعاء
أم الشعور

في مصر، في الدلتا، نرى شجرة على ضفاف الترع منحنية في اتجاه الماء، إنها الصفصاف، أو أم الشعور كما تعرف بين الناس، شجرة ذات دلال، أنثوية المظهر والمخبر، تغمس جدائلها في الماء، ما أراه هنا نوع من أم الشعور، نوع من الصفصاف، الجدائل المتجهة إلى الأرض أغلظ قليلًا، كما أن طبيعة التدلي مغايرة، في أم الشعور المصرية دلال أنثى ودلع، أما هنا فهو تجسيد الحزن، ينحني الجسد عند اللعب، وينحني عند الحزن أو البكاء، الانحناء واحد، لكن المعنى الكامن يضفي معنى مختلفًا تمامًا.

صفان متقابلان من الأشجار الحزينة، الخاشعة ألمًا، كل الأغصان تتجه إلى الأرض، يحددان معالم الطريق، والطريق بداخله جلال سامق، وصمت لم أعرف له مثيلًا، ورغم أن الطريق الأبيض يمكن أن يتسع لاثنين بجوار بعضهما غير أن شيئًا ما، شيئًا لا يبين، يرغم الماشي على الخطو وحيدًا، هذا طريق لا يمكن للإنسان إلا أن يمضي فوقه وحيدًا، فلا أحد يولد مع أحد، ولا أحد يموت مع أحد.

أمضي على مهل، أتقدم، يتبعني من يصحبني، عند حد معين ألتفت، اختفت البداية، غاب المبنى، المدخل الذي ترقد تحته السلحفاة الرخامية، لا أفكر قط في العودة، في الرجوع،فمن يمضي فوق هذا الطريق الأبيض الشاحب، البارد، الخلو من كل ظل، لابد أن يمضي في اتجاه واحد، صوب نقطة محددة، صحيح أنها لا تظهر، لكنها مدركة بالوعي، بالحس، أمضي بطيء الأنفاس، فلم أعرف مكانًا في العالم المحسوس الذي عرفته مثقلًا بتلك الرمزية ومجسدًا لها مثل هذا الطريق، على مهل تظهر الحيوانات.

الحيوانات

عند نقطة معينة يظهر على جانبي الطريق الحيوانات، أول ما يلوح أسدان متقابلان، كلاهما واقف، يليهما على بعد عدة أمتار أسدان راقدان، ثم تتوالى البقية، جملان واقفان، جملان راكعان، فيلان واقفان، فيلان راكعان، عدد التماثيل أربعة وعشرون.

سألت البروفيسور بسام فيما بعد، لماذا الوقوف؟ ولماذا الركوع؟ قال إنه من المفترض أن هذه الحيوانات تقوم بدور الحراسة، اثنان مستيقظان، واثنان يلتمسان الراحة، رحت أفكر في التفسير، غير أنني لم أقتنع تمامًا ومازلت أبحث عن تفسير، غير أن ظهور هذه الحيوانات أكد لي وثاقة الصلة بين الحضارتين المصرية القديمة والصينية، فالرموز واحدة، لم يكن الحيوان إلا رمزًا عندنا وعندهم، ربما كانت هناك صلات مباشرة، وربما لم تقم هذه الصلات، غير أن طول التأمل في حقائق الوجود يوجد طرقًا مختلفة للوصول إلى الحقيقة.

ما زلت أمضى فوق الطريق الشاحب، الأبيض، طويلًا مشينا لم ننطق حرفًا، ولم نتبادل انطباعًا، فيما بعد سألت ماجدة زوجتي عن شعورها أثناء قطعنا الطريق، فوجئت أن انطباعها يتشابه مع انطباعي، بل ويكاد يتطابق، قالت إنها شعرت بالمهابة، بالصمت الثقيل، بأسى رهيف لكنه مخيف.

إذن، هذا ما يحدثه الطريق من أثر، رغم جلال التكوين، فالجبال المحيطة سفوحها خضراء، واللون الأخضر غزير، متنوع بكافة درجاته، لكن ثمة شجى يمس الروح والوجود.

بعد مسافة من الحيوانات تظهر تماثيل البشر، اثنا عشر، كل اثنين متواجهان، الجميع مطرق صوب الأرض، مثل الحيوانات تمامًا، كل بصر لا يتجه إلا صوب نقطة واحدة، إلى الأرض، إلى الطريق،

إلى الطريق الذي يتوسط الطريق، ذلك الشريط الأبيض البارد الذي داهم روحي وما زال.

من كتاب الفيلسوف الصيني هيوز

من غير أن تسافر يمكنك أن تعرف الدنيا كلها.
من غير أن تطل من النافذة يمكنك أن ترى دروب السماء.
وبقدر ما تذهب بعيدًا تعرف قليلًا.
وهكذا يعرف الحكيم دون أن يسافر.
ويرى دون أن يحدق.
وينجز كل شيء دون أن يفعل.

الشعب

لماذا يجوع الشعب؟
لأن الحكام يأكلون الأموال بالضرائب
ولذلك يجوع الشعب
لماذا يتمرد الشعب؟
لأن الحكام يتدخلون أكثر من اللازم
ولذلك يتمرد الشعب
لماذا لا يعبأ الناس بالموت؟

لأن الحكام يطلبون ثمنًا باهظًا للحياة
لذلك يتقبل الناس الموت بسهولة.

الثلاثاء

إنه الفن..

منذ سنوات طويلة أعشق تأمل الفن الصيني، الخط الصيني التقليدي. أيضًا الاستماع إلى الموسيقى التقليدية التي تحاكي الطبيعة، خرير المياه، وأصوات الطيور، وهسيس الرياح، كل ما يصدر عن الثقافة الصينية له خصوصية وتفرد. وأنا من المدافعين بشدة عن تفاعل الثقافات من خلال تنوعها. لو سادت العالم ثقافة واحدة لأصبح الواقع غريبًا في مفرداته. شحيحًا في مصادره. في التنوع ثراء لا حدود له. إنه الفن الصيني الذي جعلني أشعر أنني لست غريبًا عن تلك المرتفعات الصخرية، عن هذا اللون الأخضر لأوراق الأشجار. إنه الأخضر. لكنه أخضر صيني، أخضر يمت إلى الصين وليس أي مكان آخر، كذلك انعكاسات أشعة الشمس على نهر اليانجستي الذي تطل عليه شنغهاي، عندما رأيته صحت بيني وبين نفسي: هذا أصفر صيني، صحيح أن اللون الأصفر كان محرمًا بأمر الأباطرة؛ لأنه لونهم المفضل، تمامًا كما كان اللون الأحمر المقترن بالأسود محرمًا على سيارات مصر في العصر الملكي؛ لأنه كان اللون المفضل لعربات الأسرة المالكة، خاصة الملك فاروق، أباطرة الصين فضلوا اللون الأصفر؛ لذلك اقترن اللون الأصفر

بالصين، رغم أن لون البشرة السائد هو الأسمر الفاتح قليلاً وليس الأصفر، إنه الفن الذي جعلني أشعر بالألفة مع الأشجار والمرتفعات الصخرية التي كانت تزداد ارتفاعًا كلما ابتعدنا عن بكين في اتجاه السور الأعظم، ما رأيته، ما سمعته، ما قرأته من أشعار، جعلني هذا كله أشعر بالألفة مع ما أشاهده.

حوارات في الطريق
الثلاثاء صباحًا

يصحبنا البروفيسور بسام. إنه الاسم العربي، مثل كل المستعربين الصينيين. يتخذ كل منهم اسمًا من تراث الثقافة التي يهتم بها. ومن أغرب الأسماء التي قابلتني «صاعد إلى قلب الكون» إنه الترجمة الحرفية للاسم الصيني لأكبر مستعرب الآن، رئيس معهد الدراسات العربية في بكين، كذلك اسم طالبة الدكتوراه «واحة»، أما مترجمتي فاسمها (دينا) وكذلك (درية). البروفيسور بسام يتحدث العربية بطلاقة أزهرية، وخلال رحلتنا التي تتجاوز المائة كيلو متر سألته وشاركت في الحوار زوجتي، كنا نعكس فضولاً شديدًا عما يجري في الصين من تحولات، كنا نحاول أن نفهم ما نراه، كنت مهتمًّا بذكرى ماو، هذا الزعيم الذي كنت معجبًا به في صدر الشباب، وكان أشبه بالأسطورة، لكن يبدو أن الإنسان عندما يصبح أسطورة يتحول إلى كارثة. قال بسام:

«البعض يحمله مسئولية ما جرى من أحداث فظيعة خلال الثورة الثقافية، والبعض يحن إلى أيامه، ربما لأن المساواة في الفقر كانت سارية، لم تكن هناك فروق، إن المشاعر تجاهه متناقضة، لكن الجميع يحب شو اين لاي رئيس الوزراء..»

تساءلت عما يمكن اعتباره أخطاء ماو، قال:

«الثورة الثقافية بلا شك، لقد انتحر كثيرون، خاصة من المثقفين، وجرى تدمير مراكز هامة للثقافة الصينية، هذه الثقافة تعد الأم في جنوب شرق آسيا، الآن بعض مراكزها الموجودة في كوريا أو فيتنام أو اليابان أكثر من تلك الموجودة في الصين، الخطأ الثاني هو إهماله تحديد النسل، لقد أصبحنا الآن مليارًا وثلاثمائة مليون من البشر؛ لذلك صدر قرار ألا تنجب الأسرة إلا طفلاً واحدًا، بالطبع بدأت بعض المشاكل في الظهور، منها أثر التدليل، وفقدان الأخوة.

سألته عن مخالفة القرار، قال بحدة إن هذا يفقد الإنسان اعتباره على الفور ويفقد فرص الترقي في عمله أو التقدم في أبحاثه، هذا أمر جاد تمامًا.

سألته زوجتي عن الفرق بين الماضي والحاضر، بين زمن ماو والآن باعتباره عاش العصرين، بعد لحظة من التفكير قال: إن الحاضر أفضل، كان مرتبه وهو أستاذ جامعي زمن ماو ثلاثين دولارًا في الشهر.. الآن يتجاوز الألفين.

قلت ولكن ربما كانت الظروف أفضل في ظل الثلاثين، بمعنى توفر الحاجيات الأساسية، قال مقاطعًا: لا .. لا، لقد كان الناس يعيشون في بيوت أقرب إلى العشش، الأسرة المكونة من عشرة أفراد كانت تعيش في حجرة من عشرة أمتار، الآن مبان حديثة، وشقق حديثة، صحيح أن الإيجارات مرتفعة، لكن الدخول ترتفع أيضًا. سألته زوجتي عن الشابة ابنة الست والعشرين سنة التي وُصِفت أنها أثرى أثرياء الصين، ما مصادر ثروتها؛ قال: «التجارة في العقارات»، سألته عن مظاهر الفساد، قال إن إجراءات مواجهتها صارمة، لقد تم إعدام مسئول كبير بشنغهاي، سألته عن جريمته، قال إنه اختلس خمسين ألف دولار، عندئذ وليت بنظري بعيدًا حتى لا يلمح أثر الدهشة، إعدام لأنه اختلس خمسين ألف دولار فقط؟ سألته عن نقطة التحول في الصين، قال إنه دنج هسياوبنج، الذي خلف ماو، الذي أطلق صيحته الشهيرة، لا يهم لون القط. المهم أن يأكل الفأر، لقد أجمعت النخبة في مؤتمر الحزب الثالث عشر على النهوض بالصين. واتخذت قرارين؛ الأول ألا تزيد سن أي قيادة في المستويات العليا عن خمسين سنة، وألا تستمر في موقعها أكثر من مدتين، ينطبق هذا على الجميع، وقد اتبع بدقة، سألته عن إمكانية الصدام مع الغرب، مع الولايات المتحدة تحديدًا، قال بثقة: مستحيل، لقد تشابكت المصالح، كنا نقترب من السور العظيم الذي يمتد أكثر من ستة آلاف وخمسمائة كيلومتر، أي بطول المحيط الأطلنطي، ورغم دقته وحصونه، فإنه لم يحم الإمبراطورية

من الانهيار، الشعب الذي بنى هذا السور في الماضي السحيق، يزيل الأسوار الآن بين الأيديولوجيات، والهدف واحد، تقدم الصين وحمايتها.

الطريق الأبيض أيضًا

ما زال الطريق الأبيض في مقبرة الأباطرة يطاردني، أحيانًا نزور موضعًا، نتأثر به، وعندما نفارقه نستعيده من خلال الذاكرة، عندئذ نرى فيه ما لم نره في حضورنا به، نعجب، كيف لم نكتشف ذلك في حينه، في أثناء تحديقنا واستيعابنا، يبدو الوجود مثل اللوحة، لا نراها جيدًا إلا إذا ابتعدنا عنها قليلًا، ثم قليلًا، يمضي الإنسان فوق الطريق الأبيض على الجانبين الأشجار التي تتدلى أغصانها مطرقة، كذلك التماثيل، يمضي الإنسان مفردًا، وحيدًا، متجهًا إلى نقطة محددة، الطريق هو رحلة الحياة، وبمجرد أن نبدأ الخطو فوقه يبدأ النقصان، لذلك أعجب من فكرة الاحتفال بعيد الميلاد، أو قدوم عام جديد، إنه النقصان الذي يبدأ مع البداية، مع الميلاد؛ لذلك تتجه خطانا باستمرار إلى الأبدية، كل رحلة، كل سفر، كل انتقال اقتراب منها؛ لذلك الحياة رحلة، طريق، تمامًا مثل هذا الطريق الأبيض الصيني الذي اهتدى إليه المتأملون القدامى هناك، كل تأملات الإنسان تصل إلى لب الحقيقة، سواء كان هنديًّا أو إفريقيًّا أو من أي جنس، من أي ديانة، من أي معتقد، يقول لي هذا الطريق إن النهاية لا تأتينا، إنما نحن الذين نمضي إليها بخطى راسخة ولا ندري إلا

عند الدنو، عند الاقتراب، فيأخذنا البهت، وتغمرنا الدهشة، كأننا قادمون للتو!

نحن نمضي إلى النهاية إذن، لكننا ما دمنا على قيد الحياة فإنما نمضي عبر طرق شتى، حتى وإن كنا ندنو من التمام، في الضدية حياة، وفي الانفراد موت وعدم؛ لذلك عندما يستمر الليل بدون طلوع شمس لا تكون حياة، ولو استمر النهار أبدًا لانتفى الصراع، في الانفراد عدم؛ لذلك كانت عبقرية هؤلاء المتأملين القدامى هنا، عندما بدئ بهذا الرسم الأبيض المستوي، الخالي من المسام، من أي نقيض، طريق مفرد، مستمر ولكن في اللا شيء، مؤدٍّ إلى الأبد، أبيض شاحب حيث لا ألوان ولا تمييز، إنما فقط أبيض، أبيض، الغريب أن سيلاً من الأخطار يفاجئني كلما استعدته أو تذكرته، أخطار تواتيني بعد عودتي، فنحن لا ندرك الشيء في أوانه، في حينه.

الثلاثاء

هل شُيِّد سور في التاريخ أدى الغرض الذي أقيم من أجله؟

هل حال أحد الأسوار بين من بناها ومن استهدفوها؟

أسئلة كانت تتردد على ذهني والسيارة تقطع بنا الطريق المؤدي إلى أحد أجزاء السور العظيم الشهير، كنت موزعًا ما بين تأمل الطبيعة والتفكير في مغزى السور، معنى السور، سواء كان حربيًّا، معماريًّا، أو سورًا فكريًّا غير منظور لكنه يحول بين الإنسان وزمنه،

بين الإنسان وماضيه، بين الإنسان والإنسان، هذا أمر يطول الحديث فيه وسأعود إليه، غير أن النتيجة الكلية التي أتوصل إليها، أنه ما من سور أقيم وأدى الغرض منه، أي الحماية، الحيلولة دون غزو الآخر، للقاهرة سور لا تزال بعض أجزائه قائمة حتى الآن، هل حمى المدينة من العثمانيين، من الفرنسيس، من الإنجليز؟ الإجابة بالنفي، هل أدى سور برلين الشهير الغرض منه؟ أقول بالعكس فإن وجوده عجل بالتفاعلات التي أدت إلى انهيار من بنوه، وزواله أيضًا، إذن لماذا لم يستوعب الإنسان الدرس؟ لماذا يستمر في بناء الجدران والأسوار؟ استخدام التقنيات الحديثة – كما تفعل إسرائيل في الجدار العازل – كذلك الأسوار الطائفية والعقائدية والاقتصادية، كل أسوار التاريخ، أيًا كان نوعها فشلت في تحقيق وظيفتها، سقطت، وتوارى من بناها، السؤال الملح عليّ: لماذا يصر الإنسان على الاستمرار في بناء الأسوار؟

ما بين بكين وهذا الجزء حوالي مائة كيلومتر، لكن ملامح السور تبدأ في الظهور بعد حوالي ستين كيلومترًا، يتبع المرتفعات، يصعد فوقها وينزل؛ لذلك يبدو متعرجًا، تتخلله أبراج من الحجر، وأحيانًا في بعض المناطق يصبح مزدوجًا، أي سور على مرتفع ومنخفض، وآخر فوق تلال أكثر ارتفاعًا في الخلف، هذه النقطة محمية بتلك، الحجارة رمادية غامقة، أقرب إلى السواد، تتخللها خطوط بيضاء، تمتزج أجزاء السور بالطبيعة، حتى تبدو في بعض المناطق وكأنها

جزء منها، لكن ذلك الانتظام الصارم والخطوط المتدفقة رغم الانثناء والتموج تذكرنا بالإنسان الذي تدخل في الطبيعة.

نصل إلى منطقة تشبه الوادي، تقع ما بين مرتفعات متوسطة، منها تبدأ محطة التلفريك، التي تصعد منها المركبات المعلقة إلى أعلى، ثمة وسيلتان للصعود إلى السور، إما على القدمين، أو بالمركبة المعلقة، الأولى لا أقدر عليها للسن وما علق من علل، فلا يتبقى إلا الثانية، يتباهى الصينيون بصعود السور، أي تسلقه والمشي فوقه صعودًا وهبوطًا، وفي مرحلة معينة كان ذلك من علامات الرجولة والقوة كما قال «ماو»: إن الرجال وحدهم هم الذين يستطيعون صعود السور.

قبل اتجاهنا إلى المحطة، مضيت إلى دورة مياه عامة، أذكر المرحوم الدكتور محمد مصطفى أول مدير لمتحف الفن الإسلامي، قال لي إنه عندما تولى منصبه كان يوصي بالاهتمام بدورة المياه، أكثر ما يترك أثرًا في ذاكرة الزائر مصريًّا أو أجنبيًّا، ومن الأمور التي ركز عليها الصديق الدكتور سمير فرج في الأقصر دورات المياه، لم يكن بها دورات عامة، وكان السائح القادم من الغردقة يضطر إلى دخول الفنادق، وشرب أي شيء مقابل استخدام الدورة، الآن توجد ثماني وثلاثون دورة، دخولها للسائح مقابل جنيه واحد، وهذا مبلغ زهيد جدًّا بالنسبة للأجانب، في مقابل ذلك مكان نظيف يمكن قضاء الحاجة فيه، فوجئت بنظافة الدورة الصينية الموجودة عند سفح السور، بل إن مرافقها تعمل إلكترونيًّا، لا شيء مهمل في

الأماكن المعتنى بها، الاهتمام بالتفاصيل دقيق للغاية، الصين كلها مستنفرة الآن لدورة الألعاب الأولمبية، ومما لاحظته أن جميع سائقي عربات الأجـرة يدرسون الآن اللغة الإنجليزية مجانًا في دورات منظمة، ومن لا يتقن التعامل بها فستسحب رخصته. دقة الاهتمام بالتفاصيل، وقوة الدولة غير البادية في المظاهر جعلتني أثق بهذه المركبات المعلقة التي تدور باستمرار بدون سائق من تحت إلى أعلى.

إلى أعلى

المركبات لا تتوقف إلا لحيظات، لابد من الإسراع في الدخول إليها، تخضع لتحكم مركزي من غرفة تبدو ملامحها للركاب، كل واحدة تتسع لأربعة، تستغرق الرحلة حوالي أربع دقائق، المرتفعات الصخرية مكسوة بالنبات البري، وثمة زهور حمراء تزدهر في الربيع، أخبرت مرافقتنا أنها تضفي لونًا مبهجًا وفريدًا على الجبال. رأيت بقاياها، ظلالها الخريفية، في الخريف تتعرى الأشجار ولا يبقى من النبات إلا الأنواع القادرة على مقاومة البرد، في مصر تتداخل عندنا الفصول، ربيعنا حار، تهب فيه رياح الخماسين المثقلة بالرمال، ربيعنا الحقيقي في الخريف، فما أغرب وأعجب ذلك!.

نبدأ الخطو فوق السور من أعلى نقطة، ننزل الدرجات الحجرية المرتفعة عن الحجم الذي اعتدته، توقفت لألقي نظرة على السور الذي يتعرج مع المرتفعات، منحدرًا إلى أسفل وصاعدًا إلى أعلى،

كل جزء فيه مصمم بحيث يحمي الآخر، توقفت قليلاً لأستوعب أنني فوق السور العظيم. ها أنذا أبلغه، ثمة أماكن تستقر في الذاكرة لكثرة ما قرأنا عنها، تصبح جزءًا من خلفيتنا الثقافية، مثل برج إيفل، ناطحات سحاب نيويورك، الأهرام لمن لم يعرفها مباشرة، أتحدث عن المعالم الموجودة بالفعل في عالمنا، بعضها يعيش معنا، وربما نتأثر به حتى وإن لم نره، حتى إذا سمحت الظروف وحلت اللحظة التي نجد أنفسنا عند أحد هذه المعالم تأخذنا دهشة، وللوهلة الأولى نبدو غير مصدقين، ها أنذا فوق السور العظيم، أحاول تثبيت الملامح في الذاكرة، ذلك عندي أهم من التقاط الصور الفوتوغرافية، كما أحاول النفاذ إلى المعنى الكامن، الخفي، مثلاً تصميم السور، عمارته، الرؤية التي تحكمه، هل ثمة معان مستترة، بعد مغادرتي المكان أبدأ استعادته، بعد مفارقتي البلد أو المدينة أو الأثر الذي أزوره أراه مرة أخرى بالذاكرة، وقد أكتشف دلالات لم أرها وقت المثول فيه. إن معرفة الخلفية التاريخية للأثر، للمكان، للعمل الفني، تضفي أبعادًا ثرية تسهم في مزيد من الفهم والتذوق.

ما وراء السور

كل سور يتصل به أمران، الأول تلك المساحات التي يحيط بها، فالسور حد فاصل، وثمة تفاصيل أخرى غير مرئية، إنه تاريخه الماضي، والحكايات المرتبطة به، بدأ تشييد سور الصين العظيم في القرن السابع قبل الميلاد، حيث أقامت أسرة تجوو المتأخرة بعض

التحصينات على الحدود الشمالية لصد غزوات القبائل البربرية عن الداخل، ثم تبعتها الأسرات والممالك الأخرى. كانت الحصون والقلاع متفرقة إلى أن وصل بينها إمبراطور أسرة تشين الأول الذي بدأ حكمه عام 221 ق.م. يقدر امتداده بأكثر من ستة آلاف كيلومتر، أي ما يقارب عرض المحيط الأطلنطي، لكنه غير متصل، إذ يتوقف بعض المسافات ثم يستمر، كما أنه ليس مرتفعًا، الجدران لا يزيد ارتفاعها على أربعة أمتار فقط، لكن المصمم استفاد من ارتفاع التلال الصخرية، السور يتشكل من جدارين يتوسطهما طريق يتسع لمرور الجنود والخيول. وينتهي كل جزء بحصن صغير فوق نقطة مرتفعة، يذكر ابن بطوطة في رحلته أنه سأل عن سور الصين العظيم، فأخبروه أنه في مكان بعيد لا يمكن الوصول إليه، ولا أدري هل أراد الصينيون إخفاء السور عنه، خاصة أن الرحالة الطنجي الشهير وصل إلى بكين التي لا تبعد أكثر من مائة كيلومتر عن السور، أم أنه زعم ذلك، إن السور كان معروفًا عند العرب، وله أصداء أسطورية تتمثل في السد الذي بناه الإسكندر الأكبر ليمنع أذى قوم يأجوج ومأجوج.

لقد ولت الممالك والأسر التي أقامت السور العظيم، وبقيت معظم أجزائه شاهدًا على فشل كل سور، ومحدوديته مهما أوتي من أسباب المناعة.

مراكش 2008

25

تبدو الأيام الخمسة التي أمضيتها نزيلاً على الصحب والأحباب في مراكش كأنها خمسة شهور لما حفلت به من نشاط وأوقات متفردة. ما بين سماع الأذكار في الزوايا المباركة الموزعة على نواحي المدينة أو حضور جلسات السماع التي تعزف فيها القصائد والأمراح من فرق الموسيقى الأندلسية التي جاءت من كل المدن المغربية، سأعود إلى أيامي المراكشية، غير أنني أنطلق في تدوين رحلتي تلك من مراكش وليس من القاهرة مدينتي حيث وطني ومنطلقي فلكل كتابة نقطة بدء ومربط، ذلك أنني مقدم على رحلة طويلة رتبتها الظروف. إذ دُعيت لحضور مؤتمر حوار الأديان الذي يعقد سنويًا واعتذرت من قبل لأن الظروف لم تسمح. عندما وصلتني الدعوة كتبت إلى الدكتور إبراهيم النعيمي أخبره بوجودي خلال تلك الفترة في المغرب، فإذا كانت رحلة مباشرة يمكن أن أحضر، خاصة أن تاريخ افتتاح المؤتمر يلي عودتي إلى القاهرة مباشرة، لم يستغرق الأمر ساعات، جاءني الرد من قطر. توجد رحلة مباشرة

من الدار البيضاء إلى الدوحة، إذن.. توكلت على الله. لكل رحلة أغراض، لكن ثمة أحدها يكون الأقوى، صحيح أن المؤتمر تجربة تستدعي التأمل والمتابعة لأخبار الأدب، كذلك لقاء أصدقائي في قطر من أدباء وفنانين وعرب مقيمين. غير أن السبب الأقوى غير معلن. فتجربة الطيران من المغرب الأقصى إلى أقصى الشرق، من المحيط إلى الخليج، طيران مباشر يستغرق حوالي ثمان ساعات. لم أعرف الخط الذي ستسلكه الطائرة، لكن فكرة أن أنتقل من المحيط إلى الخليج بدت لي مثيرة. العبارة نفسها من الجمل التي شكلت أفق وَعْينَا في الستينيات، كنا نقرؤها مكتوبة ونسمعها في الخطب السياسية، وأحيانًا في الأناشيد، الخريف الماضي طفت حول الكوكب ما يزيد عن قطر الكرة الأرضية عندما سافرت إلى الصين شرقًا ثم إلى نيويورك ثم إلى أوربا في شهر واحد، وكانت فكرة الدوران حول الكوكب تحكمني أيضًا، أن ألقي نظرة من خلال الفضاءات العُلا على المكان الذي أعيش فيه.

هكذا..

من بيت قديم شُيد في العصر السعدي (القرن السادس عشر) تحول إلى فندق، خرجت إلى الزقاق الضيق، اسمه زنقة القصور، زنقة كان يسكنها أثرياء القوم، والآن تحولت بعض البيوت إلى فنادق أخرى اشتراها أثرياء الأجانب، وتلك ظاهرة متنامية في مراكش، من الفندق يودعني أحمد الذي انتظر خروجي في الرابعة، وأمامه ينتظرني نفس الشاب الذي صحبني من الدار البيضاء عند وصولي ورافقني في جولاتي وصعودي إلى جبل الأطلس الكبير

لزيارة صديقي الدكتور أحمد التوفيق وزير الأوقاف، وهو أديب معروف، وأكاديمي كبير.

كعادتي عند الانتقال أتأمل المكان الذي أقمت فيه مقدارًا من عمري، من وقتي، أتساءل: هل سيقدر لي بلوغه مرة أخرى؛ أتطلع إلى المبنى العتيق، إلى الزقاق الضيق الخالي تمامًا من المارة، يبدو هيكل المدينة العتيقة أكثر وضوحًا. العربة أمام الفندق، هذا ممكن ليلاً، مستحيل نهارًا لكثافة الحركة، خاصة حضور الأجانب، ننطلق من زنقة القصور إلى ساحة الفن التي تبدو فجرًا كأنها ميدان معركة هدأت تمامًا، ساحة يتلخص فيها العالم، سأعود إلى هذا كله، الساعة الآن الرابعة، المسافة إلى الدار البيضاء حوالي ثلاث ساعات، سيبدأ عبوري من المحيط إلى الخليج في العاشرة عندما تقلع الطائرة، أهلاً وسهلاً بالذكريات..

الطريق السريع

نمسك بداية الطريق السريع الحديث، إنني مرهف الحواس لتبدل الليل والنهار، أرصد كافة ما يتعلق بهما، وأحيانًا أستغرق أو يأخذني تعاقبهما، رأيت بداية الضوء فحددت الشرق من موضع حركتنا، إنه الفجر، أول ما يتبادر إلى الذهن القسم القرآني الكريم به

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ..﴾

الفجر أول ضوء نراه من الصباح، وفي اللغة العربية اسمه ابن ذُكاء، وذُكاء من أسماء الشمس، والفجر من انفجار الماء أيضًا، لأنه ينفجر كالماء شيئًا بعد شيء، أي بالتدريج، ومما يلي الفجر من

الليل هو السحر، يُقال: أتيته بسحرٍ وبسحرة. ويُقال انبلج الصبح، أي اتضح، ويقال تنفس الصبح، وفي التنزيل العزيز ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [سورة التكوير: 18].

يقول الفرزدق:

والشيبُ ينهضُ في الشباب كأنه   ليلٌ يصيح بجانبيه نهارُ

لأن الطريق ممتد في الخلاء، فالانبلاج واضح، والفصل بين الأبيض والأسود، بين الليل والنهار واضح جدًّا، إلى يميني حيث الشرق يتقد الضوء، يزداد وضوحًا، إلى اليسار العتمة ساجية، إلى يميني بدايات النهار، وإلى يساري الليل مستقر، جاثم، النقيضان يمكن رؤيتهما معًا، تمامًا كما يكون الأمر في الطائرة، النهار القادم من جانب والليل المولي من الناحية الأخرى، لأن الطريق مستقيم، ممتد في الخلاء، في الصحراء، الجمع بين النقيضين ممكن. تشغلني مظاهر الحركة في الكون والتحول، لذلك أحرص على رؤية الشروق في كل مكان أحل به، خاصة في الخلاء، أو الغروب، لن أنسى عندما وقفت بشاطئ المحيط قرب مدينة الرباط لأرى غروب الشمس في المحيط، في بحر الظلمات كما كان يعرفه الأجداد الأقدمون قبل اكتشاف الشاطئ الآخر، رغم أن الماء هو الماء، إلا أن الاسم يضفي دلالات مختلفة على الموجودات، فلأن اسمه المحيط يبدو مختلفًا عن البحر، المحيط يعني اللا حدود، اللا مدى، حتى لو كان ثمة شاطئ في الناحية الأخرى.

الساعة الآن الخامسة والنصف، يسطع الضوء غير أن الشمس لم تظهر بعد، الضوء هنا هو الطلائع اللا ملموسة، اللا مرئية، نحن لا نرى الضوء، لكننا نرى به ولذلك لا يعرف أحد منا جوهر الضوء أو سره لأنه غير مدرك بالحواس، هذه الشمس التي توشك على الظهور طلعت منذ ثلاث ساعات في الأفق القاهري، الساعة الآن تقترب من التاسعة في مدينتي ومن السادسة هنا، في كل لحظة تشرق الشمس وتغيب على نقطة في الدنيا، كل لحظة هي شروق وغروب معًا، تمر بتلال صخرية غير مرتفعة، بعد دقائق رأيت قرص الشمس الدائري مرتفعًا، منفصلاً عن الأفق، فاتني رؤية اللحظة التي أردت، ليس كل ما يحرص عليه الإنسان يبلغه حتى لو كان عاديًّا، ضئيلاً، مألوفًا، يتكرر في كل لحظة.

الأربعاء

رغم أنه الجو، حيث امتداد السماء، والغيوم الحاجبة أو المتناثرة، إلا أن ثمة شعورًا خاصًّا يغمرني منذ أن أقلعت الطائرة من المدرج الذي يعني مفارقة العجلات له بدء ابتعادي عن الوطن، نتجه غربًا، بمحاذاة البحر، ليبيا، تونس، الجزائر، وصولاً إلى وجدة شرق المغرب، ما أطول المسافة مكانيًّا وزمانيًّا، حوالي خمسة آلاف كيلومتر، خمس ساعات ونصف لقطع المسافة مباشرة، عندما يصفو الجو أتطلع إلى أسفل، يؤنس روحي أنني أحلق في مجال عربي، صحيح أن الحدود قائمة، والتأشيرات واجبة، وأحيانًا المضايقات الأمنية للعابرين، لكنني كما أحلق على ارتفاع شاهق وبسرعة فائقة

لا أتوقف عند الحالي، بل أرى المشهد في جملته تاريخيًا وثقافيًا وجغرافيًا، هذه الأراضي الشاسعة الممتدة إلى بحر الظلمات كما كان المحيط الأطلنطي يُسمى في القرون الوسطى، قطعها مئات الألوف على أقدامهم، لم تكف الحركة عليه برًا، سواء على الأقدام أو بالدواب أو المركبات في العصر الحديث، كانت الرحلة عَبْرهُ جزءًا أساسيًا من تكوين المثقف الأندلسي أو المغربي، كان المقصد الأساسي الأراضي المقدسة بالحجاز، مكة والمدينة، لأداء فريضة الحج والزيارة. كانت رحلة الحج بالنسبة للمغرب تستغرق سنة كاملة، ستة للذهاب، وستة للإياب، هذا للحج، ولكن قد تستغرق العمر كله للتكوين، فالرحلة الأولى لابن بطوطة استغرقت خمسة وعشرين عامًا، وعندما خرج الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي من الأندلس إلى الشرق وهو دون الثلاثين لم يعد إليه، أمضى أكثر من ثلاثة عقود في الترحال حتى وافاه الأجل في دمشق، ومرقده في الصالحية الآن، وما من مرة زرت دمشق إلا سعيت إليه للتبرك والإقامة يومًا كاملاً بقربه للتمعن وللتأمل، كان طالب العلم يتكون في السفر، خلال الرحلة، وكانت مراكز العلم تمتد على المسار، من فاس حيث جامعة وجامع القرويين. إلى تلمسان، إلى تونس حيث الزيتونة، إلى الزوايا الصوفية في ليبيا، وصولاً إلى المركز الأكبر والجامعة الأعظم الأزهر، وخانقاوات الصوفية في مصر، كان للعلماء والمثقفين العرب مجتمع موحد، متقارب، يجيء الشيخ إلى الأزهر يسبقه فضله وسمعته فيحتل مكانته على الفور. لا ينظر أحد إلى جنسيته ولا إلى لونه أو أصله، لا قيمة إلا بالعلم، مثال ذلك الذي

جاء إلى مصر فتولى مشيخة خانقاه بيبرس الجاشنكير الموجودة حتى الآن في شارع الجمالية بمواجهة الدرب الأصغر، ثم تولى قاضي قضاة مصر، وظل مهابًا جليلاً حتى دفن في مقابر باب النصر بعد أن وافاه الأجل في مقابر الصوفية التي أزال البولدوزر الحكومي جزءًا كبيرًا منها، لا توجد أي إشارة إلى ابن خلدون في خانقاه بيبرس ولا في الأزهر، ولا يعرف أحد مقبرته، ولنا أن نتخيل العائد الثقافي والمادي لو وضعت المعلومات الخاصة به على الأماكن التي أقام بها في القاهرة، لو جرى احتفال سنوي ومؤتمر علمي عالمي عن فكره وعلمه وحياته، إنه أحد المفكرين القلائل الذين دخلوا ضمائر الإنسانية كلها، عرضت ذلك على السيد الوزير المحافظ عبد العظيم وزير منذ أكثر من عام. كما قدمت إليه مشروعًا متكاملاً بخصوص نجيب محفوظ بحيث تتم زيارة الأماكن الخاصة به بعد إعدادها وتعليق اللافتات التي تحوي المعلومات اللازمة. تحمس الرجل ثم عقد عدة اجتماعات وفجأة توقف كل شيء!!. في شارع الجمالية أول خانقاه للصوفية في مصر. خانقاه سعيد السعداء، لو عرفنا من أقام بها ومن توفي بها ودفن سيأخذنا العجب. كانت مصر مركزًا ثقافيًا بحق. ومقصدًا لكل طلبة العلم، خاصة المغاربة الذين يتوقفون بها خلال طريقهم للحج، أو أثناء العودة، وقد يستقر بعضهم إلى الأبد بعد زواجه، لايغير مصير الإنسان إلا امرأة، للقاهرة ذاكرة ثقافية عظمى، فقط تحتاج الإبراز من خلال مشروع لن يكلف الكثير، لكن عائده سيكون كبيرًا، أحيانًا أقابل أجانب هائمين على وجوههم في الجمالية يريدون التعرف على عالم نجيب محفوظ،

فما البال لو عرفوا أن ابن خلدون وابن عربي وابن جبير وابن بطوطة وصولاً إلى طه حسين ويحيى حقي وحسين فوزي وتوفيق الحكيم سكنوا وأقاموا وسعوا في شارع الجمالية وغيرهم آلاف من الرحالة والعلماء والطلاب والباحثين، للمغاربة وضع خاص، ربما لا يعرف الكثيرون أن التأثير المغربي قوي جدًّا في مصر، فمعظم أقطاب الصوفية الكبار الموزعين جغرافيًّا في منظومة تشبه التقسيم الإداري في مصر القديمة كلهم مغاربة، سيدي أحمد البدوي (من فاس) في الوجه البحري، سيدي عبد الرحيم (من سبتة) في الصعيد، سيدي عبد الرحيم الشاطبي (من شاطبة)، كذلك سيدي أبو العباس (من مرسية بالأندلس)، وغيرهم كثيرون، كان المغربي يقطع الصحراء مشيًا على قدميه وهدفه مكة، أحيانًا في جماعة وأحيانًا بمفرده، لا يحمل إلا زادًا قليلاً ونسخة من دلائل الخيرات، كان بعضهم يظهرون فجأة في قرى الصعيد المتاخمة للصحراء، يستقبلهم القوم بالمحبة والاحترام، يقدمون إليهم واجب الضيافة ثم يستأنفون رحلتهم الشاقة إلى الأراضي المقدسة، ظل الطريق البري أساسيًّا لكافة الحجاج المغاربة حتى عام 1969، بعد ثورة الفاتح في ليبيا أصبح عبور الحدود صعبًا، هكذا توقفت الحافلات المحملة بحجاج المغرب كله، وكنت أراها في ساحة ميدان الحسين حتى نهاية الستينيات، عندما نقرأ عن الحركة في العصور الوسطى سنجد أنها كانت أكثر تدفقًا من العصور الحديثة، ولم يكن في الماضي البعيد من يتحدث عن القومية والوحدة، كانت الوحدة الثقافية والإنسانية متحققة بالفعل، خاصة في محافل العلم، ولنتذكر أن أحد

شيوخ الأزهر في القرن العشرين كان تونسيًّا، أعني الشيخ محمد الخضر حسين.

الأربعاء ظهرًا
الدار البيضاء

فارق التوقيت ثلاث ساعات، أقلعت في العاشرة، وصلنا في الثانية عشرة والنصف، إن عشر سنوات تقريبًا مضت على آخر زيارة للمغرب كفيلة بملاحظة الفروق، مطار جديد حديث، يصعب على ذاكرتي استعادة المطار القديم، أودع زميلي وصديقي يسري حسان الذي جاء بصحبة فرقة مسرحية ستقدم عرضًا، أجد شابًّا دمثًا ينتظرني، يصحبني إلى عربته التي سوف نقطع بها الطريق إلى مراكش، حوالي ثلاثمائة كيلومتر، هذا الطريق لم يكن قد رصف خلال زيارتي الأخيرة، طريق جيد يصل جنوب المغرب بأقصى شمالها، ليس به تقاطعات، اختصر المسافة عبر البر من ثلاث ساعات ونصف إلى ساعتين تقريبًا، أقرأ تقارير كثيرة عن التقدم في المغرب، على المستويات الاقتصادية والسياسية خاصة فيما يتعلق بالحريات، من خلال الطريق ألحظ التقدم العمراني أيضًا. مرتفعات صخرية تتخللها قرى، على قمة مرتفع - مثل جبل المقطم - أرى ضريحًا بسيطًا لأحد الأولياء، بسيط الشكل تعلوه قبة صغيرة، لا أعرف اسمه، ولا اسم المكان، لا أسأل مرافقي فعلى الأرجح لن يعرف، ثم إنني أعتقد أن المعرفة الكاملة تفقد الإنسان بعض الفضول والقدرة على إبقاء الغوامض. بعد أن تجاوزت الستين واستقر في

يقيني أنني سأنتقل إلى الأبدية بدون أن أجد الإجابات الشافية، اقتنعت بطرح الأسئلة، أحيانًا يكون السؤال أغنى من الجواب، وأحيانًا يكون إبقاء بعض الأشياء في حيز المجهول الذي لا نعرفه أفضل من الإلمام بكافة ما يتعلق بها، هكذا أستعيد الآن تلك القباب وعندي الاستفهام، يضعني هذا في دائرة الحيرة والفضول، وأحيانًا يكون ذلك باعثًا على المعرفة، والإحساس بأن في الحياة ما يجب أن يعرف وهذا دافع للبقاء إلى حين!

الأربعاء عصرًا

مشارف مراكش، خلال السنوات الإحدى عشرة التي غبت عنها اتسعت، طالت المسافة التي يجب قطعها من حدود المدينة لكي نصل إلى ساحة الفنا، قلب مراكش، ومن حولها تبدأ الدروب المؤدية إلى قلب المدينة التي كان اسمها يطلق على المغرب كله، عندما كانت المغرب تقاوم الاحتلال الأجنبي كانت القاهرة مركزًا للقوى الوطنية قبل ثورة يوليو وبعدها، كان مكتب المغرب العربي في شارع عبد الخالق ثروت، وعرف عددًا من أبرز الزعماء الوطنيين المغاربة، وفي عام ستين كنت في رحلة بأسوان ضمن فريق كشافة المدرسة الثانوية التي نظمت الرحلة إلى الأقصر وأسوان، كانت أسوان قرية مشوهة، تقف بين حدود القرية والمدينة، ومشهورة بأنها منفى للموظفين المغضوب عليهم، قضينا ليلتنا في مدرسة ثانوية على ما أذكر رصت فيها أسرَّة لنوم فريق سبق دراجات (رالي) كان قادمًا من الجنوب إلى الشمال، أمضوا ليلتهم واستأنفوا الرحيل،

نمنا في أماكنهم، صباح اليوم التالي، التاسع من يناير، أخبرونا أننا سنحضر مناسبة هامة، الاحتفال بتفجير أول عبوة ديناميت تستخدم لتحويل مجرى نهر النيل تمهيدًا لبناء السد العالي، ركبنا سيارة نقل ولم يكن هناك أي شيء ينبئ أن الأرض التي نمر بها سوف تكون خلية نحل بشرية، هكذا رأيتها عام أربعة وستين في زيارتي تلك، مما أذكره العمل في مد خطوط السكك الحديدية التي ستنقل معدات السد العالي إلى مواقع العمل، عندما وصلنا، كانت هناك منصة للاحتفال، وخيمة رسم على داخلها أبراج السماء، وضع في وسطها نموذج مجسم من الجبس للسد ولمحطة توليد الكهرباء، لم يطل انتظارنا، وصل الرئيس جمال عبد الناصر وبصحبته الملك محمد الخامس الذي كان يحظى بشعبية كبيرة في مصر، ورئيس ثالث لا أذكره، هل كان عبد السلام عارف العراقي أم رئيسًا آخر؟ إنني أكتب من الذاكرة، لست متأكدًا، يقارب الوقت الفاصل بين لحظتي الآن واللحظة الماضية الثمانية والأربعين عامًا، ما أطول المدة! غير أنني أرى أمامي عبد الناصر بحضوره القوي، وهيبته، والملك محمد الخامس بوقاره وطيبته والسلام البادي على وجهه وزيه المغربي المعروف بالسلهاب، العباءة ذات البرنس الذي يغطي الرأس، التاسع من يناير، إنه نفس اليوم الذي جرى فيه افتتاح مشروع توشكى عام سبعة وتسعين، لا أعرف، هل كان الأمر مقصودًا أم أنها مصادفة؟ إلا أنني حضرت المناسبتين، بقي الملك محمد الخامس في ذاكرتي، إلا أن صلتي المباشرة بالمغرب بدأت عام تسعة وسبعين عندما شاركت في مؤتمر الرواية الذي نظمه اتحاد الكتاب المستقل

وقتئذ في مدينة فاس التي ما إن دخلت عبر بوابة «أبو الجلود» المؤدية إلى قلبها القديم، إلى مدرسة القرويين، أي أنني مشيت في نفس الطريق الذي سلكه سيدي محيي الدين الشيخ الأكبر، وكبار العلماء والصالحين، ما إن تغلغلت في المدينة وأزقتها حتى صحت منبهرًا: هذا وقتي!

الأربعاء مراكش

أحد عشر عامًا منذ زيارتي عام سبعة وتسعين، نزلت على جمعية الموسميات التي أسسها المثقف المتصوف جعفر الكنسوسي والذي ارتبطت به منذ ذلك الوقت بصلة وطيدة على البعد والقرب، هو من أبناء مراكش ومن أعرق عائلاتها، درس الهندسة في فرنسا وتخصص في المراجل الحرارية، تخصص دقيق، حصل فيه على أرقى الدرجات العلمية، إلا أنه تعرف على الأستاذ الشيخ علي شودكيفتش وهو بولوني الأصل، أشهر إسلامه منذ حوالي ستين عامًا، وتخصص في ميراث الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وقد شغل منصب مدير عام دار لوسوي الفرنسية، وهو أحد اثنين أدين لهما بتقديم أدبي إلى فرنسا خاصة، وإلى العالم عامة، الآخر هو المرحوم الدكتور جمال الدين بن شيخ رحمه الله رحمة واسعة، وقد كتب الأستاذ علي شودكيفتش مؤلفات قيمة عن الشيخ الأكبر ابن عربي، وترجم الدكتور أحمد الطيب أحد أهم كتبه إلى العربية «الولاية» وقد صدر في المشروع القومي للترجمة، أما ابنته كلود عداس فتعد من كبار المتخصصين في التصوف الإسلامي عامة، والشيخ

الأكبر خاصة، كان لقاء جعفر بالشيخ علي نقطة تحول في حياته، إذ عاد إلى مراكش وبدأ نشاطًا ثقافيًا وروحيًا فريدًا. ليعيد مكانة التصوف إلى ذروتها في المدينة العريقة التي تعد إحدى قواعده، ومركزًا روحيًا لانطلاق الدعوة باتجاه الجنوب إلى عمق إفريقيا، ومراكش تسمى مدينة السبعة رجال، والرجال كلهم من أقطاب الصوفية،أولًا سيدي الجزولي تلميذ مؤسس ومطور الطريقة الشاذلية أبي الحسن الشاذلي دفين مصر، في الصحراء الشرقية، وسيدي أبو العباس السبتي، والقاضي عياض (توفي 544 هجرية) وله كتاب رائع اسمه (الشفا بأحوال المصطفى)، وأبو القاسم السهيلي، ويوسف الصنهاجي، وعبدالله الغزواني، أضرحة هؤلاء السبعة تتوزع على المدينة بشكل دائري، وحولها تنتظم الحياة، وما من مرة أنزل فيها مراكش إلا أسعى مشيًا على قدمي لأزورهم جميعًا، وخاصة سيدي أبا العباس السبتي، وفي عام سبعة وتسعين طفت تابعًا للشيخ الدكتور أحمد الطيب الذي تعلمت منه آداب الزيارة، وممن تعرفت بهم في المدينة، وكان من شيوخها الأجلاء، مصطفى سليطين (تصغير سلطان) وقد جرت بيني وبينه محاورات طويلة استغرقت ساعات، إلا أنني افتقدته كثيرًا خلال زيارتي تلك، فقد خلا العالم منه، توقفت العربة بالقرب من المدخل المؤدي إلى زنقة القصور، وكلمة زنقة أقرب إلى كلمة الدرب في القاهرة القديمة. لقد طلبت من أخي جعفر أن ينزلني في المدينة القديمة، أن أعيشها من الداخل، ما أكثر الفنادق الحديثة والفاخرة! وفي مراكش أحد الفنادق العالمية، المأمونية، لكن المدينة القديمة شيء آخر، بعض

بيوتها القديمة تحولت إلى فنادق، مثل كل بيوت المدينة، لا يوحي خارجها بداخلها، وقفت أمام الباب الذي يبدو مصمتًا، كذلك الجدران، لكن ما إن فُتح وصعدت السلم الضيق إلى الطابق الأول، حتى فوجئت حقًّا، فلو أنني أردت أن أرحل إلى العصور الوسطى للمغرب وبالتحديد في عصر السعديين الذي أعرف عمارته جيدًا، وخطوطه التي تلتف حول الجدران، كذلك الألوان، أعرف عمارة المغرب بثرائها وتنوعها كما أعرف القاهرة القديمة بما حوت، ما إن توسطت الفناء العتيق الذي تحيطه الإيوانات الأربع التي تحملها الأعمدة وتحيطها نقوش الجص الأندلسية، حتى قلت صادقًا: هذا زمني، بينما راحت تتردد داخلي موسيقى الموشح الشهير لأديب الأندلس العظيم لسان الدين بن الخطيب والذي مات محترقًا بعد حياة مأساوية مثل ابن المقفع وغيره من الأدباء الموهوبين، أنشد هذا الموشح الذي يضم واحدًا من أجمل مطالع الشعر على الإطلاق:

يا زمان الوصل بالأندلس..

غـير أنني كـنت أردد

يا زمان الوصل بالمغرب

غير أن خيالي مهما شطح لم يكن بوسعه أن يتصور ما ينتظرني من موسيقى ومن وجد وهيام.

على حافة الصحراء

لا تكتسب الأماكن العتيقة قيمتها من مرور الزمن فقط، لكن من أنفاس الراحلين الذين تقاطروا في المرور عليها عبر القرون، أثق

أن إقامة الإنسان تترك أثرًا ما حتى بعد رحيله، المكان لا يصاغ من الحجارة فقط والنقوش، لكن من الأنفاس، من الحضور الإنساني أيضًا، هذا ما جعلني أطلب الإقامة في المدينة القديمة، إنها عامرة بالميراث، ليس بالمباني العتيقة والتي يتجاوز بعضها جماليات قصر الحمراء في غرناطة الذي بناه الأغالبة القادمون من المغرب، إنما بالميراث الروحي الكثيف الذي يؤطر الزنقات والدروب والأسواق التي يتوالى بعضها في المكان كما تتوالى الأزمنة، سوق الصباغين برائحة الأحماض والقلويات، وسقفه من الخشب وألوان الخيوط المعلقة، سوق الجلود ومن أشهر منتجاته البلغة المغربية، ومن هنا انتقلت إلى السنغال ودول جنوب الصحراء الإفريقية، وتوجد لدينا أيضًا، كان يرتديها التجار وكبار المعلمين في أسواقنا، ثم اقتصرت الآن على خان الخليلي، لا أعرف من أخذ ممن؟ هل أخذ المغاربة عن المصريين البلغة، أم نحن أخذناها عن الحجاج المغاربة؟ لمراكش حضور خاص، إنها من أقوى الأماكن تأثيرًا، مثل صنعاء القديمة، وبخارى، وطبعًا الجمالية، تقع مراكش على التخوم. إنها على حدود الصحراء الإفريقية الكبرى، منها تبدأ الرحلة إلى القارة السوداء، ومنها يتم الصعود إلى جبال الأطلس الكبير، تبدو قمم الجبل مغطاة بالثلوج طوال العام حتى في الصيف شديد الحرارة، مراكش تتوازى مع أسوان، نفس خط العرض؛ لذلك من المشاهد التي تمثل دائمًا في ذاكرتي قمم الأطلس المكسوة بالثلوج البيضاء في يوليو وأغسطس، لعل تجربة المغرب في الحفاظ على المدن القديمة من أنجح التجارب في العالم العربي والإسلامي، ويرجع

الفضل في ذلك إلى جنرال فرنسي رومانتيكي المزاج تعلق بميراث المغرب الروحي والمعماري، للأسف لا أذكر اسمه الآن، لقد منع الجنرال البناء الحديث داخل المدن القديمة، وخطط الأحياء الحديثة بالقرب منها، ساعده على ذلك تكوين هذه المدن التي كانت مخططة على أساس دفاعي، فكأنها لوحة ضخمة من الأرابيسك، من المنمنمات، يصعب اقتحامها مباشرة، في مراكش يوحد لون المدينة، المدينة كلها ذات لون أحمر جرانيتي، يخف درجة هنا، وقد يغمق هناك، لكن اللون في مساره واحد، ورغم واحديته فإنه متنوع للنظر؛ لأن الأحمر في السقف الأفقي لا يمكن أن يكون هو في الجدار الرأسي، الفندق الذي أقمت به أحمر من الخارج، غير أن جدرانه عرض مستمر للنمنمة العربية، للألوان، يطوقها شريط من الكتابة للآيات القرآنية لطراز من الخط لم أعرفه إلا في عصر السعديين يغلب عليه اللون الأزرق ويمتزج بالأصفر والأبيض، الأبيض لون الألوان، أصلها جميعًا، لون العدم؛ لذلك كان المصريون القدماء يعتبرونه اللون الدال على الأبدية، لون الإله أوزير رب العالم الآخر والنماء أيضًا، الغريب أنني وجدت اللون الأبيض في الصين أيضًا رمزًا للحداد وللآخرة، للانتقال، وما زال الطريق الأبيض يشغلني، أقطعه عبر ذاكرتي محاولاً استكشاف دلالاته، في مراكش الأحمر غالب، غير أنه ليس رمزًا للدم، أحمر كصخور الجرانيت، أحمر هادئ، كأنه إشارة إلى مفترق، تمامًا مثل مراكش التي تقع على مفترق طرق، كلها مؤدية إلى نواح هامة، إلى الصحراء، إلى الجبال، إلى المحيط؛ لذلك يبدو حضور آخر غير مرئي، محسوس،

فكأن المدينة تخفي مدنًا داخلها، قوى ذلك الإحساس عندي وجود أقطاب الصوفية السبعة الذين تتوزع مراقدهم حول المدينة، وفي داخلها الزوايا وتقابل التكايا في مصر، غير أنها في المغرب لا تزال عامرة بالصوفية، حجرتي فوق السطح، الفندق كله يضم ست غرف، الغرفة فسيحة من ثلاثة أقسام، سقفها مزخرف، والخشب في مراكش وصناعته أصل من أصول الثقافة المغربية، عالم بمفرده، أمامي سطح فسيح، كنت أحرص على الخروج قبل الشروق، المكان مرتفع، منه أرى كل الأسطح المحيطة، يا سلام! ما أعظمك أيها الإنسان عندما تبدع وتبتكر وتنتقل روحك من عصر إلى عصر رغم الغياب على المستوى الفردي! في أول صباح رحت أتأمل الأفق حيث جبال الأطلس، وتقسيمات البيوت وامتداد الزنقة (الحارة)، ومئذنة الكتيبة، والمآذن الأخرى ذات الطراز المتميز، والذي استوحى منها صناعنا مئذنة «جامع محمد بك أبو الدهب»، كان الهدوء عميقًا، وصرت أتلو بصوت خفيض جزءًا من سورة الرحمن التي تمنحني إحساسًا بالتوازن المجوهر في العالم وأحيانًا داخلي، فما أكثر البواعث التي تزلزلني.

لكل مدينة حركة خاصة بها، تميزها، ربما تنبع من النظم المعمول بها، من حالة الناس، من الميراث الثقافي والحضاري، من تخطيطها، ربما من هذا كله، في صنعاء القديمة تبدو الحركة في المدينة القديمة كأنها تجري في زمن آخر، يتدفق البشر عبر الشوارع الضيقة، حركة طوابير النمل، في شنغهاي وبكين يتجه الناس معًا، حركة القطيع المتشابه، يبدو ذلك أكثر عندما تتوقف

الدراجات عند إشارات المرور، أو عند انطلاقها، في القاهرة تمتزج الحركات فينتج ما يشبه الخليط، الفوضى المنظمة، أو المسارات المتشابكة، في مراكش الحركة أقرب إلى الهرولة، خاصة نهارًا، الكل يسعى بخطى سريعة في أزقة المدينة القديمة، في الشوارع الأخرى، الدراجات بكافة أنواعها، النساء يقدنها أيضًا، الأجانب الباحثون عن الدهشة والمعجبون ومن يرضي غرائزهم! أما ساحة الفنا فكأنها تلخيص لمعاني الحياة وما يجري منها، منذ قدومي إلى المدينة أول مرة عام تسعة وسبعين وأنا دائم التأمل فيها، لقد اعتبرها اليونسكو معلمًا ثقافيًا يجب الحفاظ عليه، وخلال هذه العقود الثلاثة جرى تدخل فيها، أصبحت أكثر تنظيمًا، عربات الطعام متجاورة، عربات العصير والحلوى، حلقات السحرة، ومروضو الأفاعي والحيوانات البرية والأطباء الشعبيون والحكواتية في ناحية، أرض الساحة رصفت بعناية، ربما كان الشكل القديم أقرب إلى مضمونها الذي لا يمكن تحديده، إنها تشتعل بالحركة ليلاً، ولي فيها وقفة أطول، لكن أهم ما جرى وقف البناء الحديث الذي كان يلتهم فراغها شيئًا فشيئًا، لقد رأيت فيها العجب العجاب، رأيت رجلاً يتحدث إلى الطيور بلغاتها والطيور تجاوبه، ورأيت حمارًا يدخن سيجارة، ورأيت أفاعي فتاكة ترضخ لإشارة من إنسان، الساحة مركز أساسي للمدينة، تمنح الحركة فيها خصوصية، إنها أقرب إلى ساحات الموالد المصرية، لكنه مولد مستمر ليلاً ونهارًا، فيه كل جدية الحياة وعبثيتها وغموضها على من يحياها ويسعى بها وفيها، كذلك المدينة التي تتدفق فيها حركة البشر والحيوانات،

وفي الليل تصبح هيكلاً ضخمًا للأسرار، فيما عدا الهائمين على وجوههم الذين يتمددون فوق المصاطب وأمام الزوايا، والعابرين الذين يتملكهم الفضول.

الأربعاء ليلاً: قبة الأمراء

يتقن جعفر الكنسوسي، والمثقفون من أهل مراكش، وأبناؤها، إبراز كنوز مدينتهم للأغراب، كل حفلة في مكان له سمت خاص وتاريخ وحضور مغاير، كل محاضرة في بناء يستوقف النظر. في هذا العام تم التركيز على جماليات النخيل، ربما لأن مراكش مثل الصعيد عندنا تحوي ثروة من النخيل، ربما لأن الرؤية الصوفية تولي النخيل اهتمامًا خاصًا، ربما للحديث النبوي الشريف الذي يأمرنا بإكرام عمتنا النخلة، في الميراث الصوفي يقال إن الله بعد أن خلق آدم من طين بقيت قطعة صغيرة، منها خُلقت النخلة. وليس مثل النخيل باعثًا على حنيني واستعادتي اللحظات التي لن أتمكن من إرجاعها أبدًا، ربما لارتباطه بالصعيد، كان لأبي عليه رحمة الله نخلات متفرقات في جهينة، كان يصحبني طفلاً ويعرفني بها كأنه يعرفني بإنسان. فقدت أثرها الآن، والساحة التي كانت تطل منها الجذوع الموحية بالأبدية ما بين ترعة البير وبيوت ربع حسام الدين ظهرت فيها عمارات الخرسانة، أما النخيل فقد أهمل في الصعيد كله بعد سفر الرجال للعمل واختفاء المتخصصين في تشذيب النخيل وانتزاع الجريد الميت، الآن أرى النخلة مثقلة بما تراكم عليها من جريد تيبس ويعوقها عن الإنجاب، أي طرح البلح، ولأن التلقيح

لا يتم، فهذه ثروة قومية مآلها إلى انقراض في مصر. وأنواع البلح في مصر لا حصر لها وتتفوق على أنواع شهيرة في العالم العربي، لكنها لم تجد من يفهم قيمتها ويستثمرها كما حدث في الإمارات عندما أولى الشيخ زايد -رحمه الله رحمة واسعة- النخيل عنايته واهتم بزرع أنواع نادرة منه، الآن الإمارات من أهم مصدري التمر في العالم، أما أجمل ما عرفته منه فيأتي من الجزائر، نوع ينمو في الجنوب، اسمه دفلي نور، والثمرة منه مستطيلة، إذا عرضتها للضوء تبدو النواة وكأنها تسبح في ضوء أصفر رزين، كهرمان مصهور معجون بسكر كوني، ليس لمذاقه مثل، أما البلح السكوتي في أسوان فلم ندرك قيمته، ولا أدري مصدر الاسم، للنخيل في مصر وعالمنا العربي حديث طويل، وأعتقد أن رصانة النخيل، وثباته أصل لشكل المسلة، وبعض طراز أعمدة المعابد، وفي العمارة القوطية، خاصة في الأندلس، وجنوب فرنسا، تبدو أعمدة الكنائس وكأنها نخيل تجمد فجأة فأصبح حجرًا. في المكتبة العربية القديمة مؤلفات عديدة عنه، أشهرها كتاب السجستاني من القرن الرابع الهجري، وفي الأدب الحديث نص بديع أنا مفتون به، كتبه الراحل عبد الفتاح الجمل في كتابه البديع الفريد (آمون وطواحين الصمت) عن النخيل بعد رحلته إلى السلوم وسيوة، ليت العزيز الدكتور فوزي فهمي يصدره في مكتبة الأسرة. في مراكش اهتموا بالنخيل، اعتنوا به، وطبقوا الطرق العلمية الحديثة كما فعلت دولة الإمارات، وفي إطار المناسبة التي أحضرها، أقامت جمعية بنية مراكش معرضًا للفوتوغرافيا، خصص كله للنخيل، أقيم حفل الافتتاح في قبة

الأمراء، حديقة شاسعة، والحديقة هنا يطلق عليها الرياض، تتوسطها بحيرة ضخمة، يطل عليها بناء أندلسي الطراز يتوجه قبة جميلة. في الحديقة جرى حفل الافتتاح، اكتشفت وجود الفنان انتصار عبد الفتاح الذي جاء على رأس فرقة للإنشاد الديني، جمع أفرادها من ريف مصر، فأخرج كنوزًا. ولي وقفة أطول مع تجربته، وما يقوم به في قصر ثقافة الغوري، الذي يتولى إدارته الآن، وخُصص ليصبح مركزًا للتراث الإنشادي والموسيقي المصري، صافحت الأصحاب الذين لم ألتق بهم منذ سنوات، وجه إليَّ صاحبي جعفر تحية حارة في كلمته، ثم بدأ الجوق (يعني الفرقة) المغربي بقيادة الأستاذ الحاج محمد عز الدين، وهو صديق عزيز، من حماة الموسيقى الأندلسية، مقامه ومكانه في ضريح سيدي «أبو العباس السبتي» حيث الحضرة التي تسبق صلاة الجمعة والتي كانت أحد أهدافي التي جئت من أجلها المغرب، بدأت الموسيقى الأندلسية بوصلة طويلة، مطلعها بعد الموسيقى شعر من نظم سيدي «أبو مدين الغوث» (يا لجمال الاسم!).

صلاتك ربي والسلام على النبي

صلاة بها نرجو الزيادة والحسنى

فيا حادي العشاق قم واحدُ قائمًا

وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا

رأيتهن!

رأيتها

كانت مثل زميلاتها الأربع الأخريات، نحيلة جدًّا، كأنها عصا ارتدت ثوبًا، ملامحها مستطيلة، تبدو خلال مشيها وكأنها تحاول الاختباء من شيء ما، كلهن يرتدين السواد ويغطين شعورهن بحجاب خفيف أشبه بالطرحة التي كانت تؤطر وجوه بنات البلد، جئن من إيران للمشاركة في برنامج جمعية منية مراكش، كيف عرف سي جعفر الكنوسي طريقه إليهن؟ تمامًا كما عرف الطريق إلى انتصار عبد الفتاح والفريق الذي كونه من أصوات مصرية نادرة اكتشفها من ريف مصر، ولي حديث طويل عنها فيما بعد.

ثلاث عازفات، النحيلة جدًّا تمسك بطار أشبه بالغربال، لكنه أكبر حجمًا، الثانية تجلس إلى قانون، والثالثة إلى كمان، أكتب الآن بعد حوالي شهر من عودتي إلى القاهرة فأرى أولاً النحيلة عازفة الطار، والتنبك، والتنبك طبلة إيرانية ذات إيقاع خاص مهيب، أعرف شخصيًّا أساتذة العزف عليها. ومنهم جمشيد الأب، والابن، التقيت بهما في مهرجان الموسيقى الدولي السنوي برويامو بفرنسا، لا أذكر النحيلة لأنها الأجمل، فلم يكن في ملامحها ما يلفت النظر، الأجمل أكبرهن سنًّا، إنها المنشدة، تتوسطهن، إنه جمال العمر المتقدم، الذي تتجسد فيه رهافة الأنوثة والجلال الجميل، وما يضفيه الداخل على الخارج، لم يكن في النحيلة ما يلفت النظر، كنت مشغولاً بتأمل الفرقة النسائية التي جاءت من إيران، وأفكر في

إثراء العالم الإسلامي الذي لم نصدر إلى العالم منه إلا الجانب المنفر بسبب التشدد وأحادية النظرة وانغلاق الأفق الإنساني، وما أسعد أعداء الإسلام بذلك! في البرنامج الذي أعدته جمعية مراكش يبدو أن القائمين عليها، خاصة من يدعمهم الدكتور أحمد التوفيق وزير الأوقاف وهو مثقف كبير، ومحقق عظيم للتراث، وأديب بارز، يبدو أنهم وضعوا في اعتبارهم هذا البُعد؛ إبراز الثراء الروحي للميراث الإسلامي العظيم، شديد التنوع، ها هي فرقة نسائية تمامًا تجيء من إيران، متخصصة في إنشاد أشعار مولانا جلال الدين الرومي، لم أتوقع ما سمعته ورأيته منهن، ذلك أني كنت لا أعرفهن ولم أسمع بهن رغم متابعتي للموسيقى الإيرانية وصلتي ببعض أمهر عازفيها، رحت أرقبهن وهن يضبطن آلاتهن الموسيقية، كنت أستدعي مولانا وما يتعلق به حتى يبدأن، وكنت ألحظ قلق البنية النحيلة جدًّا أثناء تبديلها الطار والتنبك، ومحاولة ضبطهما، وأتساءل: ماذا يمكن أن تقدمه هذه البنية التي تبدو كظل رهيف أكثر منها كأصل؟!

مولانا

هكذا أنطق اسمه، فعندما أقول مولانا- مثلي كمثل الملايين من محبيه في العالم- إنما أعني جلال الدين الرومي لا أقصد وليًّا آخر. وُلِد في مدينة بلخ الموجودة الآن في أفغانستان، وكانت جزءًا من فارس القديمة؛ لذلك كانت لغته هي الفارسية، وُلِد في القرن السابع الذي شهد عدة أحداث كبرى انعكست على العالم الإسلامي، تعرضت فارس لغزوة التتار التي دمرت بغداد، وفي منطقتنا وصلت

الحروب الصليبية إلى قرب نهايتها، اضطر والده الذي كان عالم دين وأستاذ تصوف أن يرحل بأسرته في رحلة طويلة، انتهت إلى قونية بالأناضول، كانت الثقافة الإسلامية متصلة، يعرف العلماء بعضهم بعضًا، وكان الترحال جزءًا من التكوين، وكان العالم يقصد بلدًا تسبقه شهرته، فيلقى كل ترحاب، هكذا جاء ابن خلدون وكبار علماء المغرب إلى مصر والمشرق فاحتلوا أسمى المراكز؛ لفضلهم وعلمهم. كان الأمر كذلك في سائر العالم الإسلامي، خرج مولانا من قونية راحلاً لمدة سبع سنوات، أقام في حلب واتجه إلى دمشق للقاء شخصية عظيمة عاشت في نفس الفترة؛ الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ويُقال إنه أثناء رحلة أسرته من بلخ إلى قونية مروا بدمشق، وكان مولانا طفلاً صغيرًا يمشي وراء والده، وعندما رآهما الشيخ الأكبر صاح متعجبًا:

«سبحان الله، محيط يمشي خلف بحيرة!».

أول تعرفي على مولانا، كان من خلال المجلد الرائع الذي صدر في الستينيات بترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال، «مختارات من الشعر الفارسي»، ثم قرأت المجلد الأول والثاني من ترجمة عمله الأشمخ «المثنوي» بترجمة الدكتور محمد عبد السلام كفافي، وقد طبعا في بيروت، ثم أكمل تلميذه الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا «المثنوي» وصدر كاملاً عن المشروع القومي للترجمة، لقد تأخر هذا العمل العظيم عن اللغة العربية سبعة قرون كاملة، وبعد صدور «أخبار الأدب» اقترحت على الدكتور شتا ترجمة الأثر الثاني الفريد لمولانا «غزليات شمس تبريزي» وكله قصائد في العشق الإلهي

كتبها بوحي من شيخه وأستاذه شمس تبريزي والذي ربطته بمربيه العبقري علاقة فريدة، كان اقتراحي للدكتور شتا أساسه أنني كنت راغبًا في قراءة هذا الأثر النفيس من ناحية، وتقديمه إلى القراء العرب انطلاقًا من مبادئ أسست عليها الجريدة، ومنها الاتصال مباشرة بالآداب الشرقية والإفريقية والأمريكية اللاتينية، في رأيي أن عدم الترجمة المباشرة من الفارسية ولغة الأوردو والبلوش والتاميل يعكس جوانب تقصير في ثقافتنا العربية، بدأ الدكتور شتا ترجمة غزليات شمس تبريزي في أخبار الأدب.

وأتم منها ثلاثمائة وثماني عشرة غزلية نشرت في أخبار الأدب، ثم صدرت في مجلدين من المشروع القومي. وما تزال ألف وسبعمائة غزلية في انتظار من ينقلها إلى العربية، ذلك أن الأجل أدرك الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا وهو في أوج عطائه، رحمه الله رحمة واسعة، وأتمنى من الدكتور جابر عصفور إعادة إصدار ما ترجمه من الفارسية، خاصة أن بعض ما قدمه فُقد منذ وقت طويل، وأخص بالذكر «حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة» لسنائي، وسيرة ابن خفيف.

رحت أتتبع كل ما ترجم إلى اللغة العربية من أعمال مولانا، واهتديت إلى ما نقله الأستاذ السوري عيسى العاكوب والذي ترجم الرباعيات الشعرية، وكتاب «فيه ما فيه» الذي بهرني عنوانه ومضمونه، «المثنوي» عمل من أعمال قليلة تصاحبني دائمًا، أعود إليه باستمرار، وهو من أعمال تُعد على أصابع اليد الواحدة تصالحني على نفسي عند الضيق، وعند الوقوف على شفا، أما موسيقى المولوية

فهي مما أعالج به روحي، في العام الماضي احتفل العالم كله بمرور ثمانية قرون على ميلاد مولانا، وأقيمت احتفالات في العديد من العواصم، وكان الاحتفال الوحيد في العالم العربي، صدور عدد خاص من أخبار الأدب عملنا من أجل إتمامه عدة شهور.

اندلاع الحريق

الليل يتقدم بنا في حديقة قبة الأمـراء، تتأهب الفرقة النسائية الإيرانية لتقديم قصائد مولانا منشدة، ملحنة، تبدأ الموسيقى، مقدمة سريعة تبدؤها السيدة النحيلة، تمسك بالطار، ترفعه إلى أعلى، تبدأ، وإذا بهذه الرهيفة تشعل في الوجود حريقًا من نغم، كانت تمسك الطار بيد والأصابع تعمل، أما أصابع اليد الأخرى فتتحرك بخفة مذهلة مطلقة من هذا الإطار شرر الروح، لم أكن أسمع فقط إنما كنت أرى، أرى بما ينبعث من أناملها من أنغام، وكنت أحاول متابعة حركتها التي يعجز البصر عن ملاحقتها، تذكرت أصابع جمشيد على التنبك، إنها معجزة الإنسان، رفعت الطار إلى أعلى وتبدلت حركة أصابعها فإذا بنغم مغاير له وشيش كموج البحر عند مناطحة البر خلال العاصفة، أدركـت عندئذ مصدر هذا الصوت الذي أسمعه في الموسيقى الإيرانية، داخل الطار شراشيب معدنية صغيرة لا تتحرك إلا عند تغيير طريقة عزف الأنامل، بعد لحظات لم أكن قادرًا على تمييز حضور النحيلة من حضور الموسيقى، هي نفسها أصبحت موسيقى، سبحان الله، يضع سره في أضعف خلقه كما يقول المصريون.

لم يكن عزفها الماهر إلا تمهيدًا للكمان والقانون، عندما بدأ كل منهما غيرت في لحيظة الطار بالتنبك، وهذا أعرفه جيدًا، كأنها أصبحت شخصًا آخر، مع وصول الموسيقى إلى الأوج بدأت تخفت مفسحة الطريق للصوت البشري، تقدمت الجليلة بدون أن تتحرك، توجهت بملامحها إلى السماء المبسوطة فوقنا، وبدأت تنشد قصائد مولانا بالفارسية، أصبح وجهها الجميل المتقدم في العمر أضوى، أعمق جمالاً، وشيئًا فشيئًا اتَّحدَتْ بما تقوله، كما تحولت النحيلة إلى شعر، أصبحت الجليلة شعرًا مما تنشده، لقد أطلقت عليهما تلك الأوصاف لأنني لم أعرف عنهما أي شيء، لم أتبادل معهن كلمة، ولم أسأل سي جعفر عنهن. أحيانًا لا أريد المعرفة لأعرف أكثر. إبقاء بعض الأشياء بعيدة في دائرة المجهول يقربنا أكثر من الجوهر، ربما كان هذا حالي مع الشعر الذي أسمعه بلغته التي لا أعرفها، أحب إيقاع الفارسية وموسيقاها، لكنني لا أعرفها، لم أكن أعرف ماذا تنشد بالضبط من أشعار مولانا، لجأت إلى ما أفعله مع الأغاني العربية، اعتدت أن أحفظ الألحان أكثر مما أحفظ الكلمات، إنني أصون في روحي كل ما أنشدت ليلى مراد، وفي صميم انفرادي أستدعي الألحان لأنطقها بصوتي، لا أعرف الكلمات، عندئذ أقدم على تأليف نصوص من عندي تساير اللحن، هنا أذكر واقعة لعلها تفسر أمري، قبل سفري لإجراء الجراحة في القلب عام ستة وتسعين، مررت بأحوال وإعداد للنفس بحيث كنت راضيًا، متقبلاً لكل آت، واستغرقت داخل ذاتي ململمًا كل ما كان مني، عندما دنا السفر أتاني زميلي وصديقي عزت القمحاوي بشريط جاء به من قطر لمطربة

إيرانية اسمها هايدي، الشريط اسمه مسافر، سمعته مرارًا واصطحبته معي، كنت أسمعه وأدمع بغير دمع ولا أعرف لفظًا مما أصغي إليه، كانت تعبر عن صميم حالي، عما لا أقدر على التعبير عنه لأحبابي باللفظ، بعد أن قدر الله عودتي إلى موطني، زارني المرحوم الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا، أعطيته الشريط، طلبت أن يترجم لي أغنية «مسافر» لأعرف ما بها. عاد إليّ بعد أسبوع بالترجمة، فوجئت، المعاني التي قرأتها هي عينها التي شعرت بها. ضمنت ذلك في كتابي يوميات القلب المفتوح، والذي سجلت فيه بدقة ما جرى.

في مراكش، في قبة الأمراء، رحت أصغي إلى الجليلة الجميلة، أتنقل بين ملامحها التي تنصهر في الشعر وينصهر الشعر فيها، وبين أنامل النحيلة التي انطلقت منها نافورة الموسيقى، كنت أستعيد أشعار مولانا التي أحفظها عن ظهر قلب، وأتخيل الجليلة تنطقها. لم أشأ أن أعرف ما تقول، لكن كلي ثقة أن ما قلته لم يبتعد كثيرًا عما أنشدته، عندما يشتعل الحريق في أرواحنا تنتفي اللغة، يمكن أن نفهم كل شيء بدونها.

الأربعاء

مما أطيل التأمل فيه خلال تجوالي بالقاهرة، العلاقة بين الحياة والموت، أشد المناطق حيوية تلك المرتبطة بالأضرحة حيث يرقد الأولياء الصالحون، الحسين، السيدة زينب، السيدة نفيسة، الإمام الشافعي، السيدة عائشة.. إلخ، ضجة الحياة وعنفوانها حول المراقد التي يقوم حولها وفوقها البناء الأشم، المساجد، القباب، المآذن، بكل ما تحوي من فنون إسلامية، عربية، تضم الميراث كله من العصور النائية

مرورًا بالمصريين القدماء ومن حلوا بالديار، ثنائية الحياة والموت ما استوقفني دائمًا، أما أسماء الأولياء فأطلقت على الأماكن، نقول «أنا رايح الحسين» «أنا رايح أم هاشم..» «أنا جاي من الإمام»، المصريون حوَّلوا الأسماء إلى أماكن، وهذا قمة التعلق والتثبيت، فالمكان يبدو ثابتًا والزمان ينقضي، وإن كنت أثق الآن من انقضاء الاثنين معًا، فليس المكان إلا الوجه الآخر من الزمان، هذا مما يطول الحديث فيه.

الأضرحة في مصر ملاذ، ملجأ لمن خرجوا عن الدنيا، وللمكروبين وأصحاب التقوى والغرباء، أي قادم من ريف البلاد ينزل المدينة الضخمة، إلى أين سيمضي؟ هل سيذهب إلى جاردن سيتي؟ إلى الدقي؟ إلى العباسية؟ لا .. سيمضي إلى الحسين، هنا إنما يلجأ إلى المكان وإلى الإنسان، والإنسان هنا غير عادي، إنه ابن بنت رسول الله، الشهيد الأجل، في الحسين لابد أن يلتقي الغريب بالغريب أو بالقريب، سيجد من يساعده، وإذا ضاق به الحال يمكنه أن يتمدد بالقرب منه، إنني أتحدث عن الوقت الذي انتهى مع بدايات السبعينيات قبل ظهور موجات التشدد وما صاحبها من تشديد أمني، وتزايد السياحة مع ظهور متطلباتها، التي لا تخلو من افتعال.

البلد العربي الذي وجدت فيه نفس الحالة بكثافة، المغرب، تنتظم الحياة في مراكش حول مراقد السبعة رجال الموزعين على المدينة القديمة، أشدهم قربًا إلى نفسي الإمام الجزولي، والقاضي عياض، وأبو العباس السبتي، والأخير مختص برعاية أصحاب العاهات؛ لذلك يمتلئ الطريق إليه بالمُقْعَدين وفاقدي البصر أو الأطراف، وحول الضريح تقوم منشآت خيرية ينفق عليها من أموال الأوقاف

والخير، لذلك تبدو المراقد والزوايا في المغرب ذات وظيفة خاصة مختلفة عن مصر، ليست الرعاية الاجتماعية فقط. واعتبار ما يحيط بها مناطق آمنة، فلو لجأ إنسان متهم بفعل ما، حتى لو كان التمرد ضد السلطة وأعلن أنه يستجير بسيدي فلان، لن يقترب منه أحد، كذلك لعبت الزوايا دورًا هامًّا في الحفاظ على اللغة العربية، وترسيخ الإسلام، ونشره فيما وراء الصحراء، والدفاع عنه ضد الهجمات الغربية، خاصة من إسبانيا والبرتغال، والمحاربون المغاربة لهم شهرة كبيرة في الشجاعة سواء كانوا عربًا أو من الأمازيغ (البربر)، لقد حمى المغاربة عروبة وإسلام شمال إفريقيا، وبسطوا حمايتهم على المضطهدين، خاصة اليهود الذين خرجوا من الأندلس مع المسلمين، وفي جميع المدن المغربية يوجد حي خاص بهم اسمه الملاح ملاصق للقصر الملكي، رمز الحماية.

في هذه الزيارة كان أحد أهدافي زيارة أبي العباس السبتي، وشهود الحضرة صباح الجمعة التي يقودها سيدي محمد عز الدين، وقد أمضيت فيها وقتًا رائعًا عام سبعة وتسعين، عندما أعود إلى مكان ألفته وأحببته بعد غيبة سنوات أحمد الله كثيرًا، فكم من الأماكن فارقتها وأنا على يقين أنني لن أراها مرة أخرى، إما لبعد الشقة، أو لقصر الوقت.

الجمعة

أبو العباس السبتي

سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي، أكبر أولياء المدينة وأشهر رجالاتها السبعة، ولد بمدينة سبتة (ولد بها أيضًا

سيدي عبد الرحيم القنائي) سنة 524 هجرية، وتوفي في مراكش سنة ستمائة وواحد. ينتسب إلى أسرة فقيرة دفعت أمه إلى إلحاقه بدكان خياط ليتعلم حرفة مقابل أجر، لكن الصبي النبيه كان محبًّا للعلم، فراح يفر إلى كُتَّاب الشيخ الفخار، ولحرصه على التحصيل عرض الشيخ على أمه أن يدفع لها الأجر الذي كان يتقاضاه من الحائك، مقابل تركه لتحصيل العلم، حفظ القرآن والرسالة وفنون الأدب. كان كثير السؤال، وفي أحد الأيام سأل شيخه عن معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ فتعجب الشيخ وقال «ليكونن لهذا الشاب شأن»، وفي أحد الأيام وزع الشيخ على تلاميذه طيورًا، قال لكل منهم، اذهب واذبحه حيث لا يراك أحد، عاد أبو العباس إلى شيخه ليقول «لم أجد مكانًا لا يراني فيه أحد»، ثم بدأ الطريق، أمضى في الخلوة أربعين عامًا، وانتهى به الحال في مراكش، كان مذهبه القائم على الإحسان فاعلاً في الحياة الاجتماعية.

في المغرب يتمركز الصوفية في الأربطة والزوايا، والرباط هو الحصن الذي يقوم على التخوم، ويقيم فيها الصوفية للجهاد، عند الفقهاء يعني الرباط حبس النفس للجهاد والدراسة، أما الصوفية فيجمعون بين الجهاد والعبادة، والمرابطون هم الذين يحرسون الثغر في سبيل الله، أما الزاوية فالكلمة تعني القبض أو الجمع، ومنها الانزواء، أي العزلة والابتعاد عن الناس، والزاوية تعني أيضًا المسجد الصغير مقابل المسجد الكبير، وهي مكان لإيواء الغرباء والمحتاجين، في مراكش تتوزع الزوايا على المدينة لتشكل الركائز الأساسية للحياة اليومية فيها، في مصر نعرف الخانقاه التي يقيم فيها كبار المتصوفة ومريدوهم، كانت الخانقاوات في قلب المدينة وهنا

عنصر تشابه مع مراكش، وإما أن تقوم في الخلاء مثل خانقاه فرج بن برقوق في قايتباي، الآن لم تعد هناك خانقاوات مسكونة بالصوفية في مصر، لكنها في المغرب ما تزال تؤدي دورًا دينيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا إيجابيًّا، هذا الإرث الروحي الثري يجري دعمه وإحياؤه من خلال وزارة الأوقاف التي يتولاها مثقف وأكاديمي بارز هو أحمد التوفيق. غير أن الدور الأعمق للصوفية في مصر والمغرب يتلخص في اتساع الرؤية الإيمانية وإبراز الجوهر الدقيق للإسلام القائم على تقبل الآخر، والقدرة على استيعاب الرؤى القديمة للوجود، ما ظهر منها وما خفي في وجدان الناس.

ها أنذا أعود إلى مراكش، اليوم الجمعة هو التاسع من مايو، للمرة الثانية يحل عيد ميلادي في مراكش، كنت حائرًا، هل أمضي إلى الحضرة في الزاوية التيجانية الكنسوسية وتلك لم أشهدها من قبل، أم أمضي مباشرة إلى الزاوية العباسية لأستعيد لحظات أمضيتها عام سبعة وتسعين، بطبعي أميل إلى المكان الذي عرفته من قبل، إنه جزء من حنيني إلى وقتي الذي لن يعود، كيف أوفق إذن؟ قررت أن أحضر ولو نصف ساعة في الزاوية التيجانية ثم أمضي بسرعة إلى العباسية، أمامي ثلاث ساعات سابقة على موعد صلاة الجمعة عامرة بالأمداح والإنشاد في زوايا مراكش كافة.

الجمعة صباحًا

ما بين الزاويتين

على باب الزاوية التيجانية القريبة من الفندق كان أخي جعفر الكنسوسي يقف مرتديًا الجلباب المغربي، الصحن المكشوف

مستطيل، تحفة الأشجار، ثمة إحساس عميق بالصفو، بالسلام، بدأت الأمداح النبوية، يتوسط القوم منشد يضبط الإيقاع ويقود الانتقال من فقرة إلى أخرى، يتوافد القوم، تجارًا، حرفيين، مثقفين، يعرفون بعضهم، أبادلهم التحية، بعد ثلاثين دقيقة تمامًا استأذنت، خرجت بصحبة الصديق عبد العزيز تيلاني القادم من الرباط حيث يعمل بدار الوثائق الملكية، وهو ممن قابلتهم عام سبعة وتسعين، انتقلنا إلى حيث الزاوية العباسية التي تقع في الجانب الآخر، وفي منطقة شعبية، الطرقات المؤدية إليها مسكونة بذوي العاهات، لقد اهتم أبو العباس السبتي بهؤلاء الضعفاء، وأقام مذهبه على أساس الإحسان، لقد استجاب له الناس، والتزم الفلاحون بتقديم جزء من منتوجاتهم إلى الزاوية لتوزيعها على الفقراء، كان أبو العباس لا يطيب له طعام، ولايركن إلى نوم إذا بقي أحد سكان حيه دون أكل أو غطاء، ولا تزال طريقته تقوم على مبدأ الإحسان، إنه أهم أولياء المدينة وحاميها، إنها نفس العلاقة التي نجدها في مصر حيث يقوم الولي الراحل بدور في حياة الناس خاصة الضعفاء أهم مما يقوم به بعض الأحياء من ذوي النفوذ.

أعبر الصحن المكشوف إلى داخل القبة التي يقع تحتها الضريح. إنه بمستوى الأرض، لا يوجد شاهد مرتفع أو مقصورة حوله مثل أضرحة أوليائنا، يوجد فقط ما يشبه الإطار حوله لتحديد المكان، وأعمدة قصيرة من النحاس، في نفس الركن الذي جلست فيه منذ أحد عشر عامًا أقعد مستندًا إلى الجدار، طبعًا بعد مصافحة القوم، خاصة سي محمد عز الدين، قائد الجوق العباسي للموسيقى الدينية

والذي افتتح الأنشطة في قبة الأمراء، ها هو مرة أخرى، في نفس الموضع كما رأيته أول مرة منذ أحد عشر عامًا، إنه متخصص على درجة عالية من المهارة والخبرة وجمال الصوت، يحيط به القوم، من أهل مراكش عامة والناحية خاصة، كلهم يحفظون قصائد المديح الأندلسية والمغربية عن ظهر قلب، كذلك دلائل الخيرات التي نظمها الإمام الجزولي وأصبحت من أشهر قصائد المديح الإسلامية، ولها فرق متخصصة في إنشادها بالمغرب، إن القوم لا يجيئون باعتبارهم سوف يستمعون إلى إنشاد ديني له طابع احتفالي، لكنهم يمارسون طقسًا من طقوس الحياة اليومية، منذ طفولتهم يتدربون على حفظ الموشحات والقصائد في الزوايا، أما نحن فنمضي إلى المسرح أوربي الشكل لنسمعها من فرق الموسيقى التي يرتدي أفرادها الردنجوت ورباط العنق الإفرنجي، ويقودهم موسيقار يماثل قائد الأوركسترا الغربي، هذا الوضع الذي نشأ مع ظهور الإذاعة وتزايد بعد إنشاء فرقة الموسيقى العربية في نهاية الستينيات ضد طبيعة الموسيقى العربية التي تقوم على الارتجال وحرية التصرف بين العازفين؛ لذلك كانت التخت أنسب الأشكال لهذه الموسيقى، سواء كانت دينية أو دنيوية، في الزوايا المغربية ما تزال تحتفظ بطبيعتها. مركز القوم شخص واحد فقط متخصص في الأغلب، إنه المركز، كل شيء لابد له من مركز، للإنشاد إيقاع خاص يبدأ هادئًا، القصائد مختارة بدقة وعناية، كلها تدور حول الحب الإلهي وحب الرسول الكريم، بعض القصائد المشهورة في الشعر القديم حول

الحب والخمريات أسمعها بتأويل صوفي، فالخمر عند الصوفية ليس بالمعنى المادي الشائع، لكنه يعني الغياب عن الوعي بأي شيء عدا الاتجاه فقط بالوجدان كله إلى الله سبحانه وتعالى، أجلس بين القوم مرددًا القصائد، ما أعرفه منها، وما لا أعرفه أكتفي بالإصغاء مع تحريك الشفاه بالنغم، يراودني شعور قوي بحضور سيدي أبي العباس السبتي الكثيف بيننا، إنه يرقد هنا على مقربة في مستوى الأرض، مرقده مغطى بقماش أخضر نُقش عليه آيات قرآنية، القبة الشاهقة درة من درر العمارة المغربية الأندلسية، مشكلة المغرب أن كنوزه تلك غير معروفة، إسبانيا تتيه فخرًا الآن بقصر الحمراء وتربح منه مليارات الدولارات سنويًّا، في المغرب آلاف الحمراوات، لكن لا أحد يعرفها، ربما لضعف الدعاية، وربما للانفصال الحاد بين شطري المتوسط، دائمًا أقول إن فنانًا عظيمًا مثل محمود سعيد لو أنه عاش في باريس لأصبح من أعلام الفن التشكيلي في القرن العشرين، إنها المركزية الأوربية التي حجبت عن البشرية كنوزًا فنية رائعة لم تعرف على نطاق واسع لأنها لم تعرف من خلال أوربا.

مع اقتراب صلاة الجمعة، يتصاعد الإيقاع، تتوالى الانفعالات، ثمة رجل يخدم القوم، نحيل، بخطواته عرج خفيف، يوزع أكواب الأتاي (الشاي الأخضر المخلوط بالنعناع) على جميع الحاضرين مجانًا، لا يكل ولا يمل، أحمد الله أنني رأيته بنفس الحيوية. فجأة، يعلو بكاء أحد الحضور، يتزايد الوجد بآخر، تتوالى الانفعالات الصادقة التي يثيرها الشجن وليد الأشعار التي ترقق النفس والإيقاعات

المنغمة التي تصل بالإنسان إلى حالة من الصفاء الداخلي الذي يعسر وصفه.

أحد دواعي سروري وإضفاء البهجة على قلبي.

26 القُرب من السماء في الأطلس

في الأطلس الكبير

لا أذكر أول مرة قرأت أو سمعت فيها اسم الدكتور أحمد التوفيق، المؤكد أنه ارتبط عندي بكتاب هام، بدونه لا يمكن أن نفهم الثقافة الروحية للمغرب، أعني «التشوف إلى أهل التصوف» لأبي يعقوب يوسف بن يحيى الشاذلي المعروف بابن الزيات، توفي عام 617 هجرية، الكتاب مثل مؤلفات أخرى تتعرض للجانب الروحي والتاريخي، في بلاد عربية أخرى، في السودان مثلاً كتاب «طبقات ود ضيف الله»، تأليف محمد النور بن ضيف الله، توفي عام 1121 هجرية، هذا أيضًا مفتاح لفهم السودان وحياته الروحية في ظل الإسلام، الكتاب الثالث «طبقات الخواص؛ أهل الصدق والإخلاص» تأليف أبي العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي المتوفي عام 893 هجرية في مصر، هذه الكتب مفاتيح مضيئة لفهم الجانب الروحي في تلك البلدان، أما مصر فكتب

الطبقات فيها عديدة لعل أشهرها «الطبقات الكبرى» للشعراني.
إن المقارنة بين هذه المؤلفات الكبرى سوف تكشف عن جوانب هامة، أهدي الفكرة لأحد الباحثين في تاريخ التصوف خاصة، والإسلام عامة، قرأت كتاب التشوف عام خمسة وثمانين من القرن الماضي أي بعد صدور طبعته الثانية التي حققها الدكتور أحمد التوفيق الأستاذ وقتئذ بكلية الآداب، جامعة الرباط، قدمت الكتاب في الأخبار، وفي أكثر من مناسبة، إنه يحكي تاريخ رجال التصوف وما ارتبط بهم من أخبار وكرامات وسلوكيات، في التسعينيات قرأت روايتين للدكتور أحمد التوفيق، «جارات أبو موسى» و «شجيرة حناء وقمر» وقد بُهرت بهما، وقدمت الثانية إلى صديقي فاروق مردم بك مستشار النشر في دار أكتوسود بفرنسا، ولكن المؤلف كان قد تعاقد على ترجمتها مع دار أخرى، الروايتان تكشفان عن عالم البربر في المغرب، وهو عالم مجهول لقراء العربية لم يتناوله الأدب من قبل، في شمال إفريقيا ودول المغرب العربي قوميتان، البربر أو الأمازيغ وهم سكان البلاد الأصليون ويتكلمون لغة خاصة ذات لهجات مختلفة، والعرب الذين استقروا بعد الفتح الإسلامي، اعتنق البربر الإسلام وذادوا عنه ونشروه، ومن جبال الأطلس خرج (الموحدين) لتأسيس دولتهم الكبرى، وهذا تاريخ طويل، بالطبع حاول البعض اللعب على وجود قوميتين؛ لذلك كان الملك الحسن شديد الحكمة عندما قرر اللغة الأمازيغية في المغرب إلى جانب العربية، والمتابع للتليفزيون المغربي يمكنه أن يصغي إلى نشرة الأخبار بثلاث لهجات أمازيغية، إن تاريخ الأمازيغ عريق، ودورهم عميق، ومن ملاحظاتي الأولى أكاد أثق أن ثمة صلة بين هؤلاء القوم

والمصريين القدماء، كثير من مفردات اللغة الأمازيغية تعود أصولها إلى اللغة المصرية القديمة، كذلك الملامح، أثق من وجود صلة، لكني لا أدري مفردات جذورها، المراجع التاريخية لا تفصح عن كثير، إن السياسة العامة في المغرب، والثقافية خاصة بالمعنى العام شديدة الانفتاح وتشجع على التنوع والتفاعل، وهذا إيجابي في بلد ثري ثقافيًّا بعناصره المختلفة وباعتباره ممرًّا للثقافات الإفريقية والمتوسطية والأوربية، ومركزًا وحصنًا للثقافة الإسلامية عند تخوم العالم القديم. ها أنذا أتأهب لصعود الأطلس، دعاني الدكتور أحمد التوفيق إلى زيارة خاصة في داره بالقرية التي وُلد فيها، لقد أسند الملك محمد السادس وزارة الأوقاف إلى الدكتور أحمد التوفيق، والملاحظة العامة أن السياسة الداخلية المغربية تتميز بذكاء شديد، ودقة اختيار للأشخاص الذين يتولون المسئولية، هكذا كان محمد بن عيسى في وزارة الثقافة ثم الخارجية، وهكذا كان اختيار المستشار الاقتصادي يهودي الديانة، ولليهود وضع خاص في المغرب، ومنذ خروج المسلمين واليهود من الأندلس معًا، المغرب يتولى حمايتهم ورعاية حقوقهم، وهذا أحد الجوانب الإيجابية في الثقافة الإسلامية التي لم نعرف كيفية إبرازها للعالم. ها أنذا أقف أمام الفندق القديم في زنقة القصور بمراكش القديمة، أنتظر مجيء مرافقي الذي سيصحبني تلك المسافة الطويلة إلى أعلى، إلى حيث قمة الأطلس التي تظل الثلوج فوقها طوال العام، حتى في قيظ يوليو وأغسطس أشد درجات الحرارة في مراكش والصحراء المنبسطة.

المعتمد بن عباد

في عام سبعة وتسعين، صعدت إلى جبل الأطلس الكبير، قصدت زيارة قبر الملك الشاعر المعتمد بن عباد، أحد ملوك مرحلة الطوائف بالأندلس، لم أعرف فترة في التاريخ العربي تتماهى مع الزمن الذي نعيش فيه مثل مرحلة ملوك الطوائف بالأندلس، حيث استقل حكام الأندلس، كل بناحية وتناحروا فيما بينهم واستعان بعضهم بالأجنبي المتربص الزاحف، وكان من هؤلاء المعتمد ملك إشبيلية الذي تحالف مع ألفونسو ملك قشتالة وكان سببًا في ضياع طليطلة، عندما بدأ تقدم الإسبان، ولما شعر ملوك الطوائف بالخطر استغاثوا بأمير المرابطين، مؤسس مراكش، القائد المغربي القوي يوسف بن تاشفين الذي عبر مضيق جبل طارق بجيوشه وهزم القشتاليين في واقعة شهيرة تعرف بالزلاقة، إلا أن فساد ملوك الطوائف استفزه، وعاد إلى الأندلس ليقضي عليهم جميعًا، وقبض على المعتمد بن عباد وأرسله مع أسرته وحاشيته إلى أغمات في الأطلس الكبير، وفيها لقي من الذل والحاجة ما تفيض مصادر التاريخ في وصفه، وبعضهم يحمل على يوسف بن تاشفين قسوته، حتى إن ابن الأثير يقول عنه: «فقد أبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسٍ ولؤم قدر»، لكن في رأيي أن القائد المغربي أراد أن يضرب مثلاً لمن تسول له نفسه في مستقبل الأيام أن يسلك طريقًا مماثلاً، وحياة المعتمد بن عباد مأساة كبرى انعكست في شعره، فمن ذروة الثراء والرغد إلى حضيض السجن وقسوة القيد، وقد زرت مرقده في عام سبعة وتسعين بصحبة الدكتور أحمد الطيب الذي كان لي شرف رفقته في تلك الزيارة إلى المغرب، وهو من أصول مغربية شأن كبار

الصوفية الراقدين في تراب مصر، لقد وقفت طويلاً على قبره البسيط وقبر زوجته، وتذكرت حسرته على ابنيه اللذين قُتلا في الحرب ضد الإسبان، لقد هان عليه حاله وذله في الأسر، فأنشد هذين البيتين يخاطبهما به:

يقولون: صبرًا لا سبيل إلى الصبر
سأبكي، وأبكي ما تطاول من عمري
فلو عدتما، لاخترتما العود في الثرى
إذا أنتما أبصرتمانيَ في الأسر

في العصر -اليوم جمعة- أصعد مرة أخرى إلى الأطلس، ولكن هذه المرة للقاء صديق عزيز، عالم كبير، وأديب أكبر، الدكتور أحمد التوفيق، والذي يسكن قرب أعلى قمم الأطلس، قمة توبقال، والتي أطلق الشاعر محمد بنيس اسمها على دار النشر المتميزة التي يديرها.

الطريق إلى الأطلس

تبدو جبال الأطلس للناظر إليها من مدينة مراكش كأنها تقع في منطقة الوهم والخيال والواقع، كأنها ظلال، خاصة أن ما يضفي بعدًا أسطوريًّا عليها قممها المغطاة بالثلج الفضي طوال العام حتى في شهور الصيف شديدة الحرارة، غير أن هذه الصورة في مجملها تتغير مع تقدمنا بالسيارة في الطريق الذي يصعد تدريجيًّا إلى الجبل عبر منحنيات شديدة الحدة، تذكرني بالطريق بين صنعاء وتعز، بل إن هناك تشابهًا غزيرًا بين جبال اليمن وجبال المغرب، مع الصعود التدريجي نكتشف أن هذا الجبل يضج بالحياة والحضور، والأفكار،

هنا مدن وقرى وقبائل الأمازيغ، خاصة المعروفين منهم بالمصامدة، من عمق هذه الجبال خرجت دولة الموحدين، التي قادها المهدي ابن تومرت وكانت بداية تأسيس الدولة المغربية والشخصية المغربية، المشاهد تزداد جمالاً كلما أوغلنا في الارتفاع، السفوح مغطاة بالأشجار، الصمت عميق يلف المكان كله، مع التقدم عبر الطريق المرتفع تدريجيًّا يزداد الشعور الغامض بالقرب من السماء، قال لي صديق عزيز من مراكش: إن عددًا من الأجانب أشهروا إسلامهم بعد أن أقاموا في المنطقة. أخيرًا وصلنا إلى القرية التي يقيم فيها الدكتور أحمد التوفيق، وُلد فيها عام ثلاثة وأربعين، أي أنه يكبرني بعامين، كان والده حريصًا على تعليمه، وكانت مدرسة ابتدائية وحيدة في الجبل على بعد عدة كيلومترات، كان الدكتور أحمد ينتظرني أمام درب صغير يؤدي إلى بيته، في مواجهة مسجد حديث، حرص على أن يؤكد لي أنه كان مقررًا في الخطة قبل توليه وزارة الأوقاف، وبقدر ما أعجبت بقدر ما تعجبت، أما الإعجاب فلحرص الرجل على تأكيد الأمر، وأما التعجب فلدرجة النزاهة، البناء مسجد، لكن الوزير المغربي، العالم، يحرص على تأكيد أن المسجد لم يشيد نتيجة أن أحد أبناء الناحية أصبح وزيرًا للأوقاف، كان يقود سيارته بنفسه، تجول بي في المنطقة، صحبني إلى موقع السد الذي سيفتتحه الملك محمد السادس بعد أيام، الهدف منه احتجاز مياه الأمطار والثلوج الذائبة لري المزيد من الأراضي وتوفير مياه شرب، عندما وصلنا إلى بيته البسيط. المقام وسط ما يشبه السهل الأخضر المزروع بالحشائش الخضراء والورود النادرة، أشار إليه قائلاً:

«هذا محبسي..»

قلت مداعبًا: ما أجمله من محبس، يقع البيت والقرية في السفح الغربي من جبل الأطلس، ويطلق عليه سفح الظل، أما الجهة الأخرى من الجبل فيطلق عليها سفح الشمس. أمضيت حوالي خمس ساعات بصحبته، كنا نتحدث بالعربية، وعند مجيء أحد أقاربه يتحدث بالأمازيغية، وهي لغة الناس هنا، ولها إيقاع خاص، ويكثر في موسيقاها وإيقاعها ارتباط حرفي التاء والسين، تحدثنا طويلاً عن تاريخ المغرب، عن انطلاق دولة الموحدين من هذه المنطقة، عن التجربة التي يشهدها المغرب الآن، خاصة في حماية الإرث الروحي الخاص بالمغرب من التيارات المتشددة التي وصلت رياحها إلى المغرب الأقصى، ما استوقفني عند توديعي الصديق العزيز أمام المسجد ليلاً؛ أن المسجد الحديث يحمل اسم المتصوف المغربي صفي الدين المنصوري، قد عرفته قبل سنوات طويلة عندما قرأت أحد كتبه التي حققها المستعرب الفرنسي دني جريل الأستاذ بجامعة أكس آن بروفنس، الكتاب هو (رسالة صفي الدين) وقد طبع في المعهد الفرنسي للآثار بالمنيرة باللغتين العربية والفرنسية، وقد تأثرت به كثيرًا، ثم تحين اللحظة التي أزور فيها مكان المؤلف المتصوف الكبير وأرى مسجدًا حديثًا يحوي مرقده ويحمل اسمه، فلأتأمل!

ليلة الاحتفاء

الأحد

أتحرج دائمًا من الكتابة عما ألاقيه من ترحيب أو تكريم في الخارج أو الداخل، خلال عملي الصحفي الذي مارست من

خلال موقعين، الأول كمحرر ثقافي سواء للصفحة الأدبية للأخبار، أو كاتب لليوميات، في الشق الأول لم أسمح لنفسي قط أن أستخدم المنابر التي أشرفت عليها للدعاية لشخصي أو أعمالي، تعلمت ذلك من أساتذتنا الكبار وتلك قيم كانت في الماضي تبدو من البديهيات؛ عندما أصبح نجيب محفوظ رقيبًا على السينما، جاءه المخرج الكبير صلاح أبو سيف برواية «بداية ونهاية» التي رفضت رقابيًا من قبل، غير أن محفوظ قال له: لا هذه ولا غيرها. ما دمت أشغل هذه المسئولية فلن تمر إحدى رواياتي ولن أوقع على قصة من قصصي.

خلال تولي يحيى حقي رئاسة تحرير المجلة، وقد كانت من أهم الإصدارات الثقافية في مصر، توقفت مع مجلات أخرى قيمة بعد حركة مايو 1971 والتي كانت بداية لاستهداف الثقافة الجادة والمثقفين الكبار، حيث نقل عشرات من مواقعهم الإعلامية من خلاصة الكفاءات وأكثرها خبرة. وفي الرابع من فبراير عام ثلاثة وسبعين تم طرد مائة وأربعة كتاب وصحفيين من أعمالهم. وكانت القائمة تبدأ بتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وتضم أنبغ وأكبر كتاب مصر بلا استثناء وتلك صفحة مظلمة من تاريخ الثقافة في مصر، وعلاقة المثقفين بالسلطة تحتاج إلى وقفة أطول لغرائبها وتأثيرها السلبي على الدور الثقافي المصري فيما تلا ذلك. كان يحيى حقي صارمًا فيما يتعلق بعدم نشر أي مقال عنه أو يتعرض له، هذا ما طبقته ومازلت في أخبار الأدب، ومن حسن الحظ أن عملنا الصحفي يتجسد في أوراق تصبح أشبه بالوثيقة. أخبار الأدب التي تتم عامها الخامس عشر هذا الأسبوع موجودة فليراجعها من يشاء ليتثبت مما

أقوله، يوميات الأخبار أكتب فيها عن رؤيتي للواقع، وأدق خلجاتي الشخصية التي تلتقي مع اهتمامات الناس، أو تعبر عن المشترك الإنساني بيننا، لعل هذه المقدمة تبرر ما سأورده عن تكريمي في نهاية أنشطة المؤتمر السنوي لجمعية منية مراكش وفي الليلة الأخيرة التي سأبدأ فيها سفري فجرًا إلى الدوحة. أي أعبر الوطن العربي كله من المحيط إلى الخليج وهذا ما بدأت به رحلتي المغربية، في كل سنة تكرم الجمعية في مؤتمرها شخصية ثقافية أدت للثقافة العربية والإنسانية خدمة جليلة أو أضافت إليها، في العام الماضي جرى تكريم أمير الشعراء أحمد شوقي، والعام القادم سيتم تكريم واحد من أعظم المستعربين الفرنسيين، أندريه ميكائيل، وهو أحد الذين خدموا الثقافة العربية في الغرب خدمة جليلة، ومازلت أذكر زيارتي له في مكتبه بالمكتبة الوطنية بمقرها القديم بشارع الكاردينال ريشليو في باريس، وجدته واقفًا على باب مكتبه في انتظاري، صافحني ناطقًا بالعربية التي يتقنها، «أيها الغيطاني، كنت أتوق إلى لقائك فقد أضفت إبداعًا جديدًا إلى الأدب العربي والإنساني»، وعند انتهاء المقابلة أخرج مفتاحًا عتيقًا، أداره في باب جانبي قائلاً: إن خروجي لابد أن يكون من هنا، من الباب الخاص بكبار الزوار، تقدمني الرجل الذي كان يحتل واحدًا من أرفع المناصب الثقافية في فرنسا إلى الشارع، في مثل هذه المواقف ينتابني خجل جبلت عليه، وارتباك، لكن بعد انتهاء الموقف أستعيده كثيرًا وأتذكره بامتنان واعتزاز، فبعد جهد طويل تكون مثل هذه اللحظات مثل المكافأة عميقة المغزى، قد أقصها على من أحب، وقد أبقيها طي الذاكرة

أسترجعها بمفردي، من هنا يجيء موقع تلك الليلة في المغرب التي خصصت لتكريمي، أو للاحتفاء بأعمالي، فكلمة تكريم أصبحت تثير حساسيتي لكثرة التكريم في واقعنا، وندرة القيم منه، فالتكريم يكتسب قيمته أساسًا ممن يُكرَّم، لكننا نشاهد في حياتنا عجبًا، فثمة قصار القامة يقدمون علب القطيفة والدروع إلى من هم أعلى مكانة وقيمة، عرفت في جامعاتنا لحظات بالغة الثراء احتفاءً بما كتبت، ومررت بلحظات قريبة مما شهدته تلك الليلة النادرة في مراكش.

وقائع التكريم

في أحد قصور مراكش الرائعة، في قاعة كبرى تتسع لأكثر من خمسمائة شخص جرت الوقائع التي بدأت بعد المغرب، على المنصة أحاطني خمسة من كبار المثقفين المغاربة، وأستاذ فرنسي، وكان الأديب الإسباني خوان جويتسيلو حاضرًا بكلمة أرسلها من فراش مرضه، الأصدقاء محمد سعد الدين اليماني (جاء من باريس خصيصًا)، الشاعر الكبير محمد بنيس جاء من الدار البيضاء وصحبني طوال اليوم، من مراكش الشاعرة ثريا إقبال، والناقد أحمد آية درهام. وبالطبع جعفر الكنسوسي مدبر هذا كله.

الهدف من حضور هؤلاء إلقاء الضوء على ما قدمه الشخص موضع التكريم، أي ما يشبه حلقة دراسية في أعماله، والاستماع إلى كلمة منه، وقد اخترت الحديث عن العلاقات المصرية المغربية في المجال الثقافي، الثقافي بالمعنى العميق والشامل، وكل يوم يحمل لي جديدًا في هذا المجال، خلال الفترة الأخيرة تركز اهتمامي على

شاعر صوفي عظيم هو أبو الحسن الشستري، وقد طُبع ديوانه مرة واحدة في الإسكندرية بتحقيق الدكتور سامي النشار عام 1961، فوجئت أنه ساح في الأرض حتى توفي في دمياط ودفن بها، كانت مصر محطة رئيسية في الطريق إلى مكة، وكان للمغاربة حضور كبير في الثقافة المصرية والحياة الروحية، مما أسعدني وجود فرقة مصرية تضم أكثر من ثلاثين عازفًا ومنشدًا يقودها الفنان انتصار عبد الفتاح، أسعدني وجودهم أثناء مناسبة تخصني ولأنهم قدموا عرضًا بديعًا رائعًا، وقد انتقاهم ودربهم الفنان انتصار عبد الفتاح في ظروف وعرة، وأتمنى أن يولي الدكتور أحمد مجاهد هذه الفرقة أهمية خاصة، كذلك قصر ثقافة الغوري الذي من المفترض أن يكون مركزًا لإحياء الإنشاد الديني في مصر، اكتظت القاعة الرئيسية في قصر مولاي سليمان المشيد في القرن التاسع عشر، والحاوي لزخارف أندلسية رائعة، وأنواع نادرة من الزليج (الخزف) على الطراز الأندلسي كما يعرف في البرتغال ويسمونه هناك الزليجوس. لقد استغرقت المناسبة أكثر من ساعتين، أختار من الكلمات التي قيلت، نصًّا للدكتور أحمد التوفيق، الروائي، وزير الأوقاف، وملخصًا لكلمة ألقاها الشاعر محمد بنيس، أما كلمات خوان جويتسيلو ومحمد سعد الدين اليماني وأحمد آية درهام، والدكتور جان فرانسوا كليمو فمما تضيق بها مساحة اليوميات.

في كلمته التي أرسلها من مقره ومسقط رأسه في جبال الأطلس، قال الدكتور أحمد التوفيق، وزير الأوقاف حاليًّا، الأديب الأكاديمي من قبل ومن بعد، إن مراكش احتفت العام الماضي بالشاعر

أحمد شوقي، واليوم تحتفي بهذا الأديب المتميز، المتفرد، عرفانًا من أهل بلدنا بالإسهام المصري في ثقافة الضاد على مر العصور. إن الغيطاني الحاضر معنا يمثل المصري المثقف الذي يحمل للمغرب عرفانًا خاصًّا مؤسسًا على اقتناع يُسفِّه أوهام القائلين في الثقافة بشرعية المركز والهامش، ذلك أن الغيطاني المتشرب لحكمة التراث يتملك حسًّا مرهفًا على الاستيعاب المستمر، إن الغيطاني أعرف أهل المشرق بأهل المغرب لثقافته التراثية الواسعة، إن أدبه طبقًا لما أتذوقه له عمق كوني من قبل أن يكون ثريًّا بلغته، من حيث هوسه بالمكان، وتأطيره بالزمان، هكذا تتجسد خصوصيته الكونية من كافة مفردات التراث، إضافة إلى أنه أدب غني بالتجربة، من الاحتفال بالمكان، كلف بألوانه، بحيث لا يضاهيه كاتب بالعربية في العناية بألوان الأمكنة وتنوعها، كل المصائر تتقطع فجأة وقد كنا ننتظر منها بقية، وأمام هذا كله يظل نفس الكاتب مثل القوس المشدود والسهم المتأهب، لو صح أن نبعث أدبًا بالوسطية والاعتدال لقلنا إنه أسس لهذا الأدب؛ لأنه منذ أكثر من أربعين عامًا يشيد عمارة أصيلة فيها أنفاس الصالحين السابقين وحيوان الحاضرين.

الصديق الشاعر محمد بنيس أكد في بداية كلمته أنه يحضر تأكيدًا لشغفه بأعمال الكاتب ولشعلة الصداقة التي لم تنطفئ عبر ثلاثين سنة، كما أنه يحضر اعترافًا بفضل القائمين على هذا الاحتفاء وفي مقدمتهم الصديق جعفر الكنسوسي. قال إن أول عمل قرأه للكاتب كان «الزيني بركات» الذي اكتشف من خلاله صوتًا أدبيًّا جديدًا من مصر، يختار التجريب بدون استئذان نهاية الستينيات، آنذاك كانت قيمة الأعمال

الأدبية معتبرة في قدرتها على المغامرة والبحث عن أشكال غير معتادة للكتابة. «الزيني بركات» عمل يؤرخ لهذا الافتقار للجمالية المضاءة وقد أصبحت لغة الحرية والجرأة واختبار المجهول، لقد قدم جمالية جديدة مختلفة تنقلنا إلى الكشف عن السراديب التي تؤدي بنا إلى أحاسيس مختلفة بالإنسان والعالم في آن. في عام تسعة وسبعين كان لقاؤنا في فاس، لوقت قصير، كان كافيًا لنتيه معًا في أضواء وعتمات المدينة القديمة، المعمار أول ما قادنا إلى الكلمات المشتركة ثم نشوة الحواس بلذة ما تراه العين من تركيبات الزليج (الخزف) والجبس وما تنصت إليه الأذن من الموسيقى الأندلسية أو الملحون، متاهنا في فاس كان بداية الهبوط إلى أسرار لم تفارق الصديق العزيز، العقود الثلاثة التي حافظت فيها الصداقة على سموها هي بمثابة عهود شهدنا وعشنا فيها ما تبدل من عوالم وما انهار من قيم وما تفاقم من إخفاقات، سمو الصداقة بيننا ظل على الدوام يبحث عن الأساسي، نائيًا عما يُعجل بابتذال معاني الكلمات ويعجل بانتصار الامتيازات على القيم الكبرى، أقصد الحرية، المغامرة، الإبداع، ثم تحدث محمد بنيس عن «كتاب التجليات» وقد ذكره كل من أسهم في هذا الاحتفاء، قال إن «كتاب التجليات» كان يمنحني ما أضيء به عتمة الطريق، كتابات يصبح بعدها العالم قريبًا منا، ينفذ إلى دواخلنا، متشظيًا، منزوع الأقنعة، هاربًا إلى حيث لا ندري، أنصت وأنا أقرأ أعمالك كما لو كنت أخترق الحجُب التي تتكاثر يومًا بعد يوم، ولا أفرق أحيانًا بين ما تكتب من افتتاحيات في أخبار الأدب وبين ما تنشره من قصص قصيرة ومقالات، تلك علاقة الكتاب الذين يعبرون الحدود بين

أجناس أدبية وكتابية من أجل أن يبقى المنفتح سيد الكتابة. قال بنيس إنه يفرح في هذه اللحظة المراكشية، صديقنا الراحل جمال الدين بن الشيخ. أتذكر عنايته الخاصة بترجمة بعض أعمالك إلى الفرنسية ونشرها لدى دار (السور) إحدى أكبر دور النشر الفرنسية ومنها انتقلت رواياتك إلى لغات العالم، في بيته بباريس كان يأخذه الحديث عنك وعن تقديره لما تقدمه للرواية العربية وعبر أعمالك كنا نستنطق وضع الإبداع العربي وإقبال العالم العربي على قراءته، قال محمد بنيس ما نصه «أفرح وأنا أنظر إليك، فها هي أعمالك تنتقل بيننا كما تنتقل بين قراء لغات عديدة، أعمال تمنحنا ما يمنعه الزمن عنا وينتزع منا، ضرورة أن تكون الكتابة تجربة الذهاب نحو الأصلي أي نحو ما يحافظ للغة على المعنى في زمن يستبد به مشوهون للمعنى، اختتم كلمته بما تأثرت به كثيرًا، قال: بسمو الصداقة أشارك في الاحتفاء بك، هذا اليوم، إن مراكش وهي تحتفي بك وتكرمك، تؤيد حفاوتها عبر التاريخ بكل من رأت فيه شمعة تضاف إلى شموعها الألف، هنا يلتف حولك محبون وأنا واحد منهم، أعمالك تفسح لنا في الحياة وأنت في مراكش كما في القاهرة.

عن التجليات

ترجع صداقتي بالكاتب الكبير خوان جويتسيلو إلى أكثر من ثلاثة عقود، عرفته في مراكش حيث يقيم، وفي باريس، وفي مدريد، وبالطبع في القاهرة التي يتردد عليها بانتظام، كتب عني العديد من المقالات والدراسات الهامة في جريدة البابيس واسعة الانتشار

والتي يعد ملحقها الثقافي من أهم الملاحق في أوربا والعالم، خص الاحتفاء بكلمة تحدث فيها عن كتاب التجليات وقراءته بين ما قرأ، غير أن المفاجأة الحقيقية لي كان ما قدمه الدكتور جان فرانسوا كليمو، هو أستاذ للأدب بجامعة ليون، وطوال أيام الندوة كان يحييني برقة، ولم يقم حديث بيننا، لم أكن أعرف أنه جاء خصيصًا من أجلي، وبالتحديد للحديث عن (كتاب التجليات)، تقع الدراسة التي أعدها في ثمانين صفحة من القطع الكبير، بالفرنسية، أي تشكل كتابًا بالعربية في حدود مائة وخمسين صفحة، لم يقرأ، فلو قرأ الدراسة سيحتاج إلى ليل ونهار كاملين، إنما ارتجل الحديث متوجهًا إلى الجمهور الذي غصت به القاعة، كان مفعمًا بالحيوية والحماس، كثير مما قاله يفوق ما توقعت أو سمعت، وأخجل من إيراده، غير أنه أكد أن (التجليات) سيعرف العالم قيمتها يومًا، وستصبح من الآثار الأدبية الإنسانية، وأكد أنه لا يمكن قراءة عمل بهذا المستوى كرواية مصرية بسيطة، لو قرأناها كمجرد رواية يتحدث كاتبها عن شجون مصرية بشخصيات مصرية ورؤى سياسية منطلقة من ظروف مصر، فإن القراءة ستكون سطحية، هذه الرواية شيء آخر تمامًا حتى لو احتوت الخيال، الخيال فيها على درجة من العمق بحيث يبدو على الفور كعمل أدبي يتجاوز الأجواء الثقافية العربية أو الإسلامية، الأمر يتعلق بنموذج فريد في تجاربه الروحية المتعاقبة إرادية وغير إرادية، النص شديد التعقيد والعمق، لا يمكن نسبته إلى الشرق أو الغرب، لأنه دخل في حال الفردانية، لقد كان ما قاله الأستاذ الفرنسي مفاجأة لي، ليس من حيث المضمون، فعديدة المقالات

والدراسات التي ظهرت بعد ترجمة الرواية عام ألفين وخمسة، وتضمنت معاني مشابهة، لكن الأستاذ قدم ما يمكن اعتباره أطروحة وتحليلاً عميقًا أتمنى أن يتاح يومًا قراءته بالعربية، في نهاية الاحتفاء قدم لي جعفر الكنسوسي، والفنان المطرب محمد باجدوب أحد أجمل الأصوات في الطرب العربي الأندلسي، قدم لي كل منهما هدية، الأولى نسخة طبق الأصل من مخطوطة «دلائل الخيرات» وهذه قصيدة لها مكانة هامة في الإرث الصوفي، ومجموعة ألواح كان يحملها التلاميذ عند ذهابهم إلى الزوايا والمساجد لحفظ القرآن الكريم، كل لوح عليه سورة قرآنية، مما أسعدني وجود فرقة الإنشاد الديني لقصر الغوري بقيادة الفنان انتصار عبد الفتاح، وقد قدم لي مصحفًا شريفًا، فكان الأمر مدخلاً لسعادة وتأثر حقيقيين، أن يشهد هذه الليلة نفر من أهل مصر مسقط رأسي وموطني ومنطلقي في مراكش التي أعتبرها جزءًا مني ومن تكويني الروحي، في الليل عدت إلى مقر إقامتي العتيق لأبدأ رحلتي فجرًا إلى الطرف الآخر من الوطن العربي، إلى الدوحة.

27 من المحيط غربًا إلى الخليج شرقًا

في الطائرة

العاشرة

الآن، يتحقق ما استهدفته، أن أقطع المكان من المحيط إلى الخليج، أفضل الجلوس إلى جوار النافذة خلال السفر، أستغرق في ذاتي، أنزعج إذا ما حاول جارٌ لا أعرفه أن يصل حواره معي، أبتسم مجاملاً، أومئ محييًا، وقد نتعرف، وقد نتبادل البطاقات مع علمي أننا لن نتصل أبدًا، ولن نلتقي أبدًا، هذا ما حدث مع جاري الإنجليزي المقيم في الكويت، رجل الأعمال، مندوب شركة متخصصة في الأغذية المجففة، وضعت سماعة الجهاز الموسيقي الخاص بي، ورصصت الكتب التي أصحبها معي أمامي معلنًا انهماكي، ما بين القراءة والتطلع إلى الفضاء الخارجي، الغيوم البيضاء، والبحر الأزرق والشاطئ الصخري أو الرملي الذي يبدو أحيانًا، أو الخطوط المستقيمة إشارة إلى جهد الإنسان. والمدن التي تبدو بيوتها نقاطًا

متراصة، نمر فوق المغرب الأقصى، الجزائر، تونس، ليبيا، لكل بلد تداعيات وذكريات وأحداث مرتبطة به بعضها قرأته في دفاتر التاريخ، والآخر عاصرته، لكل بلد وقفة وتأمل وتفحص، من المحيط إلى الخليج كان حلمًا لجيلي لكنه لم يخرج من نطاق العبارة السياسية رغم المحاولات التي دُفع خلال بعضها الدم وثمن فادح مثل هزيمة يونيو، حقًّا ما أشد خيباتنا نحن الذين قدر لنا أن نعيش العقود الستة الماضية، من المحيط إلى الخليج كانت الجملة تعني الحلم بوحدة الأمة. الآن أقصى أحلامنا وحدة الأوطان، أن يظل كل وطن وحدة واحدة بعد أن بدأت الفوضى الخلاقة التي تستهدف تقسيم العالم العربي على أسس طائفية وعرقية. ضاعت فلسطين، وضاع العراق، ولبنان على وشك، الذين يبدون أعداء في الظاهر (أمريكا وإيران) يعملون الآن لنفس الهدف. وللأسف لا أرى وعيًا- حتى في حده الأدنى- فيما يعرف بالأمة العربية التي تتعرض الآن للنهش وللتقسيم، لم يتوافر لأمةٍ عناصر قوة مثل هذه الأمة، ولم تعرف أمة مثلها أسبابًا للفرقة وللضعف. هنا يصبح للوطن الأولوية، خاصة إذا كان قديمًا، متماسكًا، موحدًا لآلاف السنين، بيننا الآن من يسخرون من الوطن والتمسك به، يقولون إن الولاء للأمة، ويقصدون الأمة الإسلامية، ولا أدري ما هي حدود هذه الأمة؟ أين هي؟ إذا كان مقصودًا العقيدة؛ فالعقيدة لا تحد ولا توضع لها علامات. هذا موضوع خطير ينبغي التصدي له؛ لأنه مقدمة لتفكيك الأوطان.

من الشاشة الصغيرة أمامي يمكنني تحديد موقع الطائرة، مسارها، توجد قنوات عديدة تعرض أفلامًا ومواد مسلية، لكنني أثبت وضع الخريطة التي تمدنا بمعلومات عن الرحلة، أفضل معرفة موقعي من العالم.

نقترب من مصر، إنها المرة الأولى التي أعبر فيها مصر جوًّا، أعبرها لأتجاوزها إلى بلد آخر. لم أدخل المجال الجوي إلا قاصدًا القاهرة، في هذه المرة أعبره إلى مجال آخر.

المجال الجوي للوطن

الساعة الخامسة بعد الظهر، بعد أن كنا نطير بمحاذاة ساحل البحر. بدءًا من قرب الحدود المصرية الليبية، تتجه الطائرة إلى الصحراء الغربية بالنسبة لنا، تبتعد عن البحر. توغل فوق الصحراء، فوق مصر، هنا يصبح للغيوم وللألوان معان أخرى، فتلك التضاريس تخص قومي، تخصني. إن اطمئنانًا خفيًّا مستورًا يستقر عندي، حتى لو جرى حادث للطائرة هنا لاقيت فيه حتفي فسأكون مطمئنًّا راضيًا، أشد ما يزعجني أن أموت خارج الديار، دياري وديار أهلي، إن الوطن ليس شيئًا مجردًا، لكنه متصل بسائر الحواس المعروفة ويتجاوزها إلى سائر ما لم يُعرف منها، صحيح أنني أنتمي إلى هذا الكون الشاسع الذي لم نعرف بعد أوله أو آخره. صحيح أنني سوف أتفرق فيه بعد أن تجمعت منه إلى حين، لكن الإنسان بدون مركز لا يكون إنسانًا، لكل مخلوق، لكل موجود، لابد من مركز، لابد من منطلق، وهذا المنطلق هو الوجود المباشر الذي نتعامل معه، ومنه تكون محصلتي.

ها هي مصر بصحرائها، بواديها، بخضرتها المحاذية للنهر، ها هي منطقة الفيوم، الفرع الذي يبدو متصلًا وغير متصل بأصل الشجرة، نعبر الأرض المزروعة الشحيحة بسرعة في اتجاه الشرق، العبور تم من جنوب القاهرة، يحلق فوق مدينة الغردقة، الأضواء تبدو لآلئ نادرة في الفراغ، هنا يكتمل الليل الذي رأيت بدايته فجرًا أقصى المغرب، نعبر البحر الأحمر، إلى الصحراء العربية، تستوقفني أسماء تثير عندي معاني عديدة، حائل الهفوف، مكة التي يشير إليها السهم، قبلة حوالي مليار ونصف من البشر. إنها مركزهم، وخلال الحركة يتم أيضًا تحديد المركز، يتم هذا بسهولة الآن، بالآلة الحديثة التي لم نبذل جهدًا في إنتاجها أو صناعتها، وقد كان تحديد اتجاه مكة من المهام الأساسية في الدول القديمة، وخلال رحيل قوافل الحج والتجارة كان لكل منها شخص خبير بالاتجاهات، بالظلال، بأوضاع النجوم، يُطلق عليه اسم (الميقاتي) كانت وظيفة جليلة لأنه كان عالمًا دارسًا، عالمًا بالوقت، بحركته، وليس بجوهره، فلم يدرك مخلوق بعد مبدأه ومنتهاه، ها نحن نحلق فوق الخليج باتجاه مدينة الدوحة، حيث المرحلة الثانية من الرحلة حيث يعقد مؤتمر لحوار الأديان.

الثلاثاء صباحًا

الدوحة

عندما جئت إلى الدوحة أول مرة عام سبعة وثمانين من القرن الماضي بدعوة من المثقف والصحفي البارز يوسف درويش لألقي محاضرة في نادي الجسرة نزلت في هذا الفندق الضخم الذي

شيد على هيئة هرم مقلوب، كان الشيراتون من أهم معالم المدينة، وما يحيط به خاليًا، كنت أمشي في الصباح الباكر على الكورنيش المحاذي للخليج محاطًا بالفراغ، الآن ازدحمت هذه المنطقة بالأبراج، جرى نمو سريع، وظهرت مناطق متميزة مثل سوق واقف، المنطقة القديمة التي أعيدت صياغتها وفق منظور ثقافي، تعد الآن من أجمل مناطق الخليج وأكثرها تميزًا، الأبراج تذكرنا بنموذج دُبي الذي تكرر في معظم المدن العربية بما فيها القاهرة التي عرفت المركز التجاري الشامل (المول) الملحق به الفندق، دُبي مدينة النظام الجديد للعولمة بامتياز، والأبراج رمز من رموز العولمة، المرجعية في ذلك مانهاتن بنيويورك، في نيويورك كان الأمر مبررًا، مساحة ضيقة، نشاط كثيف استلزم الصعود إلى أعلى بواسطة ناطحات السحاب منذ الثلاثينيات، أبراج شامخة تعبر عن صعود النظام الرأسمالي، الغريب أنني عندما زرت موسكو في منتصف الثمانينيات لاحظت ظاهرة العمارة الجبروتية، أبراج ستالين السبعة الشهيرة، المباني ذات الواجهات الشامخة، ثمة ملامح مشتركة بين عمارة موسكو وعمارة واشنطن، خاصة المباني الحكومية، إنها ظاهرة التعبير عن القوة بالعمارة، أوضح المعالم المعمارية المتبقية الأبراج، صحيح أن برجي مركز التجارة العالمي اختفيا من أفق مدينة نيويورك، غير أنهما كنموذج انتشر في العالم كله، لدينا في القاهرة ثلاثة مطلة على النيل في مسافة لا تتجاوز الكيلومتر والبقية تأتي في رملة بولاق التي تبدلت ملامحها تمامًا خلال السنوات الأخيرة، أبراج في ماليزيا، أخرى في شنغهاي

تنافس على الوصول إلى ارتفاعات قصوى، أبراج تعبر عن الصعود الرأسمالي الجديد، معظمها مكاتب لشركات غامضة، ومنظمات غسيل أموال، ومكاتب تجسس وفنادق، الفنادق نفسها أصبحت معالم مثل الآثار القديمة تدل على هوية ورموز، تقتفي الدوحة أثر دُبي، في قطر نمو واضح لمن يتردد على فترات قصيرة، أهل قطر فيهم دماثة ورقة، وإن كانت السياسة القطرية تحيرني، الفندق الذي نزلت فيه مركز هام للمؤتمرات، إجراءات الأمن دقيقة، مشددة، تتم بأدب وحزم، لا عجب، فثمة أجناس مختلفة وممثلو الأديان الثلاثة، هذا يعني طبعًا وجود حاخامات يهود، مما يقتضي الانتباه خاصة بالنسبة للقادمين من إسرائيل، فلا أظن أن مسلمًا حقيقيًا لديه موقف من رجال الدين أيًا كانوا!

الثلاثاء صباحًا

مفاجأة الشيخ الطيب

القاعة فسيحة، منظمة، أجهزة الترجمة الفورية والاتصال متاحة، المنصة مرتفعة، يجلس فوقها رئيس المؤتمر، وزير الأوقاف القطري، ثم حاخام جاء من الولايات المتحدة، ممثل لبابا الفاتيكان، الدكتور أحمد الطيب رئيس جامعة الأزهر، بعد الكلمات الرسمية التي حفلت بالمعاني العامة تحدث ممثلو الأديان الثلاثة طبقًا لأقدمية النزول، اليهودية ثم المسيحية والإسلام، وهذا ترتيب بشري يؤدي إلى إلغاء الديانات السابقة الداعية إلى التوحيد، ومنها الديانة المصرية، وهذا ما يتناوله علماء الآثار والمصريات

فـي أوربـا الآن. وقد صدر كتاب عالـم ألماني كبيـر هو يان آسمان. وهـو يهودي، لكـن رؤيته العلميـة دقيقة وعميقة، كتـب مؤلفًا عن النبي موسى بعنوان (التمييـز الموسوي) وقد ترجم إلى اللغة العربية فـي ألمانيا، وأثار هذا الكتاب جدلًا كبيـرًا، إذ إنه يقول بوضوح إن اليهوديـة هـي التي وضعت خطًّـا فاصلًا بين مـا كان قبلها وما جاء بعدها، وبذلك رسخ في الأذهان أن كافة ما قبلها- وبالتحديد الديانة المصريـة- كان وثنيًا، وهذا غير صحيح، أما عبارة الديانات الثلاث السماويـة فهي وضعيـة وليست إلهية، أي أنهـا مفهوم بشري شائع لا سنـد له في الكتب المقدسة، وفـي التنزيل العزيز يضع الله الصابئة بيـن الذيـن آمنـوا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[سورة البقرة]. كم من المفاهيم الشائعة يحتاج توضيحها إلى جهد جهيد وزمن طويل وخوض مخاطر.

تحدث الحاخام، وبعده ممثل بابا الفاتيكان، كان حديثهم عاديًا عامًّا، جمل تحتمل معاني عديدة إلى أن بدأ الدكتور أحمد الطيب كلمته المكتوبة، عندئذ أصبح مركزًا للقاعة ولكافة الحاضرين، يبدو الرجل في حياته العادية متواضعًا جدًّا، ولكنه تواضع ناتج عن قوة داخلية عميقة، وثقة في الذات، وإيمان قوي، منذ أن بدأ حديثه ظهر حضوره القوي الواثق، جلسته فوق المنصة، صوته العميق القوي بغير افتعال أو زعيق أو نبرة خطابية، باختصار وضع النقاط على الحروف.

منذ السطور الأولى أعلن الرجل أن الإسلام الذي ينتمي إليه واعتنقه دينًا، يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، قد كتب عليه في الحقبة الأخيرة أن يوضع في قفص اتهام جائر ظالم، وأريد لمعتنقيه والمؤمنين به أن يظلوا في موقف الدفاع ورد الفعل وصد الهجوم، وأن يستنفدوا في هذا الاتهام الزائف جهدهم وطاقتهم وأموالهم، ثم أضاف بصوته القوي الواثق، الذي لا يهاب إلا ربه تعالى:

«اسمحوا لي حضراتكم أن أكون صريحًا في كلمتي هذه بعض الشيء، فقد مللنا أحاديث المجاملات، رغم كثرتها وتكرارها، وقلة جدواها في تحقيق شيء يذكر على الجانب المقابل فيما وراء البحار، والذي أعتقده هو أننا إذا كنا جادين في إقامة حوار مثمر فإن الإسلام ليس هو الذي عليه أن يثبت أنه دين حوار، دين تكامل وتلاقح الثقافات واحترام الآخرين، فهذه الحقائق وعشرات أمثالها يعرفها لهذا الدين كثير كثير ممن لا يؤمنون به، بل وممن يهاجمونه على سواء».

ركز الدكتور أحمد الطيب على مفهوم الإسلام للاختلاف، وأن الله خلق الناس شعوبًا وقبائل ولو شاء لخلقهم أمة واحدة وعلى دين واحد، وتلك حقيقة قرآنية يتربى عليها المسلم، الحقيقة الثانية أن القرآن الكريم يؤمن بالرسالات المتتابعة منذ آدم عليه السلام حتى النبي محمد خاتم المرسلين. وأنه شقيق موسى وشقيق عيسى، وأن القرآن مصدق للإنجيل، والإنجيل مصدق للتوراة، ودلل على

هذه المعاني بأمثلة عديدة من القرآن الكريم، وأحداث من التاريخ الإسلامي. (نشرت كلمة الدكتور كاملة في العدد قبل الماضي من أخبار الأدب). وأكد على أن المسافة ما تزال شاسعة بين الغربيين والإسلام، وأن هناك إصرارًا على إلصاق تهمة العنف بالإسلام والمسلمين، مع أنه صدر عمن يعتنقون ديانات أخرى، وضرب أمثلة بما قام به القس مايكل براي واعتدائه على مصحات الإجهاض، وتيموثي ماكفي وتفجيره المبنى الحكومي بأوكلاهوما، والصراع الكاثوليكي البروتستانتي في أيرلندة، وذبح ربع مليون مسلم من مسلمي صربيا في البوسنة، وقتل 38 من المصلين الفلسطينيين على يد الطبيب النفسي اليهودي المجند، باروخ غولداستين، قال إن هذه الأحداث وقعت ولم نسمع كلمة واحدة من مسلم تتهم المسيحية أو اليهودية بالعنف، وأشار إلى ضرورة قيام جهد متبادل بين العقلاء من الطرفين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، بعد أن قام جدار من الكراهية، واختتم حديثه بقوله: «أما العقبة الرابعة فإن الحديث فيها ذو شجون، وفي الفم منها ماء كثير، ويمنعني أدب الضيافة والاستضافة أن أذكرها إلا بإيجاز أكتفي منه بالإشارة دون العبارة، هذه العقبة هي عقبة التبشير المنظم بين فقراء المسلمين، والهجوم على الإسلام من مؤسسات دينية كبرى كنا ننتظر منها أن تكون جسرًا للتواصل بين الأديان بدلًا من هذا الدور الذي يسهم باطراد في تشويه العلاقة وتعكير الصفو».

بعد أن اختتم الدكتور الطيب كلمته التف حوله جميع الحاضرين، وأصبح محورًا للمؤتمر كله، بصدقه، بنزاهته، بموقفه القوي، وفي

جلسة مناقشة أخرى قال إن أكثر من ألف شخص يشهرون إسلامهم شهريًّا، لكن الأزهر لم يعلن عن ذلك ولم يصور أحدهم أمام أجهزة الإعلام، وأبدى دهشته من قيام بابا الفاتيكان بتنصير صحفي مصري تحول إلى المسيحية وسط ضجة إعلامية كبرى، وكنت قد لاحظت خلو مقعد ممثل الفاتيكان واختفاءه من المنصة الرئيسية عند إلقاء الدكتور أحمد الطيب كلمته وعندما سألت المنظمين للمؤتمر قالوا لي إنه اضطر للانصراف بسبب موعد مع رئيس الوزراء القطري، الحق أنني تعجبت لذلك!

أعاد الدكتور أحمد الطيب إلى ذهني ما قرأته عن شيوخ الأزهر العظام وأساتذته الذين لم يشغلهم إلا الحق وخدمة دينهم، بغض النظر عن المجاملة أو السكوت عن الحق، وهذا ما نراه من البعض خاصة عند ذهابهم إلى البلاد الثرية، لقد رأيت منذ أسابيع شيخًا توسمنا في بداياته خيرًا، ينصح إحدى المستمعات في حوارٍ تليفزيوني، كرر نصيحته لها خمس مرات أن تقرأ مصحف الملك فهد، وتعجبت لشيخ في هذه المكانة كيف يقع في هذا الخطأ الفظيع الشائع الذي يقع فيه كثيرونٍ، المصحف لا ينسب إلا إلى الله سبحانه وتعالى، لا لمن كتبه خطًا ولا لمن أنفق عليه طباعةً، أما أن يكرر ذلك الخطأ خمس مرات فهذا أقل ما يُقال فيه: عيب وألف عيب.

المقاولون العرب

الأربعاء مساء

استغرقتني جلسات المؤتمر، لم أخرج إلا مرتين، الأولى لزيارة الصديق الشاعر حسن توفيق، والأخرى لتلبية دعوة السفير القدير

عبد العزيز غنيم، وعلاقتي به سابقة على وفادته إلى قطر، وهو دبلوماسي نشط، في بيته التقيت بعدد من المسئولين عن شركة «المقاولون العرب» سألت نائب رئيس مجلس الإدارة عن خبرة الشركة فى إنشاء السدود بعد بناء السد العالي، قال إن التجربة للأسف لم تنتشر، قلت إن الصين تبني عدة سدود في السودان على نهر النيل، تطرق الحديث إلى السدود التي تقام على النيل، إلى العلاقات بين دول حوض النهر، السفير عبد العزيز غنيم عمل في إثيوبيا. وإثيوبيا تعتبر من دول النطاق الأول بالنسبة للخارجية المصرية، ومن أهم ما حققه الوزير أحمد أبو الغيط التركيز على الاهتمام بإفريقيا، وإرسال أكفأ المبعوثين إلى سفاراتنا بعد أن استمرت تعامل كمنافٍ. إن إفريقيا مجال حيوي هام لمصر لكننا أدرنا ظهرنا له. عندما خرجت من بيت السفير كنت أفكر في «المقاولون العرب» فهذه شركة ضخمة قامت بأعمال كبرى، أهمها بناء السد العالي، وما تزال مؤسساتها وهيكلها موجودة، تحدث نائب رئيس مجلس الإدارة بتفاؤل عن مستقبلها خاصة بعد تسديد خمسمائة مليون جنيه للبنوك كانت ديونًا، لكن وضع «المقاولون العرب» يثير موضوعًا آخر يتصل بالشخصانية في مصر، فمهما بلغ رسوخ المؤسسات، وزاراتٍ كانت أو مؤسسات اقتصادية أو اجتماعية، ما إن ينتهي عهد حتى يبدأ تراجع بعض المؤسسات إلى الظل بسبب قرب المسئولين عنها من رأس النظام مهما كانت قوة المؤسسة، هذا ما لحق مجمع الحديد والصلب في حلوان، ما مصيره الآن؟ يبدو سوق الحديد وكأن المهيمن عليه فعليًّا حديد أحمد عز، ماذا عن مجمع الحديد؟ أين؟ ما مصيره؟ لقد توارى خلال السبعينيات ليس لأنه فاشل، لكن لأنه ارتبط بجمال عبد الناصر، بحقبة معينة، تمامًا مثل البحيرة التي

تغير اسمها، أين مؤسسة الوفاء والأمل إنسانية الهدف؟ هكذا لحق الحال العميم بالمقاولين العرب، لو أنها شركة بعيدة عن الأشخاص ربما ترسخت واستمرت في وجودها المحلي والعربي القوي، لكن مؤسسها الحاج عثمان أحمد عثمان كان مقربًا وقريبًا؛ لذلك بث في طريقها العثرات، ولأنها شيدت السد العالي، والسد ليس مشروعًا ضخمًا تجمعت حوله الأمة، بل هو في الجوهر رمز، ولولا الضرورة لأزيل من الوجود كما أزيلت اللوحة التذكارية بعد أن أبدت شخصية كبيرة دهشتها لوجودها خلال السبعينيات، بالطبع لا يصدر قرار ولا منشور بما يجب أن يتبع لمحو الذكرى وتبديل الأسماء التي تطلق في الحضور بغير حساب ثم تمحى بقسوة بعد الغياب، لا يأمر حاكم بتقزيم مشروعات كبرى أو مؤسسات راسخة، إنما هي آلية تعمل بدون إطار، تبدل حتى ملامح الوجوه، خرجت متفائلًا بموقف «المقاولون العرب» بعد أن أخبرني المهندس فيصل مرتضى باستئناف انطلاقتها، وأخبرني المهندس عاطف البلك أنهم هم الذين نفذوا هذا العمل الهندسي الجميل فوق قناة السويس شمال الإسماعيلية، غير أن ما تحسرت عليه خبرة الشركة في بناء السدود التي كان يمكن أن تتكرر في مناطق عديدة بالعالم، لكن الصينيين سبقوا بعد أن تخلصوا من عبادة الفرد وشخصنة الواقع، عقبى لنا!

الثلاثاء

في انتظار جودو

في أسفاري أصطحب مكتبة صغيرة، منها ثوابت، مثل القرآن الكريم، وديوان الحماسة لأبي تمام، وجزء من ألف ليلة، والمواقف

والمخاطبات للنفري، في هذه الرحلة أضفت مجموعة قصصية صادرة عن المشروع القومي للترجمة، نقلها إلى العربية الدكتور محمد أبو العطا، المجموعة لكاتب كبير قريب مني جدًّا، هو خورخي لويس بورخيس، وجزء من البحث عن الزمن الضائع لمارسيل بروست، ومجموعة مسرحيات لصموئيل بيكيت، أعرف أنني لن أقرأ هذا كله، لكن يسيطر عليّ إحساس أنني يمكن الانتهاء من قراءة ما أصحبه فكأنني أشرف على الهاوية، الكتاب صحبة وأمان بالنسبة لي. إنني من المعجبين بمسرح العبث الذي عرفناه خلال الستينيات، ومنذ شهور شعرت بالحنين لقراءة صموئيل بيكيت، لم أجد عندي إلا مسرحية واحدة عنوانها (لعبة النهاية)، لديّ مؤلفات يوجين يونسكو الكاملة بفضل الترجمة التي أتمها الدكتور إبراهيم حمادة وصدرت مرتين، الأولى في الكويت والثانية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، لم أجدها في مكتبتي، عندئذ لجأت إلى الصديق الدكتور فوزي فهمي، وهو واحد من كبار المثقفين وأنزههم أخلاقيًّا، أعرف مكتبته، لم أرها لكنني خلال حواراتنا الهاتفية كونت فكرة عنها، خاصة في المسرح، اتصلت به، وعدني أنه خلال يومين سيرسل لي كافة ما ترجم لبيكيت، وفًى الرجل بوعده، دخل عليّ زميلي طارق الطاهر يحمل مظروفين سميكين، قال إنهما من الدكتور فوزي، الرجل لم يعرني الكتب، إنما قام باستنساخ صورة ضوئية من كتب رأيتها في الستينيات وفقدت مني، ترجمات الدكتورة نادية كامل التي حصلت على الدكتوراه في أعمال بيكيت، مجلد ضخم عن مسرح الطليعة في فرنسا تأليف ليونارد

برونكو، ترجمة يوسف إسكندر، مراجعة الدكتور أنور لوقا، صدر هذا الكتاب عام سبعة وستين، ورواية الحب الأول والصحبة ترجمة الدكتورة فوزية العشماوي، هذا مما أضفته إلى حقيبة يدي، وخلال عبوري الجو من المحيط إلى الخليج قرأت مسرحيات صموئيل بيكيت قراءة استعادية، ثمة أعمال نحتاج إلى قراءتها مرة أخرى كما نحتاج إلى رؤية حبيب قديم أو صاحب حميم غاب عنا، كنت في حاجة إلى قراءة مسرحية إذاعية سمعتها يومًا من البرنامج الثاني، إخراج الشريف خاطر، عنوانها «شريط كراب الأخير» حيث نسمع صوتًا واحدًا من زمنين مختلفين، كراب العجوز يستمع إلى صوته عندما كان شابًّا، مجرد تسجيل، أما مسرحية «في انتظار جودو»، فلعلها من أهم الأعمال الأدبية في القرن العشرين، حيث يلتقي استراجون وفلاديمير، كلاهما في انتظار جودو، من هو جودو؟ لا نعرف، لكنهما في انتظاره، متى؟ كيف؟ لا نعرف، لكنهما في انتظار جودو، أستعيد هذا المقطع:

استراجون: ماذا عليَّ أن أقول؟

فلاديمير: قل أنا سعيد.

استراجون: أنا سعيد.

فلاديمير: وأنا أيضًا.

استراجون: وأنا أيضًا.

فلاديمير: إننا سعيدان.

استراجون: إننا سعيدان (صمت) ماذا نفعل الآن، طالما أننا سعيدان؟

فلاديمير: ننتظر جودو (استراجون يئن، صمت) لقد تغيرت الأمور منذ الأمس.

استراجون: وإذا لم يأت؟

أستعيد خلال قراءتي العرض المسرحي الممتع الذي رأيناه على مسرح الطليعة في الستينيات، كانت مصر في عصر الانغلاق تتابع العالم أولًا بأول، أما الآن في عصر الانفتاح وثورة الاتصالات فلا نعرف ماذا يعرض في باريس أو نيويورك، كلنا في انتظار جودو.

الثلاثاء صباحًا.. الدوحة

ثلاث ندوات تعقد في وقت واحد، اخترت الإعلام والعنف، لأنه متصل بالمهنة التي أمارسها، وللاطلاع على ما سيقال تأثرت جدًّا بحديث الشيخ تيسير التميمي عن معاناة الشعب الفلسطيني ومأساته، الشيخ يعيش تحت الاحتلال في القدس، كان صادقًا، موجعًا، صريحًا في حضور الحاخامات والقساوسة، غير أنني توقفت طويلًا أمام محاضرة الدكتور محمد المسفر أستاذ العلوم السياسية بجامعة قطر. وهو من أبرز الوجوه الثقافية في الخليج، لم أعرفه من قبل إلا عبر الفضائيات، قدم الرجل رؤية متكاملة لموضوع الإعلام والعنف، كيف يصور الإعلام أحيانًا العنف كما يجري تمامًا، وأحيانًا كما يريد المسيطرون على الجهاز الإعلامي الذي

يقوم بالتغطية، وضرب مثالًا بواقعة قتل الطفل محمد الدرة الذي أنهت حياته رصاصات باردة من ضابط إسرائيلي، لقد حول الإعلام مضمون الموقف إلى عكسه تمامًا، حيث صور الأمر على أن الأب هو الذي عرَّض ابنه للقتل من خلال الاحتماء به! لم يكتف الدكتور المسفر بذلك فقط، إنما قدم تسجيلًا حيًّا للجنود الإسرائيليين وهم يقومون بتكسير عظام الشبان الفلسطينيين خلال الانتفاضة الأولى ضد قوات الاحتلال، وقدم أيضًا لقطات للعنف الذي تمارسه قوات الاحتلال البريطانية في البصرة ضد العراقيين، وكذلك القوات الأمريكية، وكانت اللقطات التي عرضها على شاشة كبيرة فظيعة، إلا أن الجانب الإيجابي هو أن من التقط هذه الصور هم من الأجانب الغربيين، الحقيقة أن الإعلام العربي كله بلا استثناء لم يقدم شيئًا يذكر يفضح جرائم قوات الاحتلال في العراق وفلسطين، بل إن بعضه كان متواطئًا. إبراز هذه الجرائم بواسطة أصحاب الضمائر الحية في الإعلام الغربي يعني أنه لا يوجد موقف مطلق في جهة ما. لعل هذه ثغرة في الجدار الصلد الذي يقوم الآن بين الشرق والغرب يمكن من خلالها الحوار، الدكتور علي السمان كان مشاركًا أيضًا في المؤتمر وإن لاحظت أن حضوره لم يتناسب مع مكانته وجهده الذي بذله خلال السنوات الماضية في تأسيس الحوار بين الأديان، خاصة بين الأزهر والفاتيكان في عهد البابا العظيم السابق الذي كان داعية حوار بحق، بعكس البابا المتعصب الحالي الذي له ممارسات تؤجج التعصب والكراهية، لم يرأس الدكتور علي جلسة، ولم يكن حضوره مسموعًا إلا من خلال المناقشات، والورقة المحترمة التي

قدمها والتي نبه فيها إلى أن الحوار لم ينتقل إلى القاعدة العريضة من الجماهير، وأن الحوار لن ينجح إلا إذا اتسم بالصراحة والانحياز إلى الحق والعدل حتى لو أدى ذلك إلى إغضاب جزء من الأهل والعشيرة، كما أن غياب الفهم الثقافي لكل طرف عن الآخر يؤدي إلى سوء الفهم، لم يحتل الدكتور علي السمان المكانة التي تليق به في المؤتمر، كما ينطبق ذلك على عدد من كبار المثقفين العرب، حضروا ولكن لم يسمع صوتهم، لقد استمعت إلى أصوات عديدة، غير أن عددًا منها سيتردد في ذاكرتي لأنه عبر عن الحق، منهم الدكتور أحمد الطيب، والدكتور محمد المسفر، والشيخ الدكتور تيسير التميمي، والأب يوحنا قلتة (صعيدي مصري وروائي أيضًا)، وحاخام أمريكي للأسف لا أذكر اسمه، لكنه تحدث عن حقوق الشعب الفلسطيني وأدان العنف الذي يمارس ضده.

الشكل والمضمون

الأربعاء

هل يؤثر الفكر الذي يعتنقه الإنسان على ملامحه وهيئته؟ أمر شغلني منذ زمن طويل، عندما أرى الأصدقاء من المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين أو التنظيمات القريبة، أرى لهم ملامح متقاربة، شكل اللحية، غلظ الرقبة، هيئة الأكتاف، وأحيانًا امتلاء القامة، بل نفس طريقة التعبير، هل الأمر صدفة؟ أم أن المضمون الفكري للإنسان يحدد هيئته ويؤثر على ملامحه، مع اعتقادي الجازم بخصوصية كل إنسان؟ لكن ثمة قسمات مشتركة في ذهني تجعلني أطرح التساؤل،

نفس الأمر ينطبق على من ينتمون إلى اليسار، حيث الملامح الأكثر نحافة، مع النظارة الطبية أحيانًا، وحركات الأيدي وإشارات الأصابع التي تصاحب الحديث، بل إننا لو دققنا أكثر فسنجد أن أصحاب كل اتجاه يشتركون في قسمات مغايرة، فالماركسيون يختلفون عن الوجوديين أو أصحاب الاتجاهات العمومية، كذلك الحال في الأديان، إن نظرة البوذي متميزة حتى لو كان إنسانًا عاديًّا لا يرتدي الرداء البرتقالي الذي يتميز به الرهبان البوذيون، لو ارتدى ثلاثة ينتمي كل منهم إلى الإسلام والمسيحية واليهودية، فسيكون من اليسير أن أتعرف على كل منهم بغض النظر عن العلامات التي تضفي خصوصية على كل منهم، مثل الضفائر اليهودية، أو شكل اللحى التي يختلف بعضها عن بعض طبقًا للديانة المتبعة، ثمة شيء خفي أحاول الإمساك به يضفي خصوصية على هذا الإنسان ويميزه عن ذاك، بل ربما يكون الأمر متصلًا أيضًا باللغة؛ لذلك أقول دائمًا إنني لو كنت أتكلم لغة غير العربية لاختلفت ملامحي، لننظر إلى علاقة الملامح الهندية بالنطق، أو الصينية، أو الإفريقية، بل يخيل إليّ أن الحالة الداخلية للإنسان تحدد ملامحه مهما حاول إخفاءها، كثيرة هي العوامل التي تضفي خصوصية على كل إنسان، لكن المؤكد لي بعد طول تفحص أنه لا يوجد إنسان يشبه الآخر، مثل بصمة الإصبع والآن بصمة العين، وما سيجِدُّ ويكتشف.

الفهـرس

صدر للمؤلف

- آفاق الذاكرة.
- قوت العيون.
- حمام الحمى. . يوميات الحج.
- الطريق إلى الجهات الأصلية.
- مجرات الروح.
- مقاربة الأبد.
- ملامح القاهرة في ألف سنة.
- مدينة الغرباء.
- مقاصد الأسفار.





مقاصد الأسفار

«إن المفتاح السحري في كتابة الرحلات لا يكمن في إجادة وصف الديار والأنهار والجبال والوديان والسهول، ولا في الحديث عن اختلاف العادات والتقاليد بين المجتمعات المختلفة، وما يشبه الأساطير في تصوير غوامض المدن، بل يكمن في هذه اللغة البديعة أو بالأصح الطقس اللغوي المتميز الذي لا يخلو من عفوية، وهو ما يتمثل في كل ما كتبه جمال الغيطاني عن رحلاته العربية والشرقية والغربية، وعن هروبه المتعمد من شروح الدليل وإرشاداته إلى الكنوز التي تخفى عنه ...».

«والغيطاني بعمله هذا (مقاصد الأسفار) ينعش ذاكرة القارئ العربي؛ لكي يستذكر موروثه الجميل في أدب الرحلات الذي كتبه ابن بطوطة، وابن جبير وغيرهما».

من كلمة الناقد الكبير

«عبد العزيز المقالح» في تقديم الكتاب



www.nahdetmisr.com

